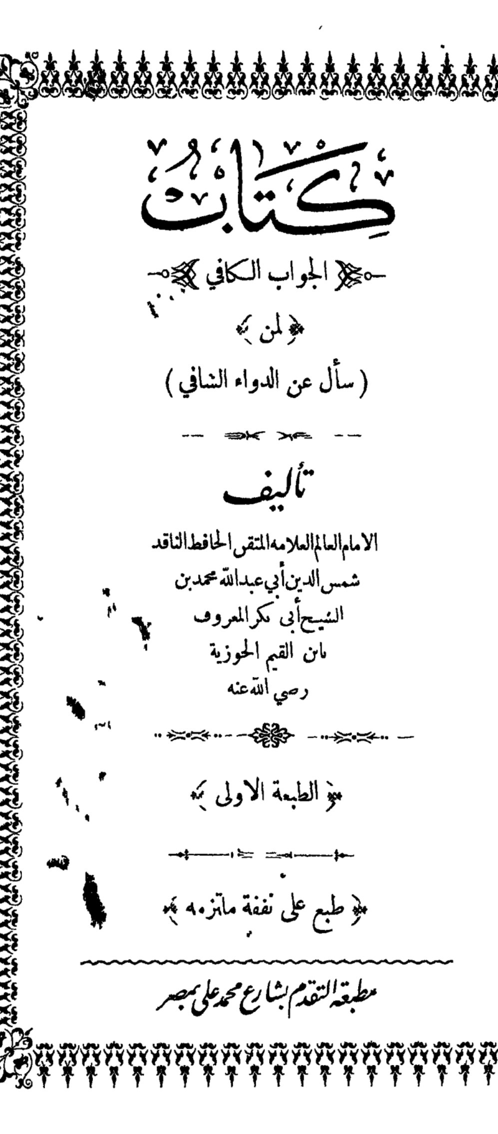




كتاب

الجواب الكافي

لمن

(سأل عن الدواء الشافي)

تأليف

الامام العالم العلامه المتقن الحافظ الناقد
شمس الدين أبي عبدالله محمد بن
الشيخ أبي بكر المعروف
بابن القيم الجوزية
رضي الله عنه

الطبعة الاولى

طبع على نفقة ماتز ٩٠

مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل الشيخ الامام العالم العلامة المتقن الحافظ الناقد شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ الصالح أبي بكر عرف (بابن القيم الجوزية) رضى الله عنه ماتقول السادة العلماء أئمة الدين رضى الله عنهم أجمعين فى رجل ابتلى ببلية وعلم انها إن استمرت به أفسدت دنياه وآخرته وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق فما يزداد الا توقداً وشدة فما الحيلة في دفعها وما الطريق الى كشفها فرحم الله من أعان مبتلى والله فى عون العبد ما كان العبد في عون أخيه أفتونا مأجورين

فكتب الشيخ رضى الله عنه تحت السؤال الجواب الحمد لله (أما بعد) فقد ثبت في صحيح البخارى من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ماأنزل الله داء الا أنزل له شفاء وفى صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل داء دواء فاذا أصيب دواء الداء برأ باذن الله وفى مسند الامام أحمد من حديث أسامة بن شريك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله لم ينزل داء الا أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله وفي لفظ إن الله لم يضع داء الا وضع له شفاء أو دواء إلا داء واحداً قالوا يارسول الله ماهو قال الهرم قال الترمذى هذا حديث صحيح وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها وقد جعل النبي صلي الله عليه وسلم الجهل داء وجعل دواءه سؤال العلماء فروي أبو داوود فى سننه من حديث جابر ابن عبد الله قال خرجنا في سفر فاصاب رجلا منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال هل تجدون لى رخصة فى التيمم قالوا مانجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال قتلوه قتلهم الله الا سألوا إذ لم يعلموا فانما شفاء العي السؤال إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب على جرحه بخرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده فاخبر أن الجهل داء وان شفاءه السؤال وقد أخبر سبحانه عن القرآن انه شفاء فقال الله تعالي ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدي وشفاء وقال وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ومن ههنا لبيان الجنس لا للتبعيض فان القرآن كله

شفاء كما قال في الآية الاخري فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أشجع في إزلة الداء من القرآن وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد قال انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فى سفرة سافروها حتي نزلوا على حى من أحياء العرب فاستضافوهم فابوا أن يضيفوهم فلدغ سيد ذلك الحي فسعوا له بكل شيء لاينفعه شيء فقال بعضهم لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء فاتوهم فقالوا أيها الرهط ان سيدنا لدغ وسعينا له بكل شيء لاينفعه فهل عند أحد منكم شيء فقال بعضهم نعم والله إني لأرقى ولكن والله إستضفناكم فلم تضيفونا فما أنا براق حتى تجعلوا لنا جعلا فصالحوهم على قطيع من الغنم فانطلق يتفل عليه ويقرأ الحمد لله رب العالمين فكأنما نشط من عقال فانطلق يمشي ومابه قلبة فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه فقال بعضهم إقتسموا فقال الذي رقا لاتفعل حتى نأتي النبي صلي الله عليه وسلم فنذكر له الذي كان فننظر بما يأمرنا فقدموا على رسول الله صلي الله عليه وسلم فذكروا له ذلك فقال وما يدريك إنها رقية ثم قال قد أصبتم اقتسموا وأضربوا لى معكم سهماً فقد أثر هذا الدواء في هذا الداء وأزاله حتى كأن لم يكن وهو أسهل دواء وأيسره ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأي لها تأثيراً عجيباً في الشفاء ومكثت بمكة مدة تعتريني أدواء ولاأجد طبيباً ولا دواء فكنت أعالج نفسي بالفاتحة فأري لها تأثيراً عجيباً فكنت أصف ذلك لمن يشتكى ألماً وكان كثير منهم يبرأ سريعاً ولكن ههنا أمر ينبغي التفطن له وهو ان الاذكار والآيات والادعية التي يستشفى بها ويرقابها هي في نفسها نافعة شافية ولكن تستدعى قبول المحل وقوة همة الفاعل وتأثيره فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل أو لعدم قبول المنفعل او لمانع قوي فيه يمنع ان ينجع فيه الدواء كما يكون ذلك في الأدويه والادواء الحسية فان عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره فان الطبيعة اذا أخذت الدواء لقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول وكذلك القلب اذا أخذ الرقاء والتعاويذ بقبول تام وكان للراقى نفس فعألة وهمة مؤثرة في إزالة الداء وكذلك الدعاء فانه من أقوى الاسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب ولكن قد يتخلف عنه أثره إما لضعفه فى نفسه بان يكون دعاء لايحبه الله لما فيه من العدوان وإما لضعف القلب وعدم إقباله علي الله وجمعيته عليه وقت الدعاء فيكون بمنزلة القوس الرخو جدا فان السهم يخرج منه خروجا ضعيفاً وإما لحصول المانع من الاجابة من أكل الحرام والظلم ورين الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها كما فى صحيح الحاكم من حديث

أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أدعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة واعلموا أن الله لايقبل دعاء من قلب غافل لاه فهذا دواؤنا نافع مزيل للداء ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس إن الله طيب لايقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده الى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك وذكر عبد الله بن أحمد فى كتاب الزهد لابيه أصاب بني إسرائيل بلاء فخرجوا مخرجا فأوحي الله عزوجل الى نبيهم أن أخبرهم إنكم تخرجون الى الصعيد بابدان نجسة وترفعون الي أكفا قد سفكتم بها الدماء وملأتم بها بيوتكم من الحرام الآن حين اشتد غضبي عليكم ولن تزدادوا منى الا بعدا وقال ابو ذر يكفى من الدعاء البر ما يكفى الطعام من الملح

فصل

والدعاء من أنفع الادوية وهو عدو البلاء يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله ويرفعه أو يخففه إذا نزل وهو سلاح المؤمن كما روى الحاكم فى صحيحه من حديث على بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والارض وله مع البلاء ثلاث مقامات • أحدها أن يكون أقوي من البلاء فيدفعه • الثاني أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفاً • الثالث أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه وقد روي الحاكم فى صحيحه من حديث عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغنى حذر من قدر والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان الى يوم القيامة وفيه أيضاً من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء وفيه أيضاً من حديث ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يرد القدر الا الدعاء ولا يزيد فى العمر الا البر وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه

فصل

ومن أنفع الادوية الالحاح فى الدعاء وقد روى ابن ماجة في سننه من حديث أبي هريرة

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يسئل الله يغضب عليه وفي صحيح الحاكم من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم لاتعجزوا فى الدعاء فانه لايهلك مع الدعاء أحد وذكر الاوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يحب الملحين فى الدعاء وفى كتاب الزهد للامام أحمد عن قتادة قال قال مورق ماوجدت للمؤمن مثلا الا رجل في البحر على خشبة فهو يدعو يارب يارب لعل الله عز وجل أن ينجيه

فصل

ومن الآفات التى تمنع ترتب أثر الدعاء عليه أن يستعجل العبد ويستبطي الاجابة فيستحسر ويدع الدعاء وهو بمنزلة من بذر بذراً أوغرس غرساً فجعل يتعاهده ويسقيه فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله وفى البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يستجاب لاحدكم مالم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي وفي صحيح مسلم عنه لايزال يستجاب للعبد مالم يدع بأثم أو قطيعة رحم مالم يستعجل قيل يارسول الله ما الاستعجال قال يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجاب لى فيستحسر عند ذاك ويدع الدعاء وفي مسند أحمد من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لايزال العبد بخير مالم يستعجل قالوا يا رسول الله كيف يستعجل قال يقول قد دعوت لربي فلم يستجب لى

فصل

واذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب وصادف وقتاً من أوقات الاجابة الستة وهي الثلث الاخير من الليل وعند الأذان وبين الأذان والاقامة وادبار الصلوات المكتوبات وعند صعود الامام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلوة وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم وصادف خشوعاً في القلب وانكساراً بين يدي الرب وذلاله وتضرعاً ورقة واستقبل الداعي القبلة وكان على طهارة ورفع يديه إلى الله تعالى وبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ثني بالصلوة على محمد عبده صلى الله عليه وسلم ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار ثم دخل على الله والح عليه فى المسئلة وتملقه ودعاه رغبة ورهبة وتوسل اليه باسمائه وصفاته وتوحيده وقدم بين يدي دعائه صدقة فان هذا الدعاء لايكاد يرد أبداً ولا سيما ان صادف الادعية التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنها مظنة الاجابة أو أنها متضمنة للاسم الأعظم فمنها مافي السنن وفي صحيح بن حبان من

حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول
اللهم إني أسألك باني أشهد أنك أنت الله لا إله الا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم
يولد ولم يكن كفواً أحد فقال لقد سأل الله بالاسم الذي إذا سئل به أعطي وإذا دعي به
أجاب وفي لفظ لقد سألت الله باسمه الاعظم وفى السنن وصحيح أبي حاتم بن حبان أيضاً
من حديث أنس بن مالك أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً ورجل يصلى ثم دعا
فقال اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله الا أنت المنان بديع السموات والارض ياذا الجلال
والاكرام ياحى ياقيوم فقال النبي صلي الله عليه وآله وسلم لقد دعا الله باسمه العظيم الذي
إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطي وأخرج الحديثين أحمد فى مسنده وفى جامع الترمذي
من حديث أسماء بنت يزيد أن النبي صلي الله عليه وسلم قال إسم الله الاعظم فى هاتين
الآيتين وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم وفاتحة آل عمران الم الله لا إله إلا هو
الحي القيوم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وفى مسند أحمد وصحيح الحاكم من
حديث أبي هريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال
ألظوا بياذ الجلال والاكرام يعني تعلقوا بها والزموها وداوموا عليها وفي جامع الترمذي
من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أهمه الامر رفع رأسه الى السماء
وإذا اجتهد في الدعاء قال ياحى ياقيوم وفيه أيضاً من حديث أنس بن مالك قال كان
النبي صلى الله عليه وسلم إذا كربه أمر قال ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث وفى صحيح الحاكم
من حديث أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اسم الله الاعظم في ثلاث سور
من القرآن البقرة وآل عمران وطه قال القاسم فالتمستها فاذا هي آية الحي القيوم وفي جامع
الترمذي وصحيح الحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي صلي الله عليه وسلم قال
دعوة ذي النون اذ دعا وهو فى بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين
إنه لم يدع بها مسلم في شئ قط الا استجاب الله له قال الترمذى حديث صحيح وفي صحيح
الحاكم أيضاً من حديث سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بشئ إذا نزل برجل
منكم أمر مهم فدعا به يفرج الله عنه دعاء ذي النون وفى صحيحه أيضاً عنه أنه سمع النبي
صلى الله عليه وسلم وهو يقول هل أدلكم على اسم الله الاعظم دعاء يونس فقال رجل يارسول
الله هل كان ليونس خاصة فقال ألا تسمع قوله فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك
ننجي المؤمنين فأيما مسلم دعا بها فى مرضه اربعين مرة فمات في مرضه ذلك أعطي أجر
شهيد وان برأ برأ مغفوراً له وفي الصحيحين من حديث بن عباس أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب لا إله الا الله العظيم الحليم لا إله الا الله رب العرش العظيم

لاإله الاالله رب السموات ورب الارض رب العرش الكريم وفى مسند الامام أحمد من حديث على بن أبي طالب رضي الله عنه قال علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل بي كرب أن أقول لاإله الاالله الحليم الكريم سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم والحمد لله رب العالمين وفي مسنده ايضاً من حديث عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك بن عبدك بن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك اللهم بكل اسم هولك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك أوأنزلته فى كتابك او استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي الا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحا فقيل يارسول الله ألانتعلمها قال بل ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها وقال ابن مسعود ما كرب نبي من الانبياء الااستغاث بالتسبيح وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب المجانين في الدعاء عن الحسن قال كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الانصار يكني أبامغلق وكان تاجراً يتجر بمال له ولغيره يضرب به في الآفاق وكان ناسكا ورعا فخرج مرة فلقيه لص مقنع فى السلاح فقال له ضع مامعك فاني قاتلك قال فماتريد الادمي فشأنك والمال قال أماالمال فلى ولست أريد إلادمك قال أماإذا أبيت فذرني اصلى أربع ركعات قال صل مابدالك فتوضأ ثم صلى أربع ركعات فكان من دعائه فى آخر سجدة أن قال ياودود ياذا العرش المجيد يافعال لماتريد أسألك بعزك الذي لايرام وبملكك الذي لايضام وبنورك الذي ملأ أركان عرشك ان تكفيني شرهذا اللص يامغيث اغثني يامغيث اغثني يامغيث اغثني ثلاث مرات فاذا هو بفارس أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه فلما بصربه اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله ثم أقبل اليه فقال قم فقال من أنت بابي أنت وأمي فقد أغاثني الله بك اليوم فقال أنا ملك من أهل السماء الرابعة دعوت فسمعت لابواب السماء قعقعة ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لاهل السماء ضجة ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل لى دعاء مكروب فسألت الله ان يوليني قتله قال الحسن فمن توضي وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروباً كان أو غير مكروب

فصل

وكثيرا مانجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله أوحسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكرا لحسنته أوصادف الدعاء وقت إجابة ونحو ذلك فاجيبت دعوته فيظن الظان ان السر في لفظ ذلك الدعاء فيأخذه

مجردا عن تلك الامور التي قارنته من ذلك الداعي وهذا كما اذا استعمل رجل دواء نافعا فى الوقت الذى ينبغى على الوجه الذي ينبغي فانتفع به فظن غيره ان استعمال هذا الدواء مجرداً كاف في حصول المطلوب كان غالطا وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس ومن هذا قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب فيظن الجاهل ان السر للقبر ولم يعلم ان السر للاضطرار وصدق الالتجاء الى الله فاذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله كان افضل وأحب الى الله

فصل

والادعية والتعوذات بمنزلة السلاح والسلاح بضاربه لا بحده فقط فمتى كان السلاح سلاحا تاماً لا آفة به والساعد ساعد قوي والمانع مفقود حصلت به النكاية في العدو ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير فان كان الدعاء في نفسه غير صالح أو الداعى لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء أو كان ثم مانع من الاجابة لم يحصل الاثر

فصل

وههنا سؤال مشهور وهو ان المدعو به إن كان قد قدر لم يكن بد من وقوعه دعا به العبد أولم يدع وان لم يكن قد قدر لم يقع سواء سأله العبد أولم يسأله فظنت طائفة صحة هذا السؤال فتركت الدعاء وقالت لا فائدة فيه وهؤلاء مع فرط جهلهم وضلالهم متناقضون فأن اطرد مذهبهم لوجب تعطيل جميع الاسباب فيقال لاحدهم ان كان الشبع والري قد قدرا لك فلا بد من وقوعهما أكلت أولم تأكل وإن لم يقدرا لم يقعا أكلت أولم تأكل وإن كان الولد قدر لك فلابد منه وطأت الزوجة والامة أولم تطأهما وإن لم يقدر لم يكن فلا حاجة الى التزويج والتسري وهلم جرا فهل يقال هذا عاقل أو آدمي بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الاسباب التي بها قوامه وحياته فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالانعام بل هم أضل سبيلا وتكايس بعضهم وقال الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يثيب الله عليه الداعي من غير أن يكون له تأثير في المطلوب بوجه ما ولا فرق عند هذا الكيس بين الدعاء والامساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ولا فرق وقالت طائفة أخرى أكيس من هؤلاء بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله سبحانه أمارة على قضاء الحاجة فمتى وفق العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمارة على أن حاجته قد قضيت وهذا كما إذا رأيت غيما أسود باردا في زمن الشتاء فان ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر قالوا وهكذا حكم الطاعات مع الثواب والكفر والمعاصي مع العقاب هي أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب لانها أسباب له

وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار والحرق مع الاحراق والازهاق مع القتل ليس شيء من ذلك سببا ألبتة ولا إرتباط بينه وبين مايترتب عليه الا بمجرد الاقتران العادي لا التأثير السببي وخالفوا بذلك الحس والعقل والشرع والفطرة وسائر طوائف العقلاء بل أضحكوا عليهم العقلاء والصواب ان ههنا قسما ثالثاً غير ماذكره السائل وهو أن هذا المقدور قدر بأسباب ومن أسبابه الدعاء فلم يقدر مجردا عن سببه ولكن قدر بسببه فمتى أتي العبد بالسبب وقع المقدور ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور وهذا كما قدر الشبع والري بالاكل والشرب وقدر الولد بالوطيء وقدر حصول الزرع بالبذر وقدر خروج نفس الحيوان بذبحه وكذلك قدر دخول الجنة بالاعمال ودخول النار بالاعمال وهذا القسم هو الحق وهذا الذي حرمه السائل ولم يوفق له وحينئذ فالدعاء من أقوي الاسباب فاذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال لافائدة في الدعاء كما لايقال لافائدة في الاكل والشرب وجميع الحركات والاعمال وليس شيء من الاسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ في حصول المطلوب ولما كان الصحابة رضى الله عنهم أعلم الامة بالله ورسوله وأفقههم في دينه كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم وكان عمر رضى الله عنه يستنصر به على عدوه وكان أعظم جنده وكان يقول للصحابة لستم تنصرون بكثرة وانما تنصرون من السماء وكان يقول اني لاأحمل هم الاجابة ولكن هم الدعاء فاذا ألهمت الدعاء فان الاجابة معه وأخذ هذا الشاعر فنظمه فقال

لو لم ترد نيل ماأرجوه وأطلبه * من جود كفيك ماعلمتني الطلبا

فمن ألهم الدعاء فقد أريد به الاجابة فان الله سبحانه يقول إدعوني أستجب لكم وقال وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان وفى سنن ابن ماجة من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم من لم يسأل الله يغضب عليه وهذا يدل على أن رضاه في سؤاله وطاعته وإذا رضى الرب تبارك وتعالى فكل خير فى رضاه كما أن كل بلاء ومصيبة في غضبه وقد ذكر الامام أحمد في كتاب الزهد أثراً أنا الله لاإله إلاأنا إذا رضيت باركت وليس لبركتي منتهى وإذا غضبت لعنت ولعنتي تبلغ السابع من الولد وقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الامم على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها على أن التقرب الى رب العالمين وطلب مرضاته والبر والاحسان الى خلقه من أعظم الاسباب الجالبة لكل خير واضدادها من أكبر الاسباب الجالبة لكل شر فما استجلبت نعم الله واستدفعت نقمة الله بمثل طاعته والتقرب اليه والاحسان الى خلقه وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول السرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الاعمال ترتيب الجزاء

على الشرط والمعلول على العلة والمسبب على السبب وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع فتارة يرتب الحكم الخبري الكوني والأمر الشرعي على الوصف المناسب له كقوله تعالى فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين وقوله فلما آسفونا انتقمنا منهم وقوله والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا وقوله ان المسلمين والمسلمات الى قوله والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما وهذا كثير جداً وتارة ترتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء كقوله تعالى إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيآتكم ويغفر لكم وقوله وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءغدقاً وقوله فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين ونظائره وتارة يأتي بلام التعليل كقوله ليتدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب وقوله لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وتارة يأتي باداة كي التي للتعليل كقوله كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم وتارة يأتي بباء السببية كقوله تعالى ذلك بما قدمت أيديكم وقوله بما كنتم تعملون وبما كنتم تكسبون وقوله ذلك بأنهم كفروا بآياتنا وتارة يأتي بالمفعول لاجله ظاهراً أو محذوفاً كقوله فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى وكقوله تعالى أن تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين وقوله أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا أى كراهة أن تقولوا وتارة يأتي بفاء السببية كقوله فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها وقوله فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية وقوله فكذبوهما فكانوا من المهلكين ونظائره وتارة يأتي باداة لما الدالة على الجزاء كقوله فلما آسفونا انتقمنا منهم ونظائره وتارة يأتي بأن وما عامت فيه كقوله انهم كانوا يسارعون في الخيرات وقوله فى ضد هؤلاء إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين وتارة يأتي باداة لولا الدالة على ارتباط ماقبلها بما بعدها كقوله فلولا انه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون وتارة يأتي بلو الدالة على الشرط كقوله ولو أنهم فعلوا مايوعظون به لكان خيراً لهم وبالجملة فالقرآن من أوله الى آخره صريح في ترتب الجزاء بالخير والشر والاحكام الكونية والامرية على الاسباب بل ترتب احكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الاسباب والاعمال ومن تفقه في هذه المسئلة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع ولم يتكل على القدر جهلا منه وعجزاً وتفريطاً وإضاعة فيكون توكله عجزاً وعجزه توكلا بل الفقيه كل الفقيه الذى يرد القدر بالقدر ويدفع القدر بالقدر ويعارض القدر بالقدر بل لا يمكن الانسان ان يعيش الا بذلك فان الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر وهكذا من وفقه الله وألهمه

رشده يدفع قدر العقوبة الاخروية بقدر التوبة والايمان والاعمال الصالحة فهذا وزن المخوف في الدنيا ومايضاده فرب الدارين واحد وحكمته واحدة لايناقض بعضها بعضاً ولا يبطل بعضها بعضا فهذه المسألة من اشرف المسائل لمن عرف قدرها ورعاها حق رعايتها والله المستعان لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه أحدهما أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير ويكون له بصيرة في ذلك بما شهده في العالم وما جربه في نفسه وغيره وما سمعه من أخبار الامم قديماً وحديثاً ومن أنفع مافي ذلك تدبر القرآن فانه كفيل بذلك على أكمل الوجوه وفيه أسباب الخير والشر جميعاً مفصلة مبنية ثم السنة فانها شقيقة القرآن وهي الوحي الثاني ومن صرف اليهما عنايته اكتفى بهما من غيرهما وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما حتى كأنك تعاين ذلك عياناً وبعد ذلك فاذا تأملت أخبار الامم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ماعلمته من القرآن والسنة ورأيته بتفاصيل ماأخبر الله به ووعد به وعلمت من آياته في الآفاق مايدلك على أن القرآن حق وأن الرسول حق وأن الله ينجز وعده لامحالة فالتاريخ تفصيل لجزئيات ماعرفنا الله ورسوله من الأسباب الكلية للخير والشر

فصل

الأمر الثاني أن يحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب وهذا من أهم الأمور فان العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ولا بد ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة وبالتسويف بالتوبة والاستغفار باللسان تارة وبفعل المندوبات تارة وبالعلم تارة وبالاحتجاج بالقدر تارة وبالاحتجاج بالاشباه والنظراء تارة وبالاقتداء بالأكابر تارة وكثير من الناس يظن أنه لوفعل مافعل ثم قال أستغفر الله زال أثر الذنب وراح هذا بهذا وقال لى رجل من المنتسبين الى الفقه أنا أفعل ماأفعل ثم أقول سبحان الله وبحمده مائة مرة وقد غفر ذلك أجمعه كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من قال في يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر وقال لي آخر من أهل مكة نحن أحدنا إذا فعل مافعل ثم اغتسل وطاف بالبيت أسبوعاً قد محي عنه ذلك وقال لي آخر قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أذنب عبد ذنباً فقال أي رب أصبت ذنباً فاغفر لي فغفر الله ذنبه ثم مكث ماشاء الله ثم أذنب ذنباً آخر فقال أي رب أصبت ذنباً فاغفر لي فقال الله عز وجل علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليصنع ماشاء وقال أنا لاأشك أن لي رباً يغفر الذنب ويأخذ به وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء واتكل عليها

وتعلق بها بكلتا يديه واذاعوتب على الخطايا والانهماك فيها سرد لك مايحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء وللجهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب كقول بعضهم وكثر مااستطعت من الخطايا اذا كان القدوم على كريم وقول بعضهم التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله وقال الآخر ترك الذنوب جراءة على مغفرة الله واستصغارا لها وقال محمد بن حزم رأيت بعض هؤلاء من يقول في دعائه اللهم اني أعوذ بك من العصمة ومن هؤلاء المغرورين من يتعلق بمسألة الجبروان العبد لافعل له البتة ولا إختيار وإنما هو مجبور على فعل المعاصي ومن هؤلاء من يغتر بمسألة الا رجاء وأن الايمان هو مجرد التصديق والاعمال ليست من الايمان وأن ايمان أفسق الناس كايمان جبريل وميكائيل ومن هؤلاء من يغتر بمحبة الفقراء والمشائخ والصالحين وكثرة التردد إلي قبورهم والتضرع إليهم والاستشفاع بهم والتوسل الى الله بهم وسؤاله بحقهم عليه وحرمتهم عنده ومنهم من يغتر بآبائه وأسلافه وأن لهم عند الله مكانة وصلاحاً فلا يدعون أن يخاصوه كما يشاهد في حضرة الملوك فان الملوك تهب لخواصهم ذنوب أبنائهم وأقاربهم وإذا وقع أحد منهم في أمر مفظع خلصه أبوه وجده بجاهه ومنزلته ومنهم من يغتر بان الله عز وجل غنى عن عذابه وعذابه لايزيد في ملكه شيئاً ورحمته له لاينقص من ملكه شيئاً فيقول أنا مضطر إلي رحمته وهو أغني الاغنياء ولو أن فقيراً مسكيناً مضطراً الى شربة ماء عند من في داره شط يجري لما منعه منها فالله أكرم وأوسع فالمغفرة لاتنقصه شيئاً والعقوبة لاتزيد في ملكه شيئاً ومنهم من يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة فاتكلوا عليه كاتكال بعضهم على قوله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى قال وهو لايرضى أن يكون في النار أحد من أمته وهذا من أقبح الجهل وأبين الكذب عليه فانه يرضى بما يرضى به ربه عز وجل والله تعالى يرضيه تعذيب الظلمة والفسقة والخونة والمصرين على الكبائر فحاشا رسوله أن يرضى بما لايرضى به ربه تبارك وتعالى وكاتكال بعضهم على قوله تعالى ان الله يغفر الذنوب جميعاً وهذا أيضاً من أقبح الجهل فان الشرك داخل في هذه الآية فانه رأس الذنوب وأساسها ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين فانه يغفر ذنب كل تائب أي ذنب كان ولو كانت الآية في حق غير التائبين ابطلت نصوص الوعيد كلها وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة وهذا إنما أوتي صاحبه من قلة علمه وفهمه فانه سبحانه ههنا عمم وأطلق فعلم أنه أراد التائبين وفي سورة النساء خصص وقيد فقال إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء فاخبر الله سبحانه أنه لايغفر الشرك وأخبر أنه يغفر مادونه ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره وكاغترار بعض الجهال بقوله

تعالى ياأيها الانسان ماغرك بربك الكريم فيقول كرمه وقد يقول بعضهم انه لقن المغتر حجته وهذا جهل قبيح وانما غره بربه الغرور وهو الشيطان ونفسه الأمارة بالسوء وجهله وهواه وأتي سبحانه بلفظ الكريم وهو السيد العظيم المطاع الذي لاينبغي الاغترار به ولا إهمال حقه فوضع هذا المغتر الغرور فى غير موضعه واغتر بمن لاينبغي الاغترار به وكاغترار بعضهم بقوله تعالى في النار لايصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى وقوله أعدت للكافرين ولم يدر هذا المغتران قوله فأنذرتكم ناراً تلظى هي النار مخصوصة من جملة دركات جهنم ولوكانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقل لايدخلها بل قال لايصلاها الاالاشقى ولايلزم من عدم صليها عدم دخولها فان الصلى أخص من الدخول ونفي الاخص لايستلزم نفى الاعم ثم هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها فلايكون مضمونا له ان يجنبها وأما قوله في النار أعدت للكافرين فقد قال في الجنة أعدت للمتقين ولاينافى إعداد النار للكافرين أن تدخلها الفساق والظلمة ولا ينافى إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من فى قلبه أدني مثقال ذرة من ايمان ولم يعمل خيرا قط وكاغترار بعضهم على صوم يوم عاشوراء أو يوم عرفة حتي يقول بعضهم يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها ويبقى صوم عرفة زيادة في الاجر ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء وهي إنما تكفر مابينهما اذا اجتنبت الكبائر فرمضان والجمعة الى الجمعة لايقويا على تكفير الصغائر الا مع انضمام ترك الكبائر اليها فيقوي مجموع الامرين على تكفير الصغائر فكيف يكفر صوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصر عليها غير تائب منها هذا محال على أنه لايمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء يكفر لجميع ذنوب العام على عمومه ويكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع ويكون إصراره على الكبائر مانعاً من التكفير فاذا لم يصر على الكبائر تساعد الصوم وعدم الاصرار وتعاونا على عموم التكفير كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر مع أنه سبحانه قد قال إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم فعلم أن جعل الشئ سبباً للتكفير لايمنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوي وأتم منه مع انفراد أحدهما وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوي وأتم وأشمل وكاتكال بعضهم على قوله صلى الله عليه وسلم حاكياً عن ربه أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن بي ماشاء يعني ماكان في ظنه فانا فاعله به ولاريب أن حسن الظن إنما يكون مع الاحسان فان المحسن حسن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه ولايخلف وعده ويقبل توبته واما المسئ المصر على الكبائر والظلم والمخالفات فان وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه

من حسن الظن بربه وهذا موجود فى الشاهد فان العبد الآبق المسي الخارج عن طاعة سيده لايحسن الظن به ولايجامع وحشة الاساءة إحسان الظن ابداً فان المسيء مستوحش بقدر إساءته وأحسن الناس ظناً بربه أطوعهم له كما قال الحسن البصري ان المؤمن أحسن الظن بربه فاحسن العمل وان الفاجر أساء الظن بربه فاساء العمل فكيف يكون يحسن الظن بربه من هوشارد عنه حال مرتحل فى مساخطه وما يغضبه متعرض للعنته قد هان حقه وأمره عليه فاضاعه وهان نهيه عليه فارتكبه وأصرعليه وكيف يحسن الظن به من بارزه بالمحاربة وعادى اولياءه ووالى اعداءه وجحد صفات كماله وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفته به رسله وظن بجهله ان ظاهر ذلك ضلال وكفر وكيف يحسن الظن به من يظن أنه لايتكلم ولا يأمر ولاينهى ولا يرضى ولا يغضب وقدقال الله في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات وهو السر من القول وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فاصبحتم من الخاسرين فهؤلاء لماظنوا أن الله سبحانه لايعلم كثيراً مما يعملون كان هذا اساءة لظنهم بربهم فارداهم ذلك الظن وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله ووصفه بمالا يليق به فاذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان هذاغروراً وخداعاً من نفسه وتسويلا من الشيطان لا احسان ظن بربه فتأمل هذا الموضع وتأمل شدة الحاجة اليه وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بانه ملاقى الله وأن الله يسمع ويري مكانه ويعلم سره وعلانيته ولا يخفى عليه خافية من أمره وأنه موقوف بين يديه ومسئول عن كل ماعمل وهومقيم على مساخطه مضيع لاوامره معطل لحقوقه وهومع هذا يحسن الظن به وهل هذا الامن خدع النفوس وغرور الاماني وقد قال أبوا أمامة بن سهل بن حليف دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رضي الله عنها فقالت لورأيتما رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض له وكانت عندي ستة دنانيرأوسبعة فأمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أفرقها قالت فشغلني وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتي عافاه الله ثم سألني عنها فقال مافعلت أكنت فرقت الستة الدنانير فقلت لا والله لقد كان شغلني وجعك قالت فدعا بها فوضعها في كفه فقال ماظن نبي الله لولقي الله وهذه عنده وفي لفظ ماظن محمد بربه لولقى الله وهذه عنده فيالله ماظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله اذا لقوه ومظالم العباد عندهم فان كان ينفعهم قولهم حسناً ظنوننا بك لم يعذب ظالم ولا فاسق فليصنع العبد ماشاء وليرتكب كل مانهاه الله عنه وليحسن ظنه بالله فان النار لاتمسه فسبحان الله مايبلغ الغرور بالعبد وقد قال ابراهيم لقومه أفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين أي ماظنكم أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن

بالله هو حسن العمل نفسه فان العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه فالذي حمله على العمل حسن الظن فكلما حسن ظنه حسن عمله والا فحسن الظن مع اتباع الهوي عجز كما في الترمذي والمسند من حديث شداد ابن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة وإما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتي احسان الظن فان قيل بل يتأتي ذلك ويكون مستند حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده وان رحمته سبقت غضبه وانه لاتنفعه العقوبة ولا يضره العفو قيل الامر هكذا والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به فانه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام وشدة البطش وعقوبة من يستحق العقوبة فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البر والفاجر والمؤمن والكافر ووليه وعدوه فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته وقد باء بسخطه وغضبه وتعرض للعنته واوقع في محارمه وانتهك حرماته بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأقلع وبدل السيئة بالحسنة واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة ثم أحسن الظن فهذا حسن ظن والاول غرور والله المستعان ولا تستبطل هذا الفصل فان الحاجة اليه شديدة لكل أحد ففرق بين حسن الظن بالله وبين الغرة به قال الله تعالى ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله فجعل هؤلاء أهل الرجاء لا الظالمين والفاسقين وقال تعالي ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم فاخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها فالعالم يضع الرجاء مواضعه والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه

فصل

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه وضيعوا أمره ونهيه ونسوا أنه شديد العقاب وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ومن اعتمد على العفو مع الاصرار على الذنب فهو كالمعاند وقال معروف رجاؤك لرحمة من لاتطيعه من الخذلان والحمق وقال بعض العلماء من قطع عضواً منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لاتأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا وقيل للحسن نراك طويل البكاء فقال أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي وسأل رجل الحسن فقال ياأبا سعيد كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تنقطع فقال والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى

تلحقك المخاوف وقد ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور في النار كما يدور الحمار برحاه فيطوف به أهل النار فيقولون يافلان ما أصابك ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه وذكر الامام أحمد من حديث أبي رافع قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبقيع فقال أف لك أف لك فظننت أنه يريدني قال لا ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعياً الى آل فلان فغل نمرة فدرع الآن مثلها من نار وفي مسنده أيضاً من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت من هؤلاء قالوا خطباء من أمتك من أهل الدنيا كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم أفلا يعقلون وفيه أيضاً من حديثه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء ياجبريل فقال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم وفيه أيضاً عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول يامقلب القلوب والابصار ثبت قلبي على دينك فقلنا يارسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال نعم ان القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء وفيه أيضا عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل مالى لم أر ميكائيل ضاحكا قط قال ماضحك منذ خلقت النار وفي صحيح مسلم عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتي بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ في النار صبغة ثم يقال له يابن آدم هل رأيت خيراً قط هل مر بك نعيم قط فيقول لا والله يارب ويؤتي باشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة صبغة فيقال له يابن آدم هل رأيت بؤسا قط هل مر بك شدة قط فيقول لا والله يارب مامر بي بؤس قط ولارأيت شدة قط وفي المسند من حديث البراء بن عاذب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الانصار فانتهينا الى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأن على رؤسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الارض فرفع رأسه فقال استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا ثم قال ان العبد المؤمن اذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل اليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كان وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان أهل الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أخرجي ايتها النفس المطمئنة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها فاذا أخذها

لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الارض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة الا قالوا ماهذه الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان باحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به الى سماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها الى السماء التي تليها حتي ينتهي به الي السماء السابعة فيقول الله عز وجل أكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه الى الارض فاني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخري قال فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول ربي الله عز وجل فيقولان له مادينك فيقول ديني الاسلام فيقولان له ماهذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هو محمد رسول الله فيقولان له وما علمك فيقول قرأت كتاب الله عز وجل فآمنت به وصدقت فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فافرشواه من الجنة والبسوه من الجنة وأفتحوا له باباً الى الجنة قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره قال ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول له من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير فيقول أنا عملك الصالح فيقول رب أقم الساعة ثم رب أقم الساعة حتي أرجع الي أهلي ومالي قال وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل اليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتي يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب قال فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبتل فيأخذها فاذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الارض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة الا قالوا ماهذه الروح الخبيثة فيقولون فلان بن فلان باقبح أسمائه التى كان يسمى بها في الدنيا فيستفتح فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط فيقول الله عز وجل أكتبوا كتابه في سجين في الارض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ ومن يشرك بالله فكأنما خرمن السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لاأدري فيقولان له مادينك فيقول هاه هاه لاأدري فيقولان له ماهذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه لاأدرى فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فافرشوا له من النار والبسوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه

قبره حتي تختلف فيه اضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذى يسوءك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول ومن أنت فوجهك الوجه الذى يجيء بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لاتقم الساعة وفي لفظ لاحمد ايضا ثم يقيض له أعمي أصم أبكم في يده مرزبة لوضرب بها جبلا كان ترابا فيضربه ضربة فيصير ترابا ثم يعيده الله عزوجل كما كان فيضربه ضربة أخري فيصيح صيحة يسمعها كل شيء الا الثقلين قال البراء ثم يفتح له باب الى النار ويمهد له من فرش النار وفي المسند أيضاً عنه قال بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أبصر بجماعة فقال على مااجتمع هؤلاء قيل على قبر يحفرونه ففزع رسول الله صلي الله عليه وسلم فبدر بين يدي أصحابه مسرعا حتي انتهي الي القبر فجثي على ركبتيه فاستقبلته من بين يديه لأنظر مايصنع فبكى حتي بل الثري من دموعه ثم أقبل علينا فقال أي إخواني لمثل هذا اليوم فاعدوا وفي المسند من حديث بريدة قال خرج الينا رسول الله صلي الله عليه وسلم يومافنادي ثلاث مرات ياأيها الناس أتدرون مامثلي ومثلكم فقالوا الله ورسوله أعلم فقال إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا يأتيهم فبعثوا رجلا يتراءى لهم فابصر العدوفاقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فاهوي بثوبه أيها الناس أتيتم أيها الناس أتيتم ثلاث مرات وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم كل ماأسكر حرام وإن على الله عزوجل عقداً لمن شرب المسكر ان يسقيه من طينة الخبال قيل وماطينة الخبال قال عرق أهل النار أو عصارة أهل النار وفي المسند أيضاً من حديث أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني أري مالاترون وأسمع مالا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط مافيها موضع أربع أصابع الا وعليه ملك يسبح الله ساجدا لو تعلمون ماأعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم الى الصعدات تجارون الى الله تعالى قال أبوذر والله لوددت أني شجرة تعضد وفي المسند أيضا من حديث حذيفة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فلما انتهينا الي القبر قعد على ساقيه فجعل يردد بصره فيه ثم قل يضغط المؤمن فيه ضغطة تزول منها حمائله ويملأ على الكافر ناراً والحمائل عروق الأنثيين وفي المسند أيضا من حديث جابر قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى سعد بن معاذ حين توفى فلما صلي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع في قبره وسوى عليه سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبحنا طويلا ثم كبر فكبرنا فقيل يارسول الله لم سبحت ثم كبرت فقال لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرج الله عنه وفي صحيح البخاري من حديث أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على

أعناقهم فان كانت صالحة قالت قدموني وان كانت غير صالحة قالت ياويلها أين تذهبون بها يسمع صوتها كل شئ الا الانسان ولو سمعها الانسان لصعق وفي مسند أحمد من حديث أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تدنوا الشمس يوم القيامة على قدر ميل ويزاد في حرها كذا وكذا تغلي منها الرؤس كما تغلي القدور يعرقون فيها على قدر خطاياهم منهم من يبلغ الى كعبه ومنهم من يبلغ الى ساقيه ومنهم من يبلغ الى وسطه ومنهم من يلجمه العرق وفيه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته يسمع متى يؤمر فينفخ فقال أصحابه كيف نقول قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا وفي المسند أيضا عن ابن عمر يرفعه من تعظم في نفسه أو اختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان وفي الصحيحين عنه قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم ان المصورين يعذبون يوم القيامة ويقال لهم احيوا ماخلقتم وفيه أيضا عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده من الغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتي يبعثك الله عز وجل يوم القيامة وفيهما أيضا عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا صار أهل الجنة في الجنة وأهل النار فى النار جيء بالموت حتي يوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادى مناد ياأهل الجنة خلود ولا موت وياأهل النار خلود ولا موت فيزداد أهل الجنة فرحا الي فرحهم ويزداد أهل النار حزنا الي حزنهم وفى المسند عنه قال من اشتري ثوبا بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلوة مادام عليه ثم أدخل أصبعيه في أذنيه ثم قال صمتا إن لم أكن سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقوله وفيه عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من ترك الصلاة سكراً مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها ومن ترك الصلوة سكرا أربع مرات كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال قيل وما طينة الخبال يارسول الله قال عصارة أهل جهنم وفيه أيضاً عنه مرفوعا من شرب الخمر شربة لم تقبل له صلوة أربعين صباحا فان تاب تاب الله عليه فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال فان عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من روغة الخبال يوم القيامة وفي المسند أيضا من حديث أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات مدمناً للخمر سقاه الله من نهر الغوطة قيل وما نهر الغوطة قال نهر يجري من فروج المؤمنات يؤذي أهل النار ريح فروجهن وفيه أيضا عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فاما عرضتان فجدال ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الايدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله وفي المسند أيضاً من

حديث بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إياكم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتي يهلكنه وضرب لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً وانعنجوا ماقذفوا فيها وفي الصحيح من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم يضرب الجسر على جهنم فأكون أول من يجوز ودعوى الرسول يومئذ اللهم سلم سلم وحافتيه كلاليب مثل شوك السعدان تختطف الناس بأعمالهم فنهم الموثق بعمله ومنهم المخدوش ثم ينجوا حتى اذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد ان يخرج من النار من أراد أن يرحم ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله أمر الملائكة أن يخرجوه فيعرفونه بعلامة أثر السجود وحرم الله على النار ان تأكل من ابن آدم أثر السجود فيخرجونهم وقد امتحشوا فيصب عليهم من ماء يقال له ماء الحيوة فينبتون نبات الحبة في حميل السيل وفي صحيح مسلم عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان اول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة رجل استشهد فاتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال ماعملت فيها قال قاتلت فيك حتي قتلت قال كذبت ولكن قاتلت ليقال هو جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتي ألقى في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فاتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال ماعملت فيها قال تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن فقال كذبت ولكنك تعلمت ليقال هو عالم فقد قيل وقرأت القرآن ليقال هو قاريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتي ألقي فى النار ورجل وسع الله عليه رزقه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال ماعملت فيها فقال ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها الا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار وفي لفظ فهؤلاء أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة وسمعت شيخ الاسلام يقول كما أن خير الناس الانبياء فشر الناس من تشبه بهم من الكذابين وأدعي أنه منهم وليس منهم فخير الناس بعدهم العلما والشهداء والصديقون والمخلصون فشر الناس من تشبه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي صلي الله عليه وسلم من كانت عنده لأخيه مظلمة فى مال أو عرض فليأته فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده دينار ولا درهم فان كانت له حسنات أخذ من حسناته فاعطيها هذا والا أخذ من سيئات هذا فطرحت عليه ثم طرح في النار وفي الصحيح من حديث أبي هريرة عنه صلى الله عليه وسلم من أخذ شبراً من الارض بغير حقه خسف به يوم القيامة الى سبع أرضين وفي الصحيحين عنه قال قال

رسول الله صلي الله عليه وسلم ناركم هذه التي توقدبنوا آدم جزء واحد من سبعين جزأ من نارجهنم قالوا والله ان كانت لكافية قال فانها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزأ كلهن مثل حرها وفي المسند عن معاذ قال أوصاني رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال لاتشرك بالله شيئاً وان قتلت أو حرقت ولا تعقن والديك وان أمراك ان تخرج من مالك وأهلك ولا تتركن صلوة مكتوبة متعمدا فان من ترك صلوة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله ولا تشرب خمراً فانه رأس كل فاحشة وإياك والمعصية فان المعصية تحل سخط الله والاحاديث في هذا الباب أضعاف أضعاف ماذكرنا فلا ينبغى لمن نصح نفسه أن يتعامى عنها ويرسل نفسه في المعاصي ويتعلق بحسن الرجاء وحسن الظن قال أبو الوفاء بن عقيل أحذر ولا تغتر فانه قطع اليد في ثلاثة دراهم وجلد الحد في مثل رأس الابرة من الخمر وقد دخلت المرأة النار في هرة واشتعل الشملة ناراً على من غلها وقد قتل شهيداً وقال الامام أحمد ثنا معاوية ثنا الاعمش عن سليمان بن مسيرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال دخل رجل الجنة في ذباب ودخل رجل النار فى ذباب قالوا وكيف ذلك يارسول الله قال مر رجلان على قوم لهم صنم لايجوزه أحد حتي يقرب له شيئاً فقال لأحدهما قرب فقال ليس عندي شيء قالوا قرب ولو ذباباً فقرب ذبابا فخلوا سبيله فدخل النار وقالوا للآخر قرب فقال ما كنت أقرب شيئا دون الله عز وجل فضربوا عنقه فدخل الجنة وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوى بها فى النار أبعد مابين المشرق والمغرب وربما اتكل بعض المغترين على مايرى من نعم الله عليه فى الدنيا وأنه يغتربه ويظن أن ذلك من محبة الله له وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك فهذا من الغرور قال الامام أحمد ثنا يحيي بن غيلان ثنا رشد بن سعد عن حرملة بن عمران التجيبي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا رأيت الله عز وجل يعطي العبد من الدنيا على معاصيه مايحب فانما هو استدراج ثم تلى قوله عز وجل فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتي إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون وقال بعض السلف إذا رأيت الله عز وجل يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره فانما هو استدراج منه يستدرجك به وقد قال تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكؤن وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله فاما الانسان إذا ماابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ماابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن كلا أي ليس كل من أنعمته ووسعت

عليه رزقه أكون قدأكرمته وليس كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد اهنته بل أبتلي هذا بالنعم وأكرم هذا بالابتلاء وفي جامع الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لايحب ولا يعطي الايمان إلا من يحب وقال بعض السلف رب مستدرج بنعم الله عليه وهو لايعلم ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لايعلم ورب مغرور بستر الله عليه وهو لايعلم

فصل

وأعظم الخلق غروراً من اغتر بالدنيا وعاجلها فآثرها على الآخرة ورضي بها من الآخرة حتى يقول بعض هؤلاء الدنيا نقد والآخرة نسيئة والنقد أنفع من النسيئة ويقول بعضهم درة منقودة ولا درة موعودة ويقول آخر منهم لذات الدنيا متيقنة ولذات الآخرة مشكوك فيها ولا أدع اليقين للشك وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله والبهائم العجم أعقل من هؤلاء فان البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تقدم عليه ولو ضربت وهؤلاء يقدم أحدهم على مافيه عطبه وهو ينظر اليه وهو بين مصدق ومكذب فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء فهو من أعظم الناس حسرة لأنه أقدم على علم وإن لم يؤمن بالله ورسوله فابعد له وقول هذا القائل النقد خير من النسيئة فجوابه انه اذا تساوي النقد والنسيئة فالنقد خير وان تفاوتا وكانت النسيئة أكبر وأفضل فهي خير فكيف والدنيا كلها من أولها الى آخرها كنفس واحد من أنفاس الآخرة كما في مسند أحمد والترمذي من حديث المستورد بن شداد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماالدنيا في الآخرة الا كما يدخل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع فايثار هذا النقد على هذه النسيئة من أعظم الغبن وأقبح الجهل واذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها الى الآخرة فما مقدار عمر الانسان بالنسبة الى الآخرة فأيما أولى بالعاقل إيثار العاجل في هذه المدة اليسيرة وحرمان الخير الدائم في الآخرة أم ترك شيء حقير صغير منقطع عن قرب ليأخذ مالا قيمة له ولا خطر له ولا نهاية لعدده ولا غاية لأمده وأما قول الآخر لاأترك متيقناً لمشكوك فيه فيقال له إما أن تكون على شك من وعد الله ووعيده وصدق رسله أو تكون على اليقين من ذلك فان كنت على اليقين فما تركت الا ذرة عاجلة منقطعة فانية عن قرب لأنه متيقن لاشك فيه ولا انقطاع له وان كنت على شك فتأمل آيات الرب تعالى الدالة على وجوده وقدرته ومشيئته ووحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا به عنه وتجرد وقم لله ناظراً أو مناظراً حتي يتبين لك أن ماجاءت به الرسل عن الله فهو الحق الذي لاشك فيه وان خالق هذ العالم هو رب

السموات والأرض يتعالى ويتقدس ويتنزه عن خلاف ماأخبرت به رسله عنه ومن نسبه الى غير ذلك فقد شتمه وكذبه وأنكر ربوبيته وملكه اذ من المحال الممتنع عند كل ذي فطرة سليمة أن يكون الملك الحق عاجزا أو جاهلا لايعلم شيئاً ولا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم ولا يأمر ولا ينهي ولا يثيب ولا يعاقب ولا يعز من يشاء ولا يذل من يشاء ولا يرسل رسله إلى أطراف مملكته ونواحيها ولا يعتني باحوال رعيته بل يتركهم سدي ويخليهم هملا ولهذا يقدح في ملك آحاد ملوك البشر ولا يليق به فكيف يجوز نسبة الملك الحق المبين اليه واذا تأمل الانسان حاله من مبدأ كونه نطفة الى حين كماله واستوائه تبين له ان من عني به هذه العناية ونقله الى هذه الأحوال وصرفه في هذه الأطوار لا يليق به أن يهمله ويتركه سدى لا يأمره ولا ينهاه ولا يعرفه بحقوقه عليه ولا يثيبه ولا يعاقبه ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كل مايبصره ومالا يبصره دليلا له على التوحيد والنبوة والمعاد وأن القرآن كلامه وقد ذكرنا وجه الاستدلال بذلك فى كتاب إيمان القرآن عند قوله فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون إنه لقول رسول كريم وذكرنا طرفا من ذلك عند قوله وفى أنفسكم أفلا تبصرون وأن الانسان دليل نفسه على وجود خالقه وتوحيده وصدق رسله وإثبات صفات كماله فقد بان بان المضيع مغرور على التقديرين تقدير تصديقه ويقينه وتقدير تكذيبه وشكه فان قلت كيف يجتمع التصديق الجازم الذى لاشك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل وهل في الطباع البشرية ان يعلم العبد انه مطلوب غدا الى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة أو يكرمه أتم كرامة ويبيت ساهيا غافلا لايتذكر موقفه بين يدي الملك ولا يستعد له ولا يأخذ له أهبة قيل هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر هذا الخلق واجتماع هذين الامرين من أعجب الاشياء وهذا التخلف له عدة أسباب أحدها ضعف العلم ونقصان اليقين ومن ظن أن العلم لايتفاوت فقوله من أفسد الاقوال وأبطلها وقد سأل ابراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتي عيانا بعد علمه بقدرة الرب على ذلك ليزداد طمأنينة ويصير المعلوم غيبا شهادة وقد روى أحمد في مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ليس الخبر كالمعاين فاذا اجتمع الى ضعف العلم عدم استحضاره أو غيبته عن القلب كثيرا من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده وانضم الى ذلك تقاضى الطبع وغلبات الهوي واستيلاء الشهوة وتسويل النفس وغرور الشيطان واستبطاء الوعد وطول الامل ورقدة الغفلة وحب العاجلة ورخص التأويل والف العوائد فهناك لايمسك الايمان في القلب الا الذي يمسك السموات والارض أن تزولا وبهذا السبب يتفاوت الناس في الايمان والاعمال حتى ينتهي الى أدني مثقال ذرة في القلب وجماع هذه الاسباب يرجع الى ضعف

البصيرة والصبر ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين وجعلهم أئمة في الدين فقال تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون

فصل

وقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور وان حسن الظن ان حمل على العمل وحث عليه وساعده وساق اليه فهو صحيح وان دعا الى البطالة والانهماك في المعاصى فهو غرور وحسن الظن هو الرجاء فمن كان رجاؤه جاذباً له على الطاعة زاجراً له عن المعصية فهو رجاء صحيح ومن كانت بطالته رجاء ورجاؤه بطالة وتفريطاً فهو المغرور ولو أن رجلا كانت له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ماينفعه فاهملها ولم يبذرها ولم يحرثها وأحسن ظنه بأنه يأتى من مغلها مايأتي من غير حرث وبذر وسقي وتعاهد الارض لعده الناس من أسفه السفهاء وكذلك لو حسن ظنه وقوى رجاءه بانه يجيئه ولد من غير جماع أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم وحرص تام عليه وأمثال ذلك فكذلك من حسن ظنه وقوى رجاؤه في الفوز بالدرجات العلي والنعيم المقيم من غير طاعة ولا تقرب الى الله تعالى بأمتثال أوامره واجتناب نواهيه وبالله التوفيق وقد قال الله تعالى ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله فتأمل كيف جعل رجاءهم باتيانهم بهذه الطاعات وقال المغترون ان المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لاوامره الباغين على عباده المتجرئين على محارمه أولئك يرجون رحمة الله وسر المسئلة ان الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الاتيان بالاسباب التي اقتضتها حكمة الله فى شرعه وقدره وثوابه وكرامته فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ويرجوه أن لايكله اليها وأن يجعلها موصلة الى ماينفعه ويصرف مايعرضها ويبطل أثرها

فصل

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور أحدها محبته مايرجوه الثاني خوفه من فواته الثالث سعيه فى تحصيله بحسب الامكان وأما رجاء لايقارنه شيء من ذلك فهو من باب الاماني والرجاء شيء والاماني شيء آخر فكل راج خائف والسائر على الطريق اذا خاف أسرع السير مخافة الفوات وفى جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة وهو سبحانه كما جعل الرجاء لاهل الاعمال الصالحة فكذلك جعل الخوف لاهل الاعمال الصالحة فعلم ان الرجاء والخوف النافع هو مااقترن به العمل

قال الله تعالى ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لايشركون والذين يؤتون ماأتوا وقلوبهم وجلة إنهم الى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون وقد روى الترمذى فى جامعه عن عائشة رضى الله عنها قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقلت أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون فقال لاياإبنة الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون أن لايتقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات وقد روي من حديث أبي هريرة أيضاً والله سبحانه وصف أهل السعادة بالاحسان مع الخوف ووصف الاشقياء بالاساءة مع الامن ومن تأمل أحوال الصحابة رضى الله عنهم وجدهم فى غاية العمل مع غاية الخوف ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والامن فهذا الصديق يقول وددت اني شعرة في جنب عبد مؤمن ذكره أحمد عنه وذكر عنه أيضاً انه كان يمسك بلسانه ويقول هـذا الذي أوردني الموارد وكان يبكي كثيراً ويقول أبكوا فان لم تبكوا فتباكوا وكان اذا قام الى الصلاة كانه عود من خشية الله عز وجـل وأتي بطائر يقلبه ثم قال ماصيد من صيد ولا قطعت من شجرة(١) الا بما ضيعت من التسبيح ولما احتضر قال لعائشة يابنية اني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذه الحلاب وهذا العبد فاسرعى به إلى بن الخطاب وقال والله لوددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد وقال قتادة بلغني ان أبا بكر قال ليتني(٢) خضرة تأكلني الدواب وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله إن عذاب ربك لواقع فبكى وإشتد بكاؤه حتي مرض وعادوه وقال لابنه وهو في الموت ويحك ضع خدي على الارض عساه(٣) أن يرحمني ثم قال ويل أمي إن لم يغفر الله لى ثلاثا ثم قضى وكان يمر بالآية فى ورده بالليل فتخنقه فيبقي في البيت أياما ويعاد يحسبونه مريضا وكان فى وجهه رضى الله عنه خطان أسودان من البكاء وقال له ابن عباس مصر الله بك الامصار وفتح بك الفتوح وفعل وفعل فقال وددت اني أنجو لاأجر ولا وزر وهذا عثمان بن عفان كان اذا وقف على القبر بكى حتى تبل لحيته وقال لو انني بين الجنة والنار لاأدري الى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم الى أيتهما أصير وهذا على بن أبي طالب رضي الله عنه وبكاؤه وخوفه وكان يشتد خوفه من اثنتين طول الامل واتباع الهوي قال فاما طول الامل فينسي الآخرة وأما إتباع الهوي فيصد عن الحق ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة والآخرة مقبلة ولكل واحد منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فان اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل وهذا أبو الدرداء

---

(١) عضد شجر (٢) وددت أني (٣) لعل الله

كان يقول إن أشدما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي ياأبا الدرداء قدعلمت فكيف عملت فيما علمت وكان يقول لوتعلمون ماأنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة ولاشربتم شرابا على شهوة ولادخلتم بيتا تستظلون فيه ولخرجتم الى الصعدات تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل وهذا عبدالله بن عباس كان أسفل عينيه مثل الشراك البالى من الدموع وكان أبو ذر يقول ياليتني كنت شجرة تعضد وددت أني لم أخلق وعرضت عليه النفقة فقال عندنا عنز نحلبها وحمر ننقل عليها ومحرر يخدمنا وفضل عباءة وإني أخاف الحساب فيها وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية فلما أتي على هذه الآية أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات جعل يرددها ويبكي حتي أصبح وقال أبوعبيدة بن الجراح وددت أني كبش فذبحني أهلي وأكلوا لحمي وحسوا مرقي وهـذا باب يطول تتبعه قال البخاري فى صحيحه باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لايشعر وقال ابراهيم التيمي ماعرضت قولي على عملي الاخشيت أن أكون مكذبا وقال بن أبي مايكة ادركت ثلثين من اصحاب النبي صلي الله عليــه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحــد يقول انه على ايمان جبريل وميكائيل ويذكر عن الحسن ماخافه الامؤمن ولا أمنه الا منافق وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة أنشدك الله هل سماني لك رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني في المنافقين فيقول لاولا أزكى بعدك احداً فسمعت شيخنا يقول مراده اني لاأبرئ غـيرك من النفاق بل المراد انى لاأفتح على هذا الباب فكل من سألني هل سماني لك رسول الله صلي الله عليه وسلم فأزكيه قلت وقريب من هذا قول النبي صلى الله عليــه وسلم للذي سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب سبقك بها عكاشة ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن عداه من الصحابة ولكن لودعا له اقام آخر وآخر وانفتح الباب وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم فكان الامساك أولى والله أعلم

فصل

فلنرجع الى ما كنا فيه مما ذكرنا من ذكر دواء الداء الذي إن استمر أفسد دنيا العبد وآخرته فما ينبغي أن يعلم أن الذنوب والمعاصي تضر ولاشك أن ضررها فى القلوب كضرر السموم في الابدان على إختلاف درجاتها في الضرر وهــل فى الدنيا والآخرة شرور وداء الاسبه الذنوب والمعاصى فماالذى أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعم والبهجة والسرور الى دار الآلام والاحزان والمصائب ومالذي أخرج إبليس من ملكوت السماء

وطرده ولعنه ومسخ ظاهره وباطنه فجعلت صورته أقبح صورة وأشنعها وباطنه أقبح من صورته وأشنع وبدل بالقرب بعداً وبالرحمة لعنة وبالجمال قبحاً وبالجنة نارا تلظي وبالايمان كفراً وبموالات الولى الحميد أعظم عداوة ومشاقة وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش وبلباس الايمان لباس الكفر والفسوق والعصيان فهان على الله غاية الهوان وسقط من عينه غاية السقوط وحل عليه غضب الرب تعالى فاهواه ومقته أكبر المقت فأرداه فصار قوادا لكل فاسق ومجرم رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة فعياذاً بك اللهم من مخالفة أمرك وإرتكاب نهيك وما الذي أغرق أهل الارض كلهم حتى علا الماء فوق رأس الجبال وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتي على وجه الارض كأنهم أعجاز نخل خاوية ودمرت مامر عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم حتى صاروا عبرة للامم الى يو القيامة وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتي قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم وماالذي رفع قري اللوطية حتي سمعت الملائكة نبيح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها فاهلكم جميعاً ثم أتبعهم حجارة من سجيل السماء أمطرها عليهم فجمع عليهم من العقوبة مالم يجمعه علي أمة غيرهم ولاخوانهم أمثالها وما هي من الظالمين ببعيد وما الذى أرسل علي قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل فلما صار فوق رؤسهم أمطر عليهم ناراً تلظي وما الذى أغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم الي جهنم فالاجساد للغرق والارواح للحرق وما الذى خسف بقارون وداره وماله وأهله وماالذي أهلك القرون من بعد نوح بانواع العقوبات ودمرها تدميرا وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتي خمدوا عن آخرهم وماالذي بعث على بني إسرائيل قوما أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وقتلوا الرجال وسبوا الذراري والنساء وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فاهلكوا ماقدروا عليه وتبروا ماعلو تتبيرا وماالذي سلط عليهم بانواع العذاب والعقوبات مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد ومرة بجور الملوك ومرة بمسخهم قردة وخنازير وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب قال الامام أحمد ثنا الوليد بن مسلم ثنا صفوان بن عمرو حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال لما فتحت قبرس فرق بين أهلها فبكى بعضهم الى بعض فرأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي فقلت ياأبا الدرداء مايبكيك في يوم أعز الله فيه الاسلام وأهله فقال ويحك ياجبير ماأهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا الى ماترى وقال على بن الجعد ناشعبة عن عمرو ابن مرة قال سمعت

ابا البختري يقول اخبرني من سمع النبي صلي الله عليه وسلم يقول لن يهلك الناس حتي يعذروا من أنفسهم وفي مسند أحمد من حديث أم سلمة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا ظهرت المعاصي فى أمتي عمهم الله بعذاب من عنده فقلت يارسول الله أما فيهم يومئذ أناس صالحون قال بلى قلت كيف يصنع باؤلئك قال يصيبهم ماأصاب الناس ثم يصيرون الى مغفرة من الله ورضوان وفى مراسيل الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم لاتزال هذه الامة تحت يد الله وفى كنفه مالم يمال قراؤها امراءها ومالم يزك صلحاؤها فجارها ومالم يهن خيارها شرارها فاذاهم فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم ثم سلط عليهم جبابرتهم فيسومونهم سوء العذاب ثم ضربهم الله بالفاقة والفقر وفي المسند من حديث ثوبان قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وفيه أيضاً عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوشك أن تداعي عليكم الامم من كل أفق كما تداعي الأكلة على قصعتها قانا يارسول الله أمن قلة بنا يومئذ قال أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل تنزع المهابة من قلوب عدوكم وتجعل في قلوبكم الوهن قالوا وما الوهن قال حب الحياة وكراهة الموت وفى المسند من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء ياجبريل فقال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم وفى جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج في آخر الزمان قوم يختلون الدنيا بالدين ويلبسون للناس مسوك الضأن من اللين ألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله عز وجل أبي تغترون وعلى تجترؤن فبي حلفت لابعثن على اؤلئك فتنة تدع الحليم منهم حيرانا وذكر ابن أبي الدنيا من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال قال علي يأتي على الناس زمان لايبقى من الاسلام إلا إسمه ولا من القرآن إلا رسمه مساجدهم يومئذ عامرة وهي خراب من الهدى علماؤهم أشر من تحت أديم السماء منهم خرجت الفتنة وفيهم تعود وذكر من حديث سماك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه اذا ظهر الزنا والزنا في قرية أذن الله عز وجل بهلاكها وفى مراسيل الحسن اذا أظهر الناس العلم وضيعوا العمل وتحابوا بالالسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا بالارحام لعنهم الله عز وجل عند ذلك فاصمهم وأعمى أبصارهم وفي سنن ابن ماجة من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب قال كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه فقال يامعشر المهاجرين خمس خصال وأعوذ بالله أن تدركوهن ماظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والاوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين

مضوا ولانقص قوم المكيال والميزان إلاابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ومامنع قوم زكاة اموالهم إلامنعوا القطر من السماء فلولا البهائم لم يمطروا ولاخفر قوم العهد إلاسلط الله عليهم عدوهم من غيرهم فاخذوا بعض مافي ايديهم ومالم تعمل أئمتهم بما انزل الله فى كتابه إلاجعل الله بأسهم بينهم وفي المسند والسنن من حديث عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من كان قبلكم كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه الناهي تعذيراً فقال ياهذا اتق الله فاذا كان من الغد جالسه وواكله وشاربه كانه لم يره على خطيئة بالامس فلمارأي الله عزوجل ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون والذى نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد السفيه ولتأطرنه على الحق اطراً اوليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كمالعنهم وذكر ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني قال أوحي الله الى يوشع بن نون اني مهلك من قومك أربعين الفاً من خيارهم وستين الفاً من شرارهم قال يارب هؤلاء الاشرار فمابال الاخيار قال إنهم لم يغضبوا لغضبي وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم وذكر أبو عمر بن عبد البر عن أبي عمران قال بعث الله عزوجل ملكين الى قرية ان دمراها بمن فيها فوجدا فيها رجلا قائماً يصلي فى مسجد فقالا يارب ان فيها عبدك فلانا يصلي فقال الله عزوجل دمراها ودمراه معهم فانه ماتمعر وجهه(١) في قط وذكر الحميدى عن سفيان بن عيينة قال حدثني سفيان بن سعيد عن مسعر ان ملكا أمر أن يخسف قرية فقال يارب ان فيها فلاناً العابد فاوحي الله اليه ان به فابدأ فانه لم يتمعر وجهه في ساعة قط وذكر ابن أبي الدنيا عن وهب بن منبه قال لما أصاب داود الخطيئة قال يارب اغفرلى قال قد غفرت لك والزمت عارها بني اسرائيل قال يارب كيف وأنت الحكم العدل لا تظلم احداً أنا أعمل الخطيئة وتلزم عارها غيرى فاوحي الله اليه انك لما عملت الخطيئة لم يعجلوا عليك بالانكار وذكر ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك أنه دخل على عائشة هو ورجل آخر فقال لها الرجل ياام المؤمنين حدثينا عن الزلزلة(٢) فقالت إذا استباحوا الزنا وشربوا الخمور وضربوا بالمعازف غار الله عزوجل في سمائه فقال للارض تزلزلى بهم فان تابوا ونزعوا وإلاأهدمها عليهم قال ياأم المؤمنين أعذاباً لهم قالت بل موعظة ورحمة للمؤمنين ونكالا وعذاباً وسخطاً على الكافرين فقال أنس ماسمعت حديثا بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم أنا أشد فرحا مني بهذا الحديث وذكر ابن أبي الدنيا حديثا مرسلا ان الارض تزلزلت على عهد رسول الله صلى الله عليه

---

(١) نسخه لم يتمعر (٢) نسخه كلام في سبب الزلزلة

وسلم فوضع يده عليها ثم قال(١) اسكني فانه لم يأن لك بعد ثم التفت الى أصحابه(٢) فقال إن ربكم ليستعتبكم فاعتبروه ثم تزلزلت بالناس على عهد عمر بن الخطاب فقال يا أيها الناس ما كانت هذه الزلزلة الا عن شئ أحدثتموه والذى نفسي بيده لان عادت لا أساكنكم فيها ابداً وفي مناقب عمر لابن أبي الدنيا إن الارض تزلزلت على عهد عمر فضرب يده (٣) عليها وقال مالك مالك أما انها لو كانت القيامة حدثت أخبارها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا كان يوم القيامة فليس فيها ذراع ولا شبر الا وهو ينطق وذكر الامام احمد عن صفية قالت زلزلت(٤) المدينة على عهد عمر فقال يا أيها الناس ما هذا ما اسرع ما أحدثتم لان عادت لا تجدوني فيها وقال كعب انما زلزلت الارض اذا عمل فيها بالمعاصى فترعد(٥) فرقا من الرب عز وجل أن يطلع عليها وكتب عمر بن عبد العزيز الى الامصار أما بعد فان هذا الرجف شئ يعاتب(٦) الله عز وجل به العباد وقد كتبت إلى سائر الامصار يخرجوا في يوم كذا وكذا في شهر كذا وكذا فمن كان عنده شئ فليتصدق به فان الله عز وجل قال قد افلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى وقولوا كما قال آدم ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وقولوا كما قال نوح وإلا تغفر لى وترحمني أكن من الخاسرين وقولوا كما قال يونس لا إله إلا انت سبحانك إني كنت من الظالمين وقال الامام أحمد حدثنا اسود بن عامر ثنا ابو بكر عن الاعمش عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة (٧) واتبعوا اذناب البقر وتركوا الجهاد في سبيل الله أنزل الله بهم بلاء فلا يرفعه عنهم حتي يراجعوا دينهم ورواه أبو داود باسناد حسن وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر قال لقد رأيتنا وما أحد أحق بديناره ودرهمه من اخيه المسلم ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة وتركوا الجهاد في سبيل الله وأخذوا اذناب البقر أنزل الله عليهم من السماء بلاء فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم وقال الحسن أن العينة والله ماهي الا عقوبة من الله عز وجل على الناس ونظر بعض أنبياء بني إسرائيل الى مايصنع بهم بختنصر فقال بما كسبت أيدينا سلطت علينا من لا يعرفك ولا يرحمنا وقال بخت نصر لدانيال ما الذي سلطني على قومك قال عظم خطيئتك وظلم قومي أنفسهم وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عمار بن ياسر وحذيفة عن النبي صلي الله عليه وسلم إن الله عز وجل إذا أراد بالعباد نقمة أمات الاطفال

---

(١) نسخه فقال (٢) الصحابة (٣) بيده (٤) تزلزلت (٥) فزعة (٦) يعاقب

(٧) العينة هو أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم الى أجل مسمى ثم يشتريها باقل من الثمن الاول

وأعقم أرحام النساء فتنزل النقمة وليس فيهم مرحوم وذكر عن مالك بن دينار قال قرأت (١) في الحكمة يقول الله عز وجل أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا انفسكم بسب الملوك ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم وفي مراسيل الحسن إذا أراد الله بقوم خيراً جعل أمرهم الى حلمائهم وفيئهم عند سمحائهم واذا أراد بقوم شراً جعل أمرهم الى سفائهم وفيئهم عند بخلائهم وذكر الامام أحمد وغيره عن قتادة قال يونس يارب أنت في السماء ونحن في الارض فما علامة غضبك من رضاك قال إذا استعملت عليكم خياركم فهو من علامة رضائي عليكم وإذا استعملت عليكم شراركم فهو من علامة سخطي عليكم وذكر ابن أبي الدنيا عن الفضيل بن عياض قال أوحى الله الى بعض الانبياء إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لايعرفني وذكر أيضاً من حديث ابن عمر يرفعه والذى نفسي بيده لاتقوم الساعة حتي يبعث الله أمراء كذبة ووزراء فجرة وأعوانا خونة وعرفاء ظلمة وقراء فسقة سيماهم سيما الرهبان وقلوبهم أنتن من الجيف أهواؤهم مختلفة فيتيح الله لهم فتنة غبراء مظلمة فيتهاوكون (٢) فيها والذى نفس محمد بيده لينقضن الاسلام عروة عروة حتي لايقال الله الله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أوليسلطن الله عليكم أشراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أوليبعثن الله عليكم من لايرحم صغيركم ولايوقر كبيركم وفي معجم الطبراني وغيره من حديث سعيد بن جبير عن بن عباس قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم ماطفف قوم كيلا ولا بخسوا ميزانا الامنعهم الله عز وجل القطر وماظهر في قوم الزناء إلاظهر فيهم الموت وماظهر في قوم الربا إلاسلط الله عليهم الجنون ولاظهر في قوم القتل يقتل بعضهم بعضاً إلاسلط الله عليهم عدوهم ولاظهر في قوم عمل (٣) قوم لوط إلاظهر فيهم الخسف وماترك قوم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الالم ترفع أعمالهم ولم يسمع دعاؤهم ورواه ابن أبي الدنيا من حديث ابراهيم بن الاشعث عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه عن سعيد به وفي المسند وغيره من حديث عروة عن عائشة قالت دخل علي رسول الله صلي الله عليه وسلم وقد حفزه النفس فعرفت في وجهه أن قد حفزه شئ فماتكلم حتي توضأ وخرج فلصقت بالحجرة (٤) فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ياأيها الناس اتقوا ربكم إن الله عزوجل يقول لكم مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلاأجيبكم وتستنصروني فلاأنصركم وتسألوني فلاأعطيكم وقال العمرى الزاهد أن من غفلتك عن نفسك وإعراضك عن الله أن تري مايسخط الله فتتجاوزه ولاتأمر فيه

(١) نسخه رأيت (٢) أي يقعون فيها من غير مبالاة (٣) فعل (٤) في الحجرة

ولاتنهى عنه خوفا ممن لايملك لنفسه ضراً ولانفعاً وقال من ترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر مخافة من المخلوقين نزعت منه الطاعة ولو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخف بحقه وذكر الامام أحمد في مسنده من حديث قيس بن أبي حازم قال قال أبو بكر الصديق يايها الناس أنكم تتلون هذه الآية وأنكم تضعونها على غير مواضعها ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه وفي لفظ إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده وذكر الاوزاعى عن يحيي بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخفيت الخطيئة فلاتضر إلاصاحبها وإذا ظهرت فلم تغير ضرت العامة وذكر الامام احمد عن عمر بن الخطاب يوشك القري أن تخرب وهي عامرة قيل وكيف تخرب وهي عامرة قال إذا علا فجارها على أبرارها وساد القبيلة منافقها وذكر الاوزاعى عن حسان بن أبي عطية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ستظهر شرار أمتى على خيارها حتي يستخفي المؤمن فيهم كما يستخفي المنافق فينا اليوم وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس يرفعه قال يأتي زمان يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح فى الماء قيل بما ذاك يارسول الله قال بما يري من المنكر لايستطيع تغييره وذكر الامام أحمد من حديث جرير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال مامن قوم يعمل فيهم بالمعاصى هم أعز وأكثر ممن يعمله فلم يغيروه الا عمهم الله بعقاب وفي صحيح البخاري عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق اقتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع عليه أهل النار فيقولون اي فلان ماشأنك ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر قال كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه وذكر الامام أحمد عن مالك بن دينار قال كان حبر من أحبار بني اسرائيل يغشي منزله الرجال والنساء فيعظهم ويذكرهم بايام الله فرأى بعض بنيه يوماً يغمز النساء فقال مهلا يابني مهلا يابني فسقط من سريره فانقطع نخاعه وأسقطت امرأته وقتل بنوه فاوحي الله الى نبيهم أن أخبر فلانا الحبر ان لاأخرج من صلبك صديقاً أبداً ماكان غضبك لى الا أن قلت مهلا يابني مهلا يابني وذكر الامام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إياكم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثل كمثل القوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجئ بالعود والرجل يجئ بالعود حتي جمعوا سواداً وأججوا ناراً وانضجوا ماقذفوا فيها وفي صحيح البخاري عن

عن أنس بن مالك قال إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر وإنا كنا لنعدها على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عذبت إمرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت النار لاهي أطعمتها ولا سقتها ولا تركتها تأكل من خشاش الارض وفي الحلية لأبي نعيم عن حذيفة انه قيل له في يوم واحد تركت بنوا إسرائيل دينهم قال لا ولكنهم كانوا إذا أمروا بشيء تركوه وإذا نهوا عن شيء فعلوه حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه ومن ههنا قال بعض السلف المعاصي بريد الكفر كما ان القبلة بريد الجماع والغناء بريد الزنا والنظر بريد العشق والمرض بريد الموت وفي الحلية أيضاً عن ابن عباس أنه قال ياصاحب الذنب لاتأمن فتنة الذنب وسوء عاقبة الذنب ولما تتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته فلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب وضحكك وأنت لم تدر ماالله صانع بك أعظم من الذنب وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب ويحك هل تدرى ماكان ذنب ايوب عليه السلام فابتلاه بالبلاء في جسده وذهاب ماله استغاث به مسكين على ظالم يدرءه عنه فلم يغثه ولم ينه الظالم عن ظلمه فابتلاه الله وقال الامام أحمد حدثنا الوليد قال سمعت الاوزاعي يقول سمعت هلال بن سعد يقول لاتنظر الى صغر الخطيئة ولكن أنظر إلى من عصيت وقال الفضيل بن عياض بقدر مايصغر الذنب عندك يعظم عند الله وبقدر مايعظم عندك يصغر عند الله وقيل أوحي الله تعالى الى موسي ياموسى إن أول من مات من خلقي إبليس وذلك لانه أول من عصاني وإنما أعد من عصاني من الاموات وفي المسند وجامع الترمذي من حديث أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء فاذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي ذكره الله عزوجل كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون قال الترمذي هذا حديث صحيح وقال حذيفة إذا أذنب العبد ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يصير قلبه كالشاة الربداء وقال الامام أحمد ثنا يعقوب ثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أما بعد يامعشر قريش فانكم أهل لهذا الامر مالم تعصوا الله فاذا عصيتموه بعث عليكم من يلحاكم كما يلحي هذا القضيب لقضيب في يده ثم لحى قضيبه فاذا هو أبيض يصلد وذكر الامام أحمد

عن وهب قال أن الرب عز وجل قال في بعض مايقول لبني إسرائيل انى إذا أطعت رضيت وإذا رضيت باركت وليس لبركتى نهاية وإذا عصيت غضبت وإذا غضبت لعنت ولعنتى تبلغ السابع من الولد وذكر أيضاً عن وكيع ثنا زكريا عن عامر قال كتبت عائشة الى معاوية أما بعد فان العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذاماً ذكر أبو نعيم عن سالم بن أبي الجعد عن أبي الدرداء قال ليحذر إمرأ أن تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لايشعر ثم قال أتدري مم هذا قات لاقال إن العبد يخلو بمعاصي الله فيلقى الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لايشعر وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لابيه عن محمد بن سيرين انه لما ركبه الدين اغتم لذلك فقال إني لاأعرف هذا الغم بذنب أصبته منذ أربعين سنة وهاهنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب وهي إنهم لايرون تأثيره في الحال وقد يتأخر تأثيره فينسي ويظن العبد إنه لايغير بعد ذلك وإن الامر كما قال القائل

إذا لم يغبر حائط في وقوعه * فليس له بعد الوقوع غبار

وسبحان الله ماذا أهلكت هذه النكتة من الخلق وكم أزالت من نعمة وكم جلبت من نقمة وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء فضلا عن الجهال ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض ولو بعد حين كما ينقض السهم وكما ينقض الجرح المندمل على الغش والدغل وقد ذكر الامام أحمد عن أبي الدرداء أعبدوا الله كانكم ترونه وعدوا أنفسكم في الموتى واعلموا أن قليل يكفيكم خير من كثير يلهيكم واعلموا أن البر لايبلى وان الاثم لاينسى ونظر بعض العباد الى صبي فتأمل محاسنه فاتى في منامه وقيل له لتجدن غبها بعد أربعين سنة هذا مع أن للذنب نقداً معجل لايتأخر عنه قال سليمان التيمي أن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته وقال يحيي بن معاذ الرازي عجبت من ذي عقل يقول في دعائه اللهم لاتشمت بي الاعداء ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له قيل وكيف ذلك قال يعصي الله فيشمت به في القيامة قال ذي النون من خان الله في السر هتك ستره في العلانية

فصل

وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة مالا يعلمه الا الله فمنها حرمان العلم فان العلم نور يقذفه الله في القلب والمعصية تطفئ ذلك النور ولما جلس الامام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه مارأى من وفور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه فقال إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية وقال الشافعي

شكوت الى وكيع سوء حفظي * فارشدني الى ترك المعاصي
وقال أعلم بان العلم فضل * وفضل الله لا يؤتاه عاصي

ومنها حرمان الرزق وفي المسند ان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وقد تقدم وكما أن تقوى الله مجابة للرزق فترك التقوى مجابة للفقر فما استجاب رزق الله بمثل ترك المعاصي ومنها وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لا يوازنها ولا يقارنها لذة اصلا ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة وهذا أمر لا يحس به الامن في قلبه حياة وما لجرح بميت ايلام فلو لم ترك الذنوب الاحذراً من وقوع تلك الوحشة لكان العاقل حرياً بتركها وشكى رجل الى بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه فقال له اذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس وليس على القلب أمر من وحشة الذنب على الذنب فالله المستعان ومنها الوحشة التي تحصل له بينه وبين الناس ولا سيما أهل الخير منهم فانه يجد وحشة بينه وبينهم وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم وحرم بركة الانتفاع بهم وقرب من حزب الشيطان بقدر مابعد من حزب الرحمن وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم فتقع بينه وبين إمرأته وولده وأقاربه وبينه وبين نفسه فتراه مستوحشاً من نفسه وقال بعض السلف إني لأعصي الله فارى ذلك في خلق دابتي وإمرأتي ومنها تعسير اموره عليه فلا يتوجه لامر الا يجده مغلقاً دونه أو متعسراً عليه وهذا كما إن من اتقى الله جعل له من أمره يسراً فمن عطل التقوى جعل الله له من أمره عسراً ويالله العجب كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه متعسرة عليه وهو لا يعلم من أين أتى ومنها ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا أدلهم فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره فان الطاعة نور والمعصية ظلمة وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات والامور المهلكة وهو لا يشعر كاعمى أخرج في ظلمة الليل يمشي وحده وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سواداً في الوجه حتى يراه كل أحد قال عبد الله بن عباس ان للحسنة ضياء في الوجه ونوراً في القلب وسعة في الرزق وقوة في البدن ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة سواداً في الوجه وظلمة في القبر والقلب ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق ومنها ان المعاصي توهن القلب والبدن أما وهنها للقلب فامر ظاهر بل لا يزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية وأما وهنها للبدن فان المؤمن قوته من قلبه وكلما قوى قلبه قوى بدنه وأما الفاجر فانه وإن كان قوى البدن فهو أضعف شيء عند الحاجة فتخونه قوته عند أحوج مايكون إلى نفسه فتأمل قوة

أبدان فارس والروم كيف خانتهم عند أحوج ما كانوا اليها وقهرهم أهل الايمان بقوة أبدانهم وقلوبهم ومنها حرمان الطاعة فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا إنه يصد عن طاعة تكون بدله ويقطع طريق طاعة أخرى فينقطع عليه طريق ثالثة ثم رابعة وهلم جرا فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدة أكلات أطيب منها والله المستعان ومنها أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولابد فان البر كما يزيد في العمر فالفجور ينقص وقد اختلف الناس في هذا الموضع فقالت طائفة نقصان عمر العاصي هو ذهاب بركة عمره ومحقها عليه وهذا حق وهو بعض تأثير المعاصى وقالت طائفة بل تنقصه حقيقة كما تنقص الرزق فجعل الله سبحانه للبركة في الرزق أسبابا كثيرة تكثره وتزيده وللبركة في العمر أسبابا تكثره وتزيده قالوا ولا تمنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب فالارزاق والاجال والسعادة والشقاوة والصحة والمرض والغني والفقر وإن كانت بقضاء الله عز وجل فهو يقضي مايشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها وقالت طائفة أخرى تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن تفوته حقيقة الحياة وهي حياة القلب ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتاً غير حي كما قال تعالى أموات غير أحياء فالحيوة في الحقيقة حيوة القلب وعمر الانسان مدة حياته فليس عمره الا أوقات حياته بالله فتلك ساعات عمره فالبر والتقوي والطاعة تزيد في هذه الاوقات التي هي حقيقة عمره ولا عمر له سواها وبالجملة فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غب إضاعتها يوم يقول ياليتني قدمت لحياتي فلايخلوا إما أن يكون له مع ذلك تطلع الى مصالحه الدنيوية والأخروية أولا فان لم يكن له تطلع الى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله وذهبت حياته باطلا وإن كان له تطلع الى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها وذلك نقصان حقيقي من عمره وسر المسألة أن عمر الانسان مدة حياته ولا حيوة له إلا باقباله على ربه والتنعم بحبه وذكره وإيثار مرضاته

فصل

ومنها أن المعاصى تزرع أمثالها وتولد بعضها بعضاً حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها كما قال بعض السلف أن من عقوبة السيئة السيئة بعدها وأن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى الى جنبها أعملني أيضاً فاذا عملها قالت الثانية كذلك وهلم جرا فيتضاعف الربح وتزايدت الحسنات وكذلك كانت السيئات أيضاً حتي تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة فلو عطل المحسن الطاعة

لضاقت عليه نفسه وضاقت عليه الارض بمارحبت وأحس من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتي يعاودها فتسكن نفسه وتقرعينه ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه وضاق صدره وأعيت عليه مذاهبه حتي يعاودها حتي أن كثيراً من الفساق ليواقع المعصية من غيرلذة يجدها ولاداعية اليها إلا لمايجد من الالم بمفارقتها كماصرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانيء حيث يقول

وكأس شربت على لذة * وأخرى تداويت منها بها

وقال الآخر

وكانت دوائي وهي دائي بعينه * كمايتداوى شارب الخمربالخمر

ولايزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكة تأزه اليها أزا وتحرضه عليها وتزعجه عن فراشه ومجلسه اليهاولايزال يألف المعاصى ويحبها ويؤثرها حتي يرسل الله اليه الشياطين فتأزه اليهاأزاً فالاول قوي جندالطاعة بالمدد فكانواأ كثرمن أعوانه وهذا قوي جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانا عليه

فصل

ومنها وهو من أخوفها على العبد أنها لضعف القلب عن إرادته فتقوى إرادةالمعصية وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً الى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية فلومات نصفه لماتاب الى الله فيأتي بالاستغفار وتوبة الكذابين باللسان لشيء كثير وقلبه معقود بالمعصية مصرعليها عازم على مواقعتها متي أمكنه وهذا من أعظم الامراض وأقربها الى الهلاك

فصل

ومنها أنه ينسلخ من القلب إستقباحها فتصيرله عادة فلايستقبح من نفسه رؤية الناس له ولاكلامهم فيه وهو عند أرباب الفسوق هوغاية التفكه وتمام اللذة حتي يفتخر أحدهم بالمعصية ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها فيقول يافلان عملت كذا وكذا وهذا الضرب من الناس لايعافون وتسد عليهم طريق التوبة وتغلق عنهم أبوابها في الغالب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم كل أمتي معافا إلا المجاهرين وإن من الاجهار أن يستر الله على العبدثم يصبح يفضح نفسه ويقول يافلان عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فتهتك نفسه وقد بات يستره ربه ومنها أن كل معصية من المعاصي فهي ميراث عن أمة من الامم التي أهلكها الله عز وجل فاللوطية ميراث عن قوم لوط وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب والعلو في الارض والفساد ميراث عن فرعون وقوم فرعون والتكبروالتجبر ميراث

عن قوم هود فالعاصي لابس ثياب بعض هذه الامم وهم أعـداء الله وقد روى عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لابيه عن مالك بن دينار قال أوحي الله الى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك لاتدخلوا مداخل أعدائي ولاتلبسوا ملابس أعـدائي ولاتركبوا مراكب أعدائي ولاتطعموا مطاعم أعدائي فتكونوا أعدائي كماهم أعدائي وفي مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتي يعبد الله وحده لاشريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم

فصل

ومنها أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه قال الحسن البصري هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد كما قال الله تعالى ومن يهن الله فماله من مكرم وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم اليهم أوخوفا من شرهم فهم في قلوبهم أحقر شئ وأهونه ومنها أن العبد لايزال يرتكب الذنوب حتي يهون عليه ويصغر في قلبه وذلك علامة الهلاك فان الذنب كلما صغر في عين العبـد عظم عند الله وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود قال إن المؤمن يري ذنوبه كانها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه وأن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار

فصل

ومنها أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم قال أبو هريرة إن الحباري لتموت في وكرها من ظلم الظالم وقال مجاهد إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا أشتدت السنة وأمسك المطر وتقول هذا بشؤم معصية ابن آدم وقال عكرمة دواب الارض وهوامها حتي الخنافس والعقارب يقولون منعنا القطر بذنوب بني آدم فلا يكفيه عقاب ذنبه حتي يبوء يلعنه من لاذنب له

فصل

ومنهـا ان المعصـية تورث الذل ولا بد فان العز كل العز فى طاعة الله تعالى قال تعالى من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً أي فليطلبها بطاعة الله فانه لايجدها الافي طاعته وكان من دعاء بعض السلف اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك قال الحسن البصري انهم وان طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين إن ذل المعصية لاتفارق قلوبهم أبى الله

الا ان أيذل من عصاه وقال عبد الله بن المبارك

رأيت الذنوب تميت القلو * ب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلو * ب وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين الا الملو * ك واحبار سؤ ورهبانها

فصل

ومنها إن المعاصي تفسد العقل فان للعقل نوراً والمعصية تطفئ نور العقل ولا بد واذا طفئ نوره ضعف ونقص وقال بعض السلف ماعصي الله أحد حتى يغيب عقله وهذا ظاهر فانه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تعالى أو تحت قهره وهو مطلع عليه وفي داره على بساطه وملائكته شهود عليه ناظرون اليه وواعظ القرآن ينهاه وواعظ الايمان ينهاه وواعظ الموت ينهاه وواعظ النار ينهاه والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف مايحصل له من السرور واللذة بها فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم

فصل

ومنها أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين كما قال بعض السلف في قوله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون قال هو الذنب بعد الذنب وقال الحسن هو الذنب على الذنب حتى يعمي القلب وقال غيره لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم وأصل هذا أن القلب يصدي من المعصية فاذا زادت غلب الصدي حتى يصير رانا ثم يغلب حتى يصير طبعاً وقفلا وختما فيصير القلب في غشاوة وغلاف فاذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد

فصل

ومنها أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لعن على معاصى والتي غيرها اكبر منها فهي اولى بدخول فاعلها تحت اللعنة فلعن الواشمة والمستوشمة والواصلة والموصولة والنامصة والمتنمصة والواشرة والمستوشرة ولعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده ولعن المحلل والمحلل له ولعن السارق ولعن شارب الخمر وساقيها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة اليه ولعن من غير منار الارض

وهي إعلامها وحددوها ولعن من لعن والديه ولعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً يرميه بسهم ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء ولعن من ذبح بغير الله ولعن من أحدث حدثاً أو آوي محدثاً ولعن المصورين ولعن من عمل عمل قوم لوط ولعن من سب أباه وأمه ولعن من كمه أعمى عن الطريق ولعن من أتى بهيمة ولعن من وسم دابة فى وجهها ولعن من ضار بمسلم أو مكربه ولعن زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج ولعن من أفسد امرأة على زوجها أو مملوكا على سيده ولعن من أتى امرأة في دبرها وأخبر أن من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح ولعن من انتسب الى غير أبيه وأخبر ان من أشار الى أخيه بحديدة فان الملائكة تلعنه ولعن من سب الصحابة وقد لعن الله من أفسد فى الارض وقطع رحمه وآذاه وآذى رسوله ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البينات والهدى ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة ولعن من جعل سبيل الكافر اهدي من سبيل المسلم ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل ولعن الراشي والمرتشي والرائش وهو الواسطة في الرشوة ولعن على أشياء أخر غير هذه فلو لم يكن فى فعل ذلك الا رضاء فاعله بان يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان في ذلك مايدعو الى تركه

فصل

ومنها حرمان دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوة الملائكة فان الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات وقال تعالى الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيآت فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين لكتابه وسنة رسوله الذين لاسبيل لهم غيرهما فلا يطمع غير هؤلاء باجابة هذه الدعوة اذا لم يتصف بصفات المدعو له بها

فصل

ومن عقوبات المعاصي مارواه البخاري في صحيحه من حديث سمرة بن جندب قال كان النبي صلى الله عليه وسلم مما يكثر أن يقول لاصحابه هل رأي أحد منكم البارحة رؤيا فيقص عليه ماشاء الله أن يقص وأنه قال لنا ذات غداة أنه أتاني الليلة آتيان وأنهما أبعثا لى

وأنهما قالا لي إنطلق وإني إنطلقت معهما وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه فيتدهده الحجر هاهنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع اليه حتي يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثل مافعل في المرة الاولى قال قلت لهما سبحان الله ماهذان قالا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا فأتينا على رجل مستلق لقفاه وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرشر شدقه الى قفاه ومنخره الى قفاه وعينه الى قفاه ثم يتحول الى الجانب الآخر فيفعل به مثل مافعل بالجانب الاول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ثم يعود عليه فيفعل مثل مافعل في المرة الاولى قال قلت سبحان الله ماهذان فقالا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا فأتينا على مثل التنور وإذا فيه لغط وأصوات قال فاطلعنا فيه فاذا فيه رجال ونساء عراة وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فاذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا فقال قلت من هؤلاء قال فقالا لي إنطلق إنطلق قال فانطلقنا فأتينا على نهر أحمر مثل الدم فاذا في النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح مايسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجراً فينطلق فيسبح ثم يرجع اليه كما رجع إليه فيفغر له فاه فالقمه حجراً قال قلت لهما ماهذان قالا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرأى كاكره ماأنت راءٍ رجلا مرأً وإذا هو عنده نار يحشها ويسعى حولها قال قلت لهما ماهذا قال قالا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا على روضة مغيمة فيها من كل نور الربيع وإذا بين ظهراني الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولا في السماء وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط قال قلت ماهذا وما هؤلاء قال قالا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا فأتينا الى دوحة عظيمة لم أرى دوحة قط أعظم منها ولا أحسن قال قالا لي أرق فيها فارتقينا فيها الى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة قال فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها فتلقانا رجال شطر من خلقهم كاحسن ماأنت راءٍ وشطر منهم كاقبح ماأنت راءٍ قال قالا لهم إذهبوا فقعوا في ذلك النهر قال وإذا نهر معترض يجري كان ماءه المحض في البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا الينا وقد ذهب ذلك السوء عنهم قال قالا لي هذه جنة عدن وهذاك منزلك قال فسمي بصري صعدا فاذا قصر مثل الربابة البيضاء قال قالا لي هذاك منزلك قال قلت لهما بارك الله فيكما فذراني فادخله قالا أما الآن فلا وأنت داخله قال قلت لهما فاني رأيت منذ الليلة عجباً فما هـذا الذي رأيت قال قالا لي أما انا سنخبرك أما الرجل الاول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فانه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلوة المكتوبة وأما الرجل الذي

أتيت عليه يشرشر شدقه الى قفاه ومنخره الى قفاه وعينه الى قفاه فانه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق وأما الرجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور فانهم الزناة والزواني وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجارة فانه آكل الربا وأما الرجل الكريه المنظر الذي عند النار يحشها ويسعى حولها فانه مالك خازن جهنم وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فانه ابراهيم وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة وفي رواية البرقاني ولد على الفطرة فقال بعض المسلمين يارسول الله وأولاد المشركين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولاد المشركين وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فانهم قوم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم

فصل

ومن آثار الذنوب والمعاصي إنها تحدث في الارض أنواعاً من الفساد في المياه والهوى والزرع والثمار والمساكن قال تعالى ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون قال مجاهد اذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد فيحبس بذلك القطر فيهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد ثم قرأ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ثم قال أما والله ماهو بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر وقال عكرمة ظهر الفساد في البر والبحر أما إني لاأقول لكم بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء وقال قتادة أما البر فاهل العمود وأما البحر فاهل القرى والريف قات وقد سمي الله تعالى الماء العذب بحراً فقال هو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج وليس في العالم بحر حلو واقفاً وإنما هي الانهار الجارية والبحر المالح هو الساكن فتسمى القرى التي على المياه الجارية باسم تلك المياه وقال ابن زيد ظهر الفساد في البر والبحر قال الذنوب قلت أراد أن الذنب سبب الفساد الذي ظهر وإن أراد أن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها فيكون قوله ليذيقهم بعض الذي عملوا لام العاقبة والتعليل وعلى الاول فالمراد بالفساد والنقص والشر والالآم التي يحدثها الله في الارض بمعاصي العباد فكل ماأحدثوا ذنباً أحدث لهم عقوبة كما قال بعض السلف كل ماأحدثتم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة والظاهر والله أعلم إن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها ويدل عليه قوله تعالى ليذيقهم بعض الذي عملوا فهذا حالنا وإنما إذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا فلو أذاقنا كل أعمالنا

لما ترك على ظهرها من دابة ومن تأثير معاصي الله في الارض مايحل بهـا من الخسف والزلازل ويمحق بركتها وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ديار ثمود فمنعهم من دخول ديارهم الا وهم باكون ومن شرب مياههم ومن الاستسقاء من أبيارهم حتى أمر أن لايعلف العجين الذي عجن بمياههم لنواضح الابل لتأثير شؤم المعصية في الماء وكذلك شؤم تأثير الذنوب فى نقص الثمار وما ترى به من الآفات وقد ذكر الامام أحمد فى مسنده فى ضمن حديث قال وجدت في خزائن بعض بني أمية حنطة الحبة بقدر نواة التمرة وهي في صرة مكتوب عليها كان هذا ينبت في زمن العدل وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء انهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها وإنما حدثت من قرب وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق فقد روى الترمذي في جامعه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خلق الله آدم وطوله في السماء ستون ذراعاً ولم يزل الخلق ينقص حتى الآن فاذا أراد الله أن يطهر الارض من الظلمة والخونة والفجرة ويخرج عبداً من عباده من أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم فيملأ الارض قسطاً كما ملئت جوراً ويقتل المسيح اليهود والنصارى ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله وتخرج الارض بركاتها وتعود كما كانت حتى ان العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها ويكون العنقود من العنب وقر بعير ولبن اللقحة الواحدة يكفي الفئام من الناس وهذا لان الارض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التي محقتها الذنوب والكفر ولاريب ان العقوبات التي أنزلها الله في الارض بقية آثارها سارية في الارض تطلب مايشاء كلها من الذنوب التي هى آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الامم فهذه الآثار في الارض من آثار العقوبات كما ان هـذه المعاصي من آثار الجرائم فتناسبت كلمة الله وحكمة الكوني أولا وآخراً وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية والأخف للأخف وهذا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء وتأمل مقارنة الشيطان ومحله وداره فانه لمـا قارن العبـد واستولى عليه نزعت البركة من عمره وعمله وقوله ورزقه ولما أثرت طاعته في الارض ما أثرت نزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرحمة والبركة

فصل

ومن عقوباتها انها تطفي من القلب نار الغيرة التي هى لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية

لحياة جميع البدن فان الغيرة حرارته وناره التي تخرج مافيه من الخبث والصفات المذمومة كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد وأشرف الناس وأعلاهم قدراً وهمة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أغير الخلق على الامة والله سبحانه أشد غيرة منه كما ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير مني وفي الصحيح أيضاً عنه انه قال صلى الله عليه وسلم في خطبة الكسوف ياأمة محمد ماأحد أغير من الله ان يزني عبده أو تزني أمته وفي الصحيح أيضاً عنه انه قال لاأحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن ولا أحد أحب اليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشّرين ومنذرين ولا أحد أحب اليه المدح من الله من أجل ذلك أثنى على نفسه فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح وبغضها وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والاحسان والله سبحانه مع شدة غيرته يحب إن يعتذر اليه عبده ويقبل عذر من اعتذر اليه وانه لايؤاخذ عبده بارتكاب مايغار من ارتكابه حتى يعذر اليهم ولأجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه إعذاراً وإنذاراً وهذا غاية المجد والاحسان ونهاية الكمال فان كثيراً ممن تشتدغيرته من المخلوقين تحمله شدة الغيرة على سرعة الايقاع والعقوبة من غير إعذار منه ومن غير قبول العذر ممن إعتذر اليه بل قد يكون له في نفس الامر عذر ولا تدعه شدة الغيرة انيقبل عذره وكثير ممن تقبل المعاذير يحمله على قبولها قلة الغيرة حتى يتوسع في طرق المعاذير ويرى عذراً ماليس بعذر حتى يعذر كثير منهم بالعذر وكل منهما غير ممدوح على الاطلاق وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان من الغيرة مايحبها الله ومنها مايبغضها الله فالتي يبغضها الله الغيرة من غير ريبة وذكر الحديث وانما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر فيغار في محل الغيرة ويعذر في موضع العذر ومن كان هكذا فهو الممدوح حقاً ولما جمع سبحانه صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد ولا يبلغ أحد إن يمدحه كما ينبغي له بل هو كما مدح نفسه وأثنى على نفسه فالغيور قد وافق ربه سبحانه فى صفة من صفاته ومن وافق الله فى صفة من صفاته قادته تلك الصفة اليه بزمامه وأدخلته على ربه وأدنته منه وقربته من رحمته وصيرته محبوبا له فانه سبحانه رحيم يحب الرحماء كريم يحب الكرماء عليم يحب العلماء قوى يحب المؤمن القوي وهو أحب اليه من المؤمن الضعيف حتى يحب أهل الحياء جميل يحب أهل الجمال وتر يحب أهل الوتر ولو لم يكن فى الذنوب والمعاصي الا انها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفي بها عقوبة فان الخطرة تنقلب وسوسة

والوسوسة تصير إرادة والارادة تقوي فتصير عزيمة ثم تصير فعلا ثم تصير صفة لازمة وهيئة ثابتة راسخة وحينئذ يتعذر الخروج منهما كما يتعذر عليه الخروج من صفاته القائمة به والمقصود انه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس وقد تضعف فى القلب جداً لا يستقبح بعد ذلك القبيح لامن نفسه ولامن غيره واذا وصل الى هذا الحد فقد دخل فى باب الهلاك وكثير من هؤلاء لايقتصر على عدم الاستقباح بل يحسن الفواحش والظلم لغيره ويزينه له ويدعوه اليه ويحثه عليه ويسعي له فى تحصيله ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله والجنة عليه حرام وكذلك محلل الظلم والبغي لغيره ومزينه لغيره فانظر ماالذى حملت عليه قلة الغيرة وهذا يدلك على ان أصل الدين الغيرة ومن لاغيرة له لادين له فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح فتدفع السوء والفواحش وعدم الغيرة تميت القلب فتموت الجوارح فلا يبقى عندها دفع البتة ومثل الغيرة فى القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه فاذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلا ولم يجد دافعاً فتمكن فكان الهلاك ومثلها مثل صياصي الجاموس التي تدفع بها عن نفسه وعن ولده فاذا تكسرت طمع فيها عدوه

فصل

ومن عقوباتها ذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب وهو أصل كل خير وذهابه ذهاب كل خير بأجمعه وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال الحياء خير كله وقال ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ماشئت وفيه تفسيران أحدهما انه على التهديد والوعيد والمعني من لم يستح فانه يصنع ماشاء من القبائح اذ الحامل على تركها الحياء فاذا لم يكن هناك حياء نزعه عن القبائح فانه يواقعها وهذا تفسير أبي عبيدة والثاني ان الفعل اذا لم تستح فيه من الله فافعله وانما الذى ينبغي تركه مايستحيي فيه من الله وهذا تفسير الامام أحمد في رواية ابن هاني فعلى الاول يكون تهديداً كقوله إعملوا ماشئتم وعلى الثاني يكون إذنا وإباحة فان قيل فهل من سبيل الى حمله على المعنيين قلت لاولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه لما بين الاباحة والتهديد من المنافات ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب إعتبار الآخر والمقصود ان الذنوب تضعف الحياء من العبد حتى ربما انسلخ منه بالكلية حتى ربما انه لايتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح مايفعله والحامل على ذلك انسلاخه من الحياء واذا وصل العبد الى هذه الحالة لم يبق فى صلاحه مطمع واذا رأى ابليس طلعة وجهه

حياء وقال فديت من لايفاح والحياء مشتق من الحياة والغيث يسمى حيا بالقصر لان به حياة الارض والنبات والدواب وكذلك سميت بالحياة حياة الدنيا والآخرة فمن لاحياء فيه ميت في الدنيا شقي في الآخرة وبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين وكل منهما يستدعي الآخر ويطلبه حثيثاومن استحيي من الله عند معصيته استحى الله من عقوبته يوم يلقاه ومن لم يستح من الله تعالى من معصيته لم يستح الله من عقوبته

فصل

ومن عقوباتها أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله وتضعف وقاره في قلب العبد ولابد شاء أم أبي ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرء على معاصيه وربما اغتر المغتر وقال إنما يحملني على المعاصى حسن الرجاء وطمعي فى عفوه لاضعف عظمته في قلبي وهذا من مغالطة النفس فان عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب والمتجرؤن على معاصيه ماقدروه حق قدره وكيف يقدره حق قدره أويعظمه أويكبره أويرجووقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه هذا من أمحل المحال وأبين الباطل وكفى بالعاصى عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله وتعظيم حرماته ويهون عليه حقه ومن بعض عقوبة هذا أن يرفع الله عزوجل مهابته من قلوب الخلق ويهون عليهم ويستخفون به كما هان عليه أمره واستخف به فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس وعلى قدر تعظيمه الله وحرماته يعظم الناس حرماته وكيف ينتهك عبد حرمات الله ويطمع أن لاينتهك الناس حرماته أم كيف يهون عليه حق الله ولايهونه الله على الناس أم كيف يستخف بمعاصى الله ولايستخف به الخلق وقد أشار سبحانه إلى هذا فى كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب وأنه أركس أربابها بما كسبوا وغطي على قلوبهم وطبع عليها بذنوبهم وأنه نسيهم كما نسوه وأهانهم كما أهانوا دينه وضيعهم كما ضيعوا أمره ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له ومن يهن الله فماله من مكرم فانهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم فلم يكن لهم من مكرم بعد إن أهانهم ومن ذا يكرم من أهانه الله أويهن من أكرم

فصل

ومن عقوباتها أنها تستدعى نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه وهنالك الهلاك الذي لايرجي معه نجاة قال الله ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس

ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولاتكونوا كالذين نسوا الله فانساهم أنفسهم اولئك هم الفاسقون فامر بتقواه ونهي أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه واخبر أنه عاقب من ترك التقوي بان أنساه نفسه أي أنساه مصالحها ومايجيها من عذابه ومايوجب له الحياة الابدية وكمال لذتها وسرورها ونعيمها فانساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره فترى العاصي مهملا لمصالح نفسه مضيعاً لها قد أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته وقد فرط في سعادته الابدية واستبدل بها أدني مايكون من لذة إنما هي سحابة صيف أو خيال طيف

أحلام نوم أو كظل زائل * إن اللبيب بمثلها لايخدع

وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه وإهماله لها وإضاعته حظها ونصيبها من الله وبيعها ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن فضيع من لاغني له عنه ولاعوض له منه واستبدل به من عنه كل الغني أو منه كل العوض

من كل شئ إذا ضيعته عوض * وليس في الله أن ضيعت من عوض

فالله سبحانه يعوض عن كل شئ ماسواه ولايعوض منه شئ ويغني عن كل شئ ولا يغني عنه شئ ويمنع من كل شئ ولايمنع منه شئ ويجير من كل شئ ولايجير منه شئ كيف يستغني العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره حتي ينسيه نفسه فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه وماظلمه ربه ولكن هو الذي ظلم نفسه

فصل

ومن عقوباتها أنها تخرج العبد من دائرة الاحسان وتمنعه من ثواب المحسنين فان الاحسان إذا باشر القلب منعه عن المعاصي فان من عبدالله كانه يراه لم يكن كذلك الالاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه بحيث يصير كانه يشاهده وذلك سيحول بينه وبين إرادة المعاصى فضلا عن مواقعتها فاذا خرج من دائرة الاحسان فاته صحبة رفقته الخاصة وعيشهم الهنيء ونعيمهم التام فان أراد الله به خيراً أقره فى دائرة عموم المؤمنين فان عصاه بالمعاصى التى تخرجه من دائرة الايمان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولايشرب الخمر حين يشربه وهو مؤمن ولايسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولاينتهب نهبة ذات شرف يرفع اليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن فاياكم إياكم والتوبة معروضة بعد

فصل

ومن فاته رفقة المؤمنين وخرج عن دائرة الايمان فاته حسن دفاع الله عن المؤمنين فان الله يدافع عن الذين آمنوا وفاته كل خير رتبه الله في كتابه على الايمان وهو نحو مائة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها فمنها الاجر العظيم وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيما ومنها الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة إن الله يدافع عن الذين آمنوا ومنها استغفار حملة العرش لهم الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ومنها موالاة الله لهم ولا يذل من والاه الله قال الله تعالى الله ولي الذين آمنوا ومنها أمره ملائكته بتثبيتهم إذ يوحي ربك الى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا ومنها إن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم ومنها العزة ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ومنها معية الله لأهل الايمان وإن الله لمع المؤمنين ومنها الرفعة في الدنيا والآخرة يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ومنها أعطاهم كفلين من رحمته وأعطاهم نوراً يمشون به ومغفرة ذنوبهم ومنها الود الذي يجعله سبحانه لهم وهو انه يحبهم ويحببهم الى ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين ومنها أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف فمن آمن وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ومنها انهم المنعم عليهم الذين أمرنا ان نسأله ان يهدينا الى صراطهم في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة ومنها ان القرآن انما هو هدى لهم وشفاء قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد والمقصود ان الايمان سبب جالب لكل خير وكل خير في الدنيا والآخرة فسببه الايمان فكيف يهون على العبد ان يرتكب شيئاً يخرجه من دائرة الايمان ويحول بينه وبينه ولكن لايخرج من دائرة عموم المسلمين فان استمر على الذنوب وأصر عليها خيف عليه ان يرين على قلبه فيخرجه عن الاسلام بالكلية ومن هنا أشتد خوف السلف كما قال بعضهم أنتم تخافون الذنوب وأنا أخاف الكفر.

فصل

ومن عقوبتها انها تضعف سير القلب الى الله والدار الآخرة أو تعوقه وتوقفه وتعطفه عن السير فلا تدعه يخطوا الى الله خطوة هذا إن لم ترده عن وجهته الى ورائه فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر وينكس الطالب والقلب انما يسير الى الله بقوته فاذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره فان زالت بالكلية إنقطع عن الله إنقطاعاً يبعد تداركه

والله المستعان فالذنب أما يميت القلب أو يمرضه مرضاً مخوفاً أو يضعف قوته ولا بدحتى ينتهي ضعفه الى الاشياء الثمانية التي إستعاذ منها النبي صلى الله عليه وسلم وهي الهم والحزن والكسل والعجز والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال وكل أثنين منهاقرينان فالهم والحزن قرينان فان المكروه والوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم وإن كان من أمر ماض قد وقع احدث الحزن والعجز والكسل قرينان فان تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح ان كان لعدم قدرته فهو العجز وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل والجبن والبخل قرينان فان عدم انفعمنه إن كان ببدنه فهو الجبن و ن كان بماله فهو البخل وضلع الدين وقهر الرجال قرينان فان إستيلاء الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلع الدين وإن كان بباطل فهو من قهر الرجال والمقصود إن الذنوب من أقوى الاسباب الجالبة لهذه الثمانية كما إنها من أقوى الاسباب الجالبة لجهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الاعداء ومن أقوى الاسباب السالبة لزوال نعم الله تعالى وتقدس وتحول عافيته وفجاءة نقمته وجميع سخطه

فصل

ومن عقوبات الذنوب إنها تزيل النعم وتحل النقم فما زالت عن العبد نعمة الا لسبب ذنب ولا حلت به نقمة إلا بذنب كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه مانزل بلاء إلا بذنب ولارفع بلاء إلا بتوبة وقد قال تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير وقال تعالى ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا مابأنفسهم فأخبر الله تعالى إنه لايغير نعمته التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير مابنفسه فيغير طاعة الله بمعصيته وشكره بكفره وأسباب رضاه باسباب سخطه فاذا غير غير عليه جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد فأن غير المعصية بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز قال تعالى إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له ومالهم من دونه من وال وفي بعض الآثار الألهية عن الرب تبارك وتعالى إنه قال وعزتي وجلالي لايكون عبد من عبيدي على ماأحب ثم ينتقل عنه إلى ما أكره إلا إنتقلت له مما يحب عبيدي الى مايكره ولا يكون عبد من عبيدي على ماأكره فينتقل عنه الى ماأحب الا إنتقلت له مما يكره الى مايحب وقد أحسن القائل

إذا كنت فى نعمة فارعها * فان الذنوب تزيل النعم
وحطها بطاعة رب العباد * فرب العباد سريع النقم

وإياك والظلم مهما إستطعت * فظلم العباد شديد الوخم
وسافر بقلبك بين الورى * لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم بعدهم * شهود عليهم ولا تتهم
وماكان شيء عليهم اضر * من الظلم وهو الذي قد تصم
فكم تركوا من جنان ومن * قصور وأخرى عليهم اطم
صلوا بالجحيم وفات النعم * وكان الذي نالهم كالحلم

فصل

ومن عقوباتها مايلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي فلا تراه الا خائفاً مرعوباً فان الطاعة حصن الله الاعظم الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب فمن أطاع الله إنقلبت المخاوف في حقه أماناً ومن عصاه إنقلبت مأمنه مخاوف فلا تجد العاصي إلا وقلبه كانه بين جناحي طائر ان حركت الريح الباب قال جاء الطلب وان سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيراً بالعطب يحسب كل صيحة عليه وكل مكروه قاصد اليه فمن خاف الله آمنه من كل شيء ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء

بدا قضاء الله بين الخلق مذ خلقوا * إن المخاوف والاجرام في قرن

ومن عقوباتها انها توقع الوحشة العظيمة في القلب فيجد المذنب نفسه مستوحشا قد وقعت الوحشة بينه وبين ربه وبينه وبين الخلق وبينه وبين نفسه وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة وأمر العيش عيش المستوحشين الخائفين وأطيب العيش عيش المستأنسين فلو نظر العاقل ووازن بين لذة المعصية وما تولد فيه من الخوف والوحشة لعلم سوء حاله وعظيم غبنه اذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف

اذا كنت قد أوحشتك الذنوب * فدعها اذا شئت واستأنس

وسر المسألة أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه وكلما اشتد القرب قوى الانس والمعصية توجب البعد من الرب وكلما زاد البعد قويت الوحشة ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذي بينهما وإن كان ملابساً له قريبا منه ويجد أنساً قوياً بينه وبين من يحب وإن كان بعيداً عنه والوحشة سببها الحجاب وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة فالغفلة توجب الوحشة واشد منها وحشة المعصية واشد منها وحشة الشرك الكفر ولاتجد أحداً يلابس شيئاً من ذلك إلاويعلوه من الوحشة بحسب مالابسه منه فتعلو الوحشة وجهه وقلبه فيستوحش ويستوحش منه

فصل

ومن عقوباتها انها تصرف القلب عن صحته واستقامته الى مرضه وانحرافه فلا يزال مريضاً معلولا لاينتفع بالاغذية التي بها حياته وصلاحه فان تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الامراض في الابدان بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها ولادواء لها الا تركها وقد أجمع السائرون الى الله أن القلوب لاتعطي مناها حتى تصل الى مولاها ولاتصل الى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فتصير نفس دوائها ولا يصح لها ذلك الا بمخالفة هواها وهواها مرضها وشفاؤها مخالفته فان استحكم المرض قتل أو كاد وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه كذلك يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة لايشبه نعيم أهلها نعيم البتة بل التفاوت الذي بين النعيمين كالتفاوت الذى بين نعيم الدنيا والآخرة وهذا أمر لايصدق به الا من باشر قلبه هذا وهذا ولا تحسب ان قوله تعالى إن الابرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط بل في دورهم الثلاثة كذلك أعني دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار فهؤلاء في نعيم وهؤلاء في جحيم وهل النعيم إلا نعيم القلب وهل العذاب إلا عذاب القلب وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر وإعراضه عن الله والدار الآخرة وتعلقه بغير الله وانقطاعه عن الله بكل واد منه شعبة وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله فانه يسومه سوء العذاب فكل من أحب شيئاً غير الله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل فاذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته والتنغيص والتنكيد عليه وأنواع المعارضات فاذا سلبه اشتد عذابه عليه فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار وأما في البرزخ فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لايرجي عوده وألم فوات مافاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده وألم الحجاب عن الله وألم الحسرة التي تقطع الاكباد فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ماتعمل الهوام والديدان في أبدانهم بل عملها في النفوس دائم مستمر حتى يردها الله الى أجسادها فحينئذ ينتقل العذاب الى نوع هو أدهى وأمر فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه واشتياقا اليه وارتياحاً بحبه وطمأنينة بذكره حتى يقول بعضهم في حال نزعه واطرباه ويقول الآخر ان كان أهل الجنة في مثل هذا الحال انهم لفي عيش طيب ويقول الآخر مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها وما ذاقوا أطيب مافيها ويقول الآخر لو علم الملوك أبناء الملوك مانحن فيه لجالدونا

عليه بالسيوف ويقول الآخر ان في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة فيامن باع حظه الغالي بأبخس الثمن وغبن كل الغبن في هذا العقد وهو يرى انه قدغبن اذالم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فاسئل المقومين فياعجبا من بضاعة معك الله مشتريها وثمنها جنة المأوي والسفير الذي جرى على يده عقد التبايع وضمن الثمن عن المشترى هو الرسول صلى الله عليه وسلم وقد بعتها بغاية الهوان

اذا كان هذا فعل عبد بنفسه * فمن ذاله من بعد ذلك يكرم

ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل مايشاء

فصل

ومن عقوباتها أنها تعمي بصر القلب وتطمس نوره وتسد طرق العلم وتحجب مواد الهداية وقد قال مالك للشافعي رحمهما الله تعالى لما اجتمع به ورأى تلك المخايل إني أرى الله تعالى قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية ولايزال هذا النور يضعف ويضمحل وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم فكم من مهلك يسقط فيه وهو لايبصر كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب فياعزة السلامة ويا سرعة العطب ثم تقوى تلك الظلمات وتفيض من القلب الى الجوارح فيغشى الوجه منها سواد بحسب قوتها وتزايدها فاذا كانت عند الموت ظهرت في البرزخ فامتلأ القبر ظلمة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ان هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة وإن الله ينورها بصلاتي عليهم فاذا كان يوم المعاد وحشر العباد وعلت الظلمة الوجوه علواً ظاهراً يراه كل أحد حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة فيالها من عقوبة لاتوازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها الى آخرها فكيف يقسط العبد المنغص المنكد المتعب في زمن انما هو ساعة من حلم والله المستعان

فصل

ومن عقوباتها انها تصغر النفس وتقمعها وتدسها وتحقرها حتى تصير أصغر كل شيء وأحقره كما ان الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها قال تعالى قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها والمعنى قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله وأصل التدسية الاخفاء ومنه قوله تعالى يدسه في التراب فالعاصي يدس نفسه في المعصية ويخفي مكانها ويتوارى من الخلق من سوء مايأتي به قد انقمع عند نفسه وانقمع عند الله وانقمع عند الخلق فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى

وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو فما صغر النفس مثل معصية الله وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله

فصل

ومن عقوباتها أن العاصي دائماً في أسر شيطانه وسجن شهواته وقيود هواه فهو أسير مسجون مقيد ولا أسير أسوء حال من أسير أسره أعدى عدو له ولا سجن أضيق من سجن الهوى ولا قيد أصعب من قيد الشهوة فكيف يسير الى الله والدار الآخرة قلب ماسور مسجون مقيد وكيف يخطو خطوة واحدة وإذا تقيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده ومثل القلب مثل الطائر كلما علا بعد عن الآفات وكلما نزل استوحشه الآفات وفي الحديث الشيطان ذئب الانسان وكما أن الشاة التي لاحافظ لها وهي بين الذئاب سريعة العطب فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولا بد وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى فهي وقاية وجنة حصينة بينه وبين ذئبه كما هي وقاية بينه وبين عقوبات الدنيا والآخرة وكلما كانت الشاة أقرب من الراعى كانت أسلم من الذئب وكلما بعدت عن الراعي كانت أقرب الى الهلاك فاحمي ماتكون الشاة إذا قربت من الراعى وإنما يأخذ الذئب القاصي من الغنم وهي أبعدهن من الراعي وأصل هذا كله إن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات اليه أسرع وكلما كان أقرب من الله بعدت عنه الآفات والبعد من الله مراتب بعضها أشد من بعض فالغفلة تبعد العبد عن الله وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله

فصل

ومن عقوباتها سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه فان أكرم الخلق عند الله أتقاهم وأقربهم منه منزلة أطوعهم له وعلى قدر طاعة العبد تكون له منزلة عنده فاذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه فاسقطه من قلوب عباده وإذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك فعاش بينهم أسوء عيش خامل الذكر ساقط القدر زرى الحال لاحرمة له فلا فرح له ولا سرور فان خمول الذكر وسقوط القدر والجاه معه كل غم وهم وحزن ولا سرور معه ولا فرح وأين هذا الالم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة ومن أعظم نعم الله على العبد أن يرفع له بين العالمين ذكره ويعلي قدره ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم كما قال تعالى وأذكر عبادنا ابراهيم وأسحاق ويعقوب أولى الايدي والابصار أنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار أي خصصناهم

بخصيصة وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار وهو لسان الصدق الذي سأله ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث قال واجعل لي لسان صدق في الآخرين وقال سبحانه وتعالى عنه وعن نبيه ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم ورفعنا لك ذكرك فأتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم وكل من خالفهم فانه من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم

فصل

ومن عقوباتها انها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف وتكسوه أسماء الذم والصغار فتسلبه اسم المؤمن والبر والمحسن والمتقي والمطيع والمنيب والولي والورع والمصلح والعابد والخائف والاواب والطيب والرضي ونحوها وتكسوه اسم الفاجر والعاصي والمخالف والمسيء والمفسد والخبيث والمسخوط والزاني والسارق والقاتل والكاذب والخائن واللوطي والغادر وقاطع الرحم وأمثالها فهذه أسماء الفسوق وبئس الاسم الفسوق بعد الايمان التي توجب غضب الديان ودخول النيران وعيش الخزي والهوان وتلك أسماء توجب رضاء الرحمان ودخول الجنان وتوجب شرف المسمي بها على سائر أنواع الانسان فلو لم يكن في عقوبة المعصية الا استحقاق تلك الاسماء وموجباتها لكان في العقل ناه عنها ولو لم يكن في ثواب الطاعة الا الفوز بتلك الاسماء وموجباتها لكان في العقل أمر بها ولكن لا مانع لما أعطى الله ولا معطي لما منع ولا مقرب لمن باعد ولا مبعد لمن قرب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل مايشاء

فصل

ومن عقوباتها إنها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص الا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل وفكره أصح ورأيه أسد والصواب قرينه ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولي الألباب والعقول كقوله فاتقون ياأولي الألباب وقوله فاتقوا الله باأولى الألباب وقوله وما يذكر الا أولوا الالباب ونظائر ذلك كثيرة وكيف يكون عاقلا وافر العقل من يعصي من هو في قبضته وفي داره وهو يعلم أنه يراه ويشاهده فيعصيه وهو بعينه غير متوار عنه ويستعين بنعمه على مساخطه ويستدعي كل وقت غضبه عليه ولعنته له وإبعاده من قربه وطرده عن بابه وإعراضه عنه وخذلانه له والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه وسقوطه من عينه وحرمانه وروح رضاه وحبه وقرة العين بقربه والفوز بجواره والنظر الى وجهه في زمرة أوليائه الى أضعاف أضعاف ذلك

من كرامة أهل الطاعة وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية فاي عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر ثم تنقضي كأنها حلم لم يكن على هذا النعيم المقيم والفوز العظيم بل هو سعادة الدنيا والآخرة ولولا العقل الذي تقوم عليه به الحجة لكان بمنزلة المجانين بل قد يكون المجانين أحسن حالا منه وأسلم عاقبة فهذا من هذا الوجه وأما تأثيرها في نقصان العقل العيشي فلولا الاشتراك في هذا النقصان لظهر لمطيعنا نقصان عقل عاصينا ولكن الجائحة عامة والجنون فنون ويا عجبا لو صحت العقول لعلمت أن الطريق الذي يحصل به اللذة والفرحة والسرور وطيب العيش إنما هو في رضاء من النعم كله في رضاه والالم والعذاب كله في سخطه وغضبه ففي رضاه قرة العيون وسرور النفوس وحياة القلوب ولذة الارواح وطيب الحياة ولذة العيش وأطيب النعيم مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم تف به بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا ومافيها عوضاً منه ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من تنعم المترفين فيها ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير مايشوب تنعم المترفين من الهموم والغموم والاحزان والمعارضات بل قد حصل له على النعيمين وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما وما يحصل له فى خلال ذلك من الآلام فالامر كما قال سبحانه إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون فلا إله إلا الله ما أنقص عقل من باع الدر بالبعر والمسك بالرجيع ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعدلهم جهنم وساءت مصيرا

فصل

ومن أعظم عقوباتها أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر فاي فلاح وأي رجاء وأي عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير وقطع مابينه وبين وليه ومولاه الذي لاغني له عنه طرفة عين ولا بدل له منه ولا عوض له عنه واتصلت به أسباب الشر ووصل مابينه وبين أعداء عدوله فتولاه عدوه وتخلي عنه وليه فلا تعلم نفس مافى هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب قال بعض السلف رأيت العبد ملقى بين الله سبحانه وبين الشيطان فان أعرض الله عنه تولاه الشيطان وإن تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان وقد قال تعالى وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا يقول سبحانه لعباده أنا أكرمت أباكم ورفعت قدره وفضلته على غيره فامرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له تكريماً وتشريفاً

فاطاعوني وابي عدوي وعدوه فعصى أمري وخرج عن طاعتي فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذونه وذريته أولياء من دوني فتطيعونه في معصيتي وتوالونه في خلاف مرضاتى وهم أعدا عدولكم فواليتم عـدوي وقد أمرتكم بمعاداته ومن والى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء فان المحبة والطاعة لاتتم إلا بمعادات أعـداء المطاع وموالات أوليائه وأما ان توالى أعداء الملك ثم تدعي انك موال له فهذا محال هذا لولم يكن عدو الملك عدوا لكم فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التى بين الشاة وبين الذئب فكيف يليق بالعاقل أن يوالى عدوه وعـدو وليه ومولاه الذي لامولى له سواه ونبه سبحانه على قبح هـذه الموالات بقوله وهم لكم عدو وكما نبه على قبحها بقوله تعالى ففسق عن أمر ربه فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو الى معاداته فما هذه الموالات وماهذا الاستبدال بئس للظالمين بدلا ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العقاب اطيعاً عجيباً وهو اني عاديت إبليس إذ لم يسجد لابيكم آدم مع ملائكتي فكانت معاداته لاجلكم ثم كان عاقبة هذه المعادات أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة

فصل

ومن عقوباتها أنها تمحق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة العمل وبركة الطاعة وبالجملة أنها تمحق بركة الدين والدنيا فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصي الله ومامحت البركة من الارض إلا بمعاصى الخلق قال الله تعالي ولو أن اهل القري آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض وقال تعالى وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه وأن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وفي الحديث أن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله واجملوا في الطلب فانه لاينال ماعند الله الا بطاعته وإن الله جعل الروح والفرح في الرضاء واليقين وجعل الهم والحزن في الشك والسخط وقد تقدم الاثر الذي ذكره أحمد في كتاب الزهد أنا الله إذا رضيت باركت وليس لبركتي منتهى وإذا غضبت لعنت ولعنتي تدرك السابع من الولد وليست سعة الرزق والعمل بكثرته ولاطول العمر بكثرة الشهور والاعوام ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره بل حياة البهائم خير من حياته فان حياة الانسان بحياة قلبه وروحه ولاحياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبته وعبادته وحده والانابة اليه والطمأنينة بذكره والانس بقربه ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله ولو تعوض عنها بما تعوض به في الدنيا بل ليست

الدنيا بأجمعها عوضا عن هذه الحياة فمن كل شيء يفوت العبد عوض وإذا فاته الله لم يعوض عنه شيء البتة وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغنى بالذات والعاجز بالذات عن القادر بالذات والميت عن الحي الذي لا يموت والمخلوق عن الخالق ومن لا وجود له فلا شيء له من ذاته البتة عمن غناه وحياته وكماله ووجوده ورحمته من لوازم ذاته وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السموات والارض وإنما كانت معصية الله سبباً لمحق بركة الرزق والاجل لان الشيطان موكل بها وبأصحابها فسلطانه عليهم وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته ممحوقة ولهذا شرع ذكر إسم الله تعالى عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع لما في مقارنة إسم الله من البركة وذكر إسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة ولا معارض لها وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة فان الرب هو الذي يبارك وحده والبركة كلها منه وكلما نسب اليه مبارك فكلامه مبارك ورسوله مبارك وعبده المؤمن النافع لخلقه مبارك وبيته الحرام مبارك وكنانته من أرضه وهى الشام أرض البركة وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه فلا مبارك الاهو وحده ولا مبارك الا مانسب اليه أعني إلى محبته وألوهيته ورضاه وإلا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته وخلقه وكلما باعده من نفسه من الاعيان والاقوال والاعمال فلا بركة فيه ولا خير فيه وكلما كان منه قريباً من ذلك ففيه من البركة على قدر قربه منه وضد البركة اللعنة فأرض لعنها الله أو شخص لعنه الله أو عمل لعنه الله أبعد شيء من الخير والبركة وكلما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا بركة فيه البتة وقد لعن عدوه إبليس وجعله أبعد خلقه منه فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه وإتصاله فمن ههنا كان للمعاصي أعظم تأثير في محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل فكل وقت عصيت الله فيه أو مال عصى الله به أو بدن أو جاه أو علم أو عمل فهو على صاحبه ليس له فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله الا ما أطاع الله به ولهذا من الناس من يعيش في هذه الدار مائة سنة أو نحوها ويكون عمره لا يبلغ عشرين سنة أو نحوها كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله في الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها وهكذا الجاه والعلم وفي الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم الدنيا ملعونة ملعون مافيها إلا ذكر الله عزوجل وما والاه أو عالم أومتعلم وفي أثر آخر ملعونة ملعون مافيها الا ما كان لله هذا هو الذي فيه البركة خاصة والله المستعان

فصل

ومن عقوباتها أنها تجعل صاحبها من السفلة بعد ان كان مهيئاً لان يكون من العلية فان الله خلق خلقه قسمين علية وسفلة وجعل عليين مستقر العلية وأسفل سافلين مستقر السفلة وجعل أهل طاعته الاعليين في الدنيا والاخرة وأهل معصيته الاسفلين في الدنيا والآخرة كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه وأهل معصيته أهون خلقه عليه وجعل العزة لهؤلاء والذلة والصغار لهؤلاء كما في مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال جعلت الذلة والصغار على من خالف أمري وكلما عمل العبد معصية نزل الى أسفل درجة ولايزال في نزول حتي يكون من الاسفلين وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة ولا يزال في ارتفاع حتي يكون من الاعليين وقد يجتمع للعبد في أيام حياته الصعود من وجه والنزول من وجه وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة كمن كان بالعكس ولكن يعرض ههنا للنفوس غلط عظيم وهو أن العبد قد ينزل نزولا بعيداً أبعد مما بين المشرق والمغرب ومما بين السماء والأرض ولا يفيء بصعوده ألف درجة بهذا النزول الواحد كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة ولا يلقي لها بالا يهوى بها فى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب فأي صعود يوازن هذه النزلة والنزول أمر لازم للانسان ولكن من الناس من يكون نزوله الى غفلة فهذا متى استيقظ من غفلته عاد الى درجته أو الى أرفع منها بحسب يقظته ومنهم من يكون نزوله الى مباح لاينوى به الاستعانة على الطاعة فهذا اذا رجع الى الطاعة قد يعود الي درجته وقد لايصل اليها وقد يرتفع عنها فانه قد يعود أعلى همة مما كان وقد يكون أضعف همة وقد تعود همته كما كانت ومنهم من يكون نزوله الي معصية إما صغيرة أو كبيرة فهذا يحتاج فى عوده الي درجته الي توبة نصوح وانابة صادقة واختلف الناس هل يعود بعد التوبة الى درجته التي كان فيها بناء على ان التوبة تمحو أثر الذنب وتجعل وجوده كعدمه فكانه لم يكن أولا يعود بناء على أن التوبة تأثيرها فى إسقاط العقوبة وأما الدرجة التي فاتته فانه لايصل اليها قالوا وتقرير ذلك انه كان مستعدا باشتغاله بالطاعة في الزمن الذي عصى فيه لصعود آخر وارتفاعه بجملة أعماله السابقة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذي يملكه وكلما تضاعف المال تضاعف الربح فقد راح عليه في زمن المعصية ارتفاع وربح بجملة أعماله فاذا استأنف العمل استأنف صعودا من نزول وكان قبل ذلك صاعدا من أسفل الى أعلى وبينهما بون عظيم قالوا ومثل ذلك

رجلان مر تقيان في سلمين لا نهاية لهما وهما سواء فنزل أحدهما الى أسفل ولو درجة واحدة ثم ا-تأنف الصعود فان الذي لم ينزل يعلو عليه ولا بد وحكم شيخ الاسلام ابن تيمية بين الطائفتين حكماً مقبولا فقال التحقيق ان من التائبين من يعود الى أرفع من درجته ومنهم من يعود الى من مثل درجته ومنهم من لا يصل الى درجته ومنهم من يعود الى درجته قلت وهذا بحسب قدر التوبة وكمالها وما أحدثت المعصية للعبد من الذل والخضوع والانابة والحذر والخوف من الله والبكاء من خشية الله وقد تقوى على هذه الامور حتى يعود التائب الى أرفع من درجته ويصير بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة فهذا قد تكون الخطيئة في حقه رحمة فانها نفت عنه داء العجب وخلصته من ثقته بنفسه وأعماله ووضعت خد ضراعته وذله وإنكساره على عتبة باب سيده ومولاه وعرفته قدره واشهدته فقره وضرورته الى حفظ سيده له ومولاه والى عفوه عنه ومغفرته له وأخرجت من قلبه صولة الطاعة وكسرت أنفه من أن يشمخ بها أو يتكبر بها أو يري نفسه بها خيراً من غيره وأوقفته بين يدي ربه موقف الخطائين المذنبين ناكس الرأس بين يدي ربه مستحياً خائفاً منه وجلا محتقرا لطاعته مستعظما لمعصيته عرف نفسه بالنقص والذم وربه متفرد بالكمال والحمد والوفي كما قيل

استأثر الله بالوفى وبالحمـ * ـد وولي الملامة الرجلا

فصل

فأي نعمة وصلت من الله اليه استكثرها على نفسه ورأى نفسه دونها ولم يرها أهلا لها وأي نقمة أو بلية وصلت اليه رأي نفسه أهلا لما هو أكبر منها ورأى مولاه قد أحسن اليه إذ لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره ولا أدني جزء منه فان ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات فضلا عن هذا العبد الضعيف العاجز فان الذنب وان صغر فان مقابله العظيم الذى لا شيء أعظم منه الكبير الذي لا شيء أكبر منه الجليل الذى لا أجل منه ولا أجمل المنعم بجميع أنواع النعم دقيقها وجليلها من أقبح الامور وافظعها واشنعها فان مقابلة العظماء والاجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر وأرذل الناس واسقطهم مروءة من قابلهم بالرذائل فكيف بعظيم السموات والارض وملك السموات والارض وإله أهل السموات والارض ولولا أن رحمته سبقت غضبه ومغفرته سبقت عقوبته والا لتزلزلت الارض بمن قابله بما لا تليق مقابلته به ولولا حلمه ومغفرته لزالت السموات والارض من معاصي العباد قال تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفوراً فتأمل ختم هذه الآية

بأسمين من أسمائه وهما الحليم والغفور كيف تجد تحت ذلك انه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والارض وقد أخبر سبحانه عن كفر بعض عباده أنه تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه وخالفا فيه نهيه ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات بذنب واحد ارتكبه وخالف فيه أمره ونحن معاشر الحمقاء كما قيل

نصل الذنوب الى الذنوب ونرتجي * درج الجنان لذي النعيم الخالد
ولقد علمنا أخرج الابوين من * ملكوتها الأعلى بذنب واحد

والمقصود أن العبد قد يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة وقد تضعف الخطيئة همته وتوهن عزمه وتمرض قلبه فلا يقوى ذو التوبة على إعادته الى الصحة الاولى فلا يعود الى درجته وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ويعود الى مثل عمله فيعود الى درجته هذا كله إذا كان نزوله الى معصيته فان كان نزوله الى أمر يقدح فى أصل إيمانه مثل الشكوك والريب والنفاق فذاك نزول لا يرجي لصاحبه صعود الا بتجديد إسلامه من رأسه

فصل

ومن عقوباتها أنها تجتريء على العبد مالم يكن يجتريء عليه من أصناف المخلوقات فتجتري عليه الشياطين بالاذي والاغواء والوسوسة والتخويف والتحزين وإنسائه ما مصلحته في ذكره ومضرته في نسيانه فتجترئ عليه الشياطين حتي تؤزه الى معصية الله أزاً وتجترئ عليه شياطين الانس بما تقدر عليه من الاذى في غيبته وحضوره وتجتريء عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتي الحيوان البهيم قال بعض السلف اني لاعصي الله فاعرف ذلك في خلق امرأتي ودابتي وكذلك تجترى عليه أولياء الامر بالعقوبة التى ان عدلوا فيها أقاموا عليه الحدود وتجترى عليه نفسه فتأسد عليه وتصعب عليه فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقد له وتسوقه الى مافيه هلاكه شاء أم أبي وذلك لان الطاعة حصن الرب تبارك وتعالى الذى من دخله كان من الآمنين فاذا فارق الحصن اجترئ عليه قطاع الطريق وغيرهم وعلى حسب اجترائه على معاصى الله يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه وليس شئ يرد عنه فان ذكر الله وطاعته والصدقة وإرشاد الجاهل والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وقاية ترد عن العبد بمنزلة القوة التي ترد المرض وتقاومه فاذا سقطت القوة غلب وارد المرض وكان الهلاك ولا بد للعبد من شئ يرد عنه فان موجب السيئات والحسنات يتدافع ويكون الحكم للغالب كما تقدم وكلما قوى جانب الحسنات كان الرد أقوي كما تقدم

فان الله يدافع عن الذين آمنوا والايمان قول وعمل فبحسب قوة الايمان تكون قوة الدفع والله المستعان

فصل

ومن عقوباتها أنها تخون العبد أحوج مايكون الى نفسه فأن كل أحد محتاج الى معرفة ماينفعه وما يضره في معاشه ومعاده وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل وأقواهم وأكيسهم من قوى على نفسه وإرادته فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره وفي ذلك تفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم فاعرفهم من كان عارفا باسباب السعادة والشقاوة وأرشدهم من آثر هذه على هذه كما ان أسفههم من عكس الامر والمعاصي تخون العبد أحوج ما كان الى نفسه في تحصيل هذا العلم وإيثار الحظ الاشرف العالي الدائم على الحظ الخسيس الادني المنقطع فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع له في الدارين فاذا وقع في مكروه واحتاج الى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الحرب ولزم قرابه بحيث لاينجذب مع صاحبه اذا جذبه فعرض له عدو يريد قتله فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه فلم يخرج معه فدهمه العدو وظفر به كذلك القلب يصدئ بالذنوب ويصير مثخناً بالمرض فاذا احتاج الى محاربة العدو لم يجد معه منه شيئاً والعبد انما يحارب ويصاول ويقدم بقلبه والجوارح تبع للقلب فاذا لم يكن عند ملكها قوة يدفع بها فما الظن بها عند عدم ملكها وكذلك النفس فانها تخبث بالشهوات والمعاصي وتضعف أعني النفس المطمئنة وإن كانت الامارة تقوى وتتأسد وكلما قويت هذه ضعفت هذه فيبقى الحكم والتصرف للامارة وربما ماتت نفسه المطمئنة موتاً لايرجي معه حياة فهذا ميت في الدنيا ميت في البرزخ غير حي في الآخرة حياة ينتفع بها بل حياته حياة يدرك بها الالم فقط والمقصود أن العبد إذا وقع في شدة أو كربة أو بلية خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى والانابة اليه والجمعية عليه والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه ولا يطاوعه لسانه لذكره وان ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه فلا ينحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر فيه الذكر ولا ينحبس اللسان والقلب على المذكور بل إن ذكر أو دعا ذكر بقلب غافل لاه ساه ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي كمن له جند يدفع عنه الاعداء فاهمل جنده وضيعهم وأضعفهم وقطع أخبارهم ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة هذا وثم أمر أخوف من

ذلك وأدهي وأمر وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال الى الله تعالى فربما تعذر عليه النطق بالشهادة كما شاهد الناس كثيراً من المحتضرين أصابهم ذلك حتى قيل لبعضهم قل لا إله إلا الله فقال آه آه لاأستطيع أن أقولها وقيل لآخر قل لا إله إلا الله فقال شاه رخ غلبتك ثم قضى وقيل لآخر قل لاإله إلا الله فقال

يارب قائلة يوما وقد تعبت * أين الطريق الى حمام منجاب

ثم قضى وقيل لآخر قل لا إله إلا الله فجعل يهذي بالغناء ويقول تانا تنتنا فقال وما ينفعني ماتقول ولم أدع معصية الا ركبتها ثم قضى ولم يقلها وقيل لآخر ذلك فقال وما يغني عني وما أعلم اني صليت لله تعالى صلاة ثم قضى ولم يقلها وقيل لآخر ذلك فقال هو كافر بما تقول وقضي وقيل لآخر ذلك فقال كلما أردت أن أقولها فلساني يمسك عنها وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول لله فليس لله فليس حتي قضي وأخبرني بعض التجار عن قرابة له انه احتضر وهو عنده فجعلوا يلقنونه لا إله إلا الله وهو يقول هذه القطعة رخيصة هذا مشتري جيد هذه كذا حتى قضي وسبحان الله كم شاهد الناس من هذا عبرا والذي يخفي عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم وإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان واستعمله بما يريده من المعاصى وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى وعطل لسانه من ذكره وجوارحه عن طاعته فكيف الظن به عند سقوط قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع وجمع الشيطان له كل قوته وهمته وحشد عليه بجميع مايقدر عليه لينال منه فرصته فان ذلك آخر العمل فاقوي ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت وأضعف ما يكون هو في تلك الحالة فمن تري يسلم على ذلك فهنالك يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا فبعيد من قلب بعيد من الله تعالى غافل عنه متعبد لهواه مصير لشهواته ولسانه يابس من ذكره وجوارحه معطلة من طاعته مشتغلة بمعصية الله أن يوفق لحسن الخاتمة ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعاً بالايمان أم لكم أيمان علينا بالغة الي يوم القيامة ان لكم لما تحكمون سلهم أيهم بذلك زعيم

يا آمنا من قبيح الفعل يصنعه * هل أتاك توافيع أم أنت تملكه

جمعت شيئين أمناً واتباع هوى * هذا وإحداها في المرء تهلكه

والمحسنون على درب المخاوف قد * ساروا وذلك درب لست تسلكه

فرطت في الزرع وقت البذر من سفه * فكيف عند حصاد الناس تدركه
هذا وأعجب شئ منك زهدك في * دار البقاء بعيش سوف تتركه
من السفيه اذاً بالله أنت أم الــــمغبون في البيع غبنا سوف تدركه

فصل

ومن عقوباتها أنها تعمي القلب فان لم تعمه أضعفت بصيرته ولابد وقد تقدم بيان أنها تضعفه ولابد فاذا عمي القلب وضعف فاته من معرفة الهدى وقوته على تنفيذه في نفسه وفي غيره بحيث تضعف بصيرته وقوته فان كمال الانسان مداره في أصلين معرفة الحق من الباطل وإيثاره عليه وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة الا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين وهما اللذان أثني الله بهما سبحانه على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام في قوله تعالى واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار فالأيدي القوة في تنفيذ الحق والأبصار البصائر في الدين فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله تعالى القسم الثانى عكس هؤلاء من لا بصيرة له في الدين ولا قوة على تنفيذ الحق وهم أكثر هذا الخلق الذين رؤيتهم قذي للعيون وحمي الأرواح وسقم القلوب يضيقون الديار ويغلون الأسعار ولا يستفاد من صحبتهم الا العار والشنار القسم الثالث من له بصيرة في الهدى ومعرفة به لكنه ضعيف لاقوة له على تنفيذه ولا الدعوة اليه وهذا حال المؤمن الضعيف والمؤمن القوي خير واحب الى الله منه القسم الرابع من له قوة وهمة وعزيمة لكنه ضعيف البصيرة في الدين لايكاد يميز بين أولياء الرحمن من أولياء الشيطان بل يحسب كل سوداء تمرة وكل بيضاء شحمة يحسب الورم شحماً والدواء النافع سماً وليس في هؤلاء من يصلح للامامة فى الدين ولاهو موضعاً لها سوي القسم الأول قال الله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون فاخبر سبحانه ان بالصبر واليقين نالوا الامامة فى الدين وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين وأقسم بالعصر الذي هو زمن سعي الخاسرين والرابحين على ان من عداهم فهو من الخاسرين فقال تعالى والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر فلم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه حتي يوصى بعضهم بعضاً ويرشده اليه ويحثه عليه فاذا كان من عدا هؤلاء فهو من الخاسرين فمعلوم ان المعاصي والذنوب تعمي بصيرة القلب فلا يدرك الحق كما ينبغي وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه بل قد تتوارد على القلب حتي ينعكس

إدراكه كما ينعكس سيره فيدرك الباطل حقاً والحق باطلا والمعروف منكراً والمنكر معروفا فينتكس في سيره ويرجع عن سفره الى الله والدار الآخرة الى سفره الى مستقر النفوس المبطلة التي رضيت بالحياة الدنيا واطمأنت بها وغفلت عن الله وآياته وتركت الاستعداد للقائه ولو لم يكن في عقوبة الذنوب الا هذه وحدها لكانت كافية داعية الى تركها والبعد منها والله المستعان وهذا كما ان الطاعة تنور القلب وتجلوه وتصقله وتقويه وتثبته حتى يصير كالمرآة المجلوة في جلائها وصفائها فيمتلئ نورا فاذا دني الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب فالشيطان يفرق من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الاسد حتى ان صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعا فيجتمع عليه الشياطين فيقول بعضهم لبعض ماشأنه فيقال أصابه أنسي وبه نظرة من الانس

فيا نظرة من قلب حر منور * يكاد لها الشيطان بالنور يحرق

أفيستوي هذا القلب وقلب مظلم أرجاؤه مختلفة أهواؤه قد اتخذه الشيطان وطنه وأعده مسكنه اذا تصبح بطلعته حياه وقال فديت من لا يفلح في دنياه ولا في اخراه

انا قرينك في الدنيا وفي الحشر بعدها * فانت قرين لى بكل مكان

فان كنت في دار الشقاء فانني * وأنت جميعا في شقا وهوان

قال الله تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وأنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون فاخبر سبحانه ان من عشي عن ذكره وهو كتابه الذي أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وبارك فيه فاعرض عنه وعمى عنه وغشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه قيض الله له شيطانا عقوبة له في إعراضه عن كتابه فهو قرينه الذي لايفارقه لا في الاقامة ولا في المسير ومولاه وعشيره الذي هو بئس المولى وبئس العشير

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما * بأسحم داج عوض لا يتفرق

ثم أخبر سبحانه ان الشيطان ليصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل اليه والى جنته ويحسب هذا الضال المضل المصدود أنه على طريق هدي حتي اذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين كنت لى في الدنيا أضللتني عن الهدى بعد إذ جاءني وصددتنى عن الحق واغويتني حتى هلكت وبئس القرين أنت لى اليوم ولما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبة حصل بالتأسي نوع تخفيف وتسلية أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل فى حق المشتركين في العذاب وأن

القرين لايجد راحة ولاأدنى فرح بعذاب قرينه معه وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة كما قالت الخنساء فى أخيها صخر

ولولا كثرة الباكين حولى * على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخي ولكن * أعزي النفس عنه بالتأسي
الا ياصخر لاأنساك حتى * أفارق عيشتي وورود رمسي

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون

فصل

ومن عقوباتها إنها مدد من الانسان يمد به عدوه عليه وجيش يقويه به على حربه وذلك أن الله سبحانه ابتلى هذا الانسان بعدو لايفارقه طرفة عين صاحبه ينام ولاينام عنه ويغفل ولا يغفل عنه يراه هو وقبيله من حيث لايراه يبذل جهده في معاداته بكل حال ولا يدع أمراً يكيده به يقدر على إيصاله اليه الا أوصله ويستعين عليه ببني جنسه من شياطين الانس وغيرهم من شياطين الجن وقد نصب له الحبائل وبغي له الغوائل ومد حوله الاشراك ونصب له الفخاخ والشباك وقال لاعوانه دونكم عدوكم وعدو أبيكم لايفوتكم ولا يكون حظه الجنة وحظكم النار ونصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة وقد علمتم إن ما جري علي وعليكم من الخزي واللعن والابعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله فابذلوا جهدكم أن يكونوا شركاءنا في هذه البلية اذ قدفاتنا شركة صالحيهم في الجنة ولما علم سبحانه أن آدم وبنيه قد بلوا بهذا العدو وسلطوا عليهم أمدهم بعساكر وجند يلقون بها وأمد عدوهم أيضاً بجند وعساكر يلقاهم به وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر التي هي بالاضافة الى الآخرة كنفس واحد من أنفاسها واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وأخبر ان ذلك وعد مؤكد عليه في أشرف كتبه وهي التوراة والانجيل والقرآن ثم أخبر انه لا أوفى بعهده منه سبحانه ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التي من أراد أن يعرف قدرها فلينظر الى المشتري من هو والى الثمن المبذول في هذه السلعة والى من جرى على يديه هذا العقد فاي فوز أعظم من هذا وأي تجارة أربح منه ثم أكد سبحانه معهم هذا الامر بقوله ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات

تجري من تحتها الانهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ولم يسلط سبحانه هذا العدو على عبده المؤمن الذي هو أحب المخلوقات اليه إلا لان الجهاد أحب شيء اليه وأهله أرفع الخلق عنده درجات وأقربهم اليه وسيلة فعقد سبحانه لواء هذا الحرب لخلاصة مخلوقاته وهو القلب الذي محل معرفته ومحبته وعبوديته والاخلاص له والتوكل عليه والانابة اليه فولاه أمر هذا الحرب وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله يعقب بعضهم بعضاً كلما جاء جند وذهب جاء بدله آخر يثبتونه ويأمرونه بالخير ويحضونه عليه ويعدونه بكرامة الله ويصبرونه ويقولون إنما هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد ثم أيده سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه فارسل إليه رسوله صلى الله عليه وسلم وأنزل اليه كتابه فازداد قوة إلى قوته ومددا الى مدده وعدة الى عدته وأمده مع ذلك بالعقل وزيراً له ومدبراً وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له وبالايمان مثبتاً له ومؤيداً وناصراً وباليقين كاشفا له عن حقيقة الامر حتى كأنه يعاين ما وعد الله تعالى أولياءه وحزبه على جهاد أعدائه فالعقل يدبر أمر جيشه والمعرفة تصنع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائقة بها والايمان يثبته ويقويه ويصبره واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة ثم مد سبحانه القائم بهذا الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة فجعل العين طليعة والأذن صاحب خبرة واللسان ترجمانه واليدين والرجلين أعوانه وأقام ملائكته وحملة عرشه يستغفرون له ويسئلون له أن يقيه السيئات ويدخله الجنات وتولى سبحانه الدفع والدفاع عنه بنفسه وقال هؤلاء حزب الله وحزب الله هم المفلحون وهؤلاء جنده وإن جندنا لهم الغالبون وعلم عباده كيفية هذا الحرب والجهاد فجمعها لهم في أربع كلمات فقال ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ولا يتم أمر هذا الجهاد الا بهذه الامور الاربعة فلا يتم الصبر الا بمصابرة العدو وهو مقاومته ومنازلته فاذا صابر عدوه احتاج الى أمر آخر وهي المرابطة وهي لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل منه العدو ولزوم ثغر العين والاذن واللسان والبطن واليد والرجل فهذه الثغور يدخل منه العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه فالمرابطة لزوم هذه الثغور ولا يخلي مكانها فيصادف العدو والثغر خاليا فيدخل منها فهؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الخلق بعد النبيين والمرسلين صلى الله عليهم وسلم أجمعين وأعظم حماية وحراسة من الشيطان الرجيم وقد حلوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد فدخل منه العدو فكان ما كان وإجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوى الله فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة الا بالتقوى ولا تقوم التقوي الا على ساق الصبر

فانظر الآن فيك الى التقاء الجيشين واصطدام العسكرين وكيف تداله مرة ويدال عليك أخرى أقبل ملك الكفرة بجنوده وعساكره فوجد القلب في حصنه جالساً على كرسي مملكته أمره نافذ في أعوانه وجنده قد حصنوا به يقاتلون عنه ويدافعون عن حوزته فلم يمكنهم الهجوم عليه الا بمخامرة بعض أمرائه وجنده عليه فسأل عن أخص الجند به وأقربهم منه منزلة فقيل له هي النفس فقال لاعوانه أدخلوا عليها من مرادها وانظروا مواقع محبتها وماهو محبوبها فعدوها به ومنوها اياه وانقشوا صورة المحبوب فيها في يقظتها ومنامها فاذا اطمأنت اليه وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطاطيفها ثم جروها بها اليكم فاذا خامرة على القلب وصارة معكم عليه ماكتم ثغر العين والاذن واللسان والفم واليد والرجل فرابطوا على هذا الثغور كل المرابطة فتي دخلتم منها الى القلب فهو قتيل أو أسير أو جريح مثخن بالجراحات ولا تخلوا هذه الثغور ولا تمكنوا سرية تدخل منها الى القلب فتخرجكم منها وان غلبتم فاجتهدوا في إضعاف السرية ووهنها حتي لا تصل الى القلب فان وصلت اليه وصلت ضعيفة لاتغني عنه شيئاً فاذا استوليتم على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين أن يكون نظره إعتباراً بل أجعلوا نظره تفرجاً واستحساناً وتلهيا فان استرق نظرة عبرة فافسدوها عليه بنظر الغفلة والاستحسان والشهوة فانه أقرب اليه وأعلق بنفسه وأخف عليه ودونكم ثغر العين فان منه تنالون بغيتكم فاني ماأفسدت بني آدم بشئ مثل النظر فاني أبذر به في القلب بذر الشهوة ثم أسقيه بماء الامنية ثم لاأزال أعده وامنيه حتى أقوى عزيمته وأقوده بزمام الشهوة إلى انخلاع من العصمة فلا تهملوا أمر هذا الثغر وأفسدوه بحسب استطاعتكم وهونوا عليه أمره وقولوا له مقدار نظرة تدعوك الى تسبيح الخالق والرازق البديع والتأمل والتجمل صفته وحسن هذه الصورة التي إنما خلقت ليستدل بها الناظر عليه وما خلق الله لك العينين سدي وماخلق الله هذه الصورة ليحجبها عن النظر وإن ظفر تم به قليل العلم فاسد العقل تقولوا له هذه الصورة مظهرة من مظاهر الحق ومجلي من مجاليا فادعوه الى القول بالاتحاد فان لم يقبل فالقول بالحلول العام والخاص ولا تقنعوا منه بدون ذلك فانه يصير به من إخوان النصارى فروه حينئذ بالعفة والصيانة والعبادة والزهد في الدنيا واصطادوا عليه الجهال فهذا من أقرب خلفائي وأكبر جندي بل أنا من جنده وأعوانه

فصل

ثم أمنعوا ثغر الاذن أن يدخل عليه مايفسد عليكم الأمر فاجتهدوا أن لاتدخلوا منه الا الباطل فانه خفيف على النفس تستحليه وتستملحه وتخيروا له أعذب الالفاظ

وأسحرها للالباب أمزجوه بما تهوي النفس مزجاً وألقوا الكلمة فان رأيتم منه إصغاء اليها فزيدوه باخوانها فكلما صادفتم منه استحسان شيءٍ فالهجوا له بذكره وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله صلى الله عليه وسلم أو كلام النصحاء فان غلبتم على ذلك ودخل شيء من ذلك فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكر فيه والعظة به إما بادخال ضده عليه وإما بتهويل ذلك وتعظيمه وإن هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها اليه وهو حمل ثقيل عليها لاتستقل به ونحو ذلك وإما بارخاصه على النفوس وأن الاشتغال ينبغي أن يكون بما هو أعلى عند الناس وأعز عليهم وأغرب عندهم وزبونه أكثر وأما الحق فهو مهجور والقائل به معرض نفسه للعدوان ولاينبغي والربح بين الناس أولى بالايثار ونحو ذلك فيدخلون الباطل عليه في كل قالب يقبله ويخف عليه ويخرجون له الحق في كل قالب يكرهه ويثقل عليه وإذا شئت أن تعرف ذلك فانظر الى إخوانهم من شياطين الانس كيف يخرجون الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب كثرة الفضول وتتبع عثرات الناس والتعرض من البلاء مالا يطيق وإلقاء الفتن بين الناس ونحو ذلك ويخرجون إتباع السنة ووصف الرب تعالى بماوصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم في قالب التشبيه والتجسيم والتكليف ويسمون علو الله على خلق خلقه واستوائه على عرشه ومباينته لمخلوقاته تحيزاً ويسمون نزوله الى سماء الدنيا وقوله من يسألني فاعطيه تحركا وانتقالا ويسمون ماوصف به نفسه من اليد والوجه أعضاء وجوارح ويسمون مايقوم به من أفعاله حوادث وما يقوم من صفاته أعراضاً ثم يتوصلون الى نفي ماوصف به نفسه بهذه الامور ويوهمون الاغمار وضعفاء البصائر أن إثبات الصفات التي نطق بها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تستلزم هذه الامور ويخرجون هذا التعطيل في قالب التنزيه والتعظيم وأكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون السيء باللفظ ويردونه بعينه بلفظ آخر قال الله تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً فسماه زخرفاً وهو القول الباطل لان صاحبه يزخرفه ويزينه مااستطاع ويلقيه الى سمع المغرور فيغتر به والمقصود أن الشيطان قد لزم ثغر الاذن أن يدخل فيها مايضر العبد ويمنع أن يدخل اليها ماينفعه وإن دخله بغير اختياره أفسد عليه

فصل

ثم يقول قوموا على ثغر اللسان فانه الثغر الاعظم وهو قبالة الملك فاجروا عليه من الكلام مايضره ولا ينفعه وامنعوه أن يجري عليه شيء مما ينفعه من ذكر الله واستغفاره وتلاوة كتابه ونصيحته عباده او التكلم بالعلم النافع ويكون لكم في هذا الثغر أمران عظيمان لاتبالون بأيهما ظفرتم أحدهما التكلم بالباطل فانما المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم الثاني السكوت عن الحق فان الساكت عن الحق أخ لكم أخرس كما أن الاول أخ لكم ناطق وربما كان الاخ الثاني أنفع إخوانكم لكم أما سمعتم قول الناصح المتكلم بالباطل شيطان ناطق والساكت عن الحق شيطان أخرس فالرباط الرباط على هذا الثغر أن يتكلم بحق أو يمسك عن باطل وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق واعلموا يابني ان ثغر اللسان هو الذي أهلك منه بنو آدم وأكبهم منه على مناخرهم في النار فكم لي من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر وأوصيكم بوصية فاحفظوا لينطق أحدكم على لسان أخيه من الانس بالكلمة ويكون الآخر على لسان السامع فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها ويطلب من أخيه إعادتها وكونوا أعوانا على الانس بكل طريق وأدخلوا عليهم من كل باب واقعدوا لهم كل مرصد أما سمعتم قسمي الذي أقسمت به لربهم حيث قلت فبما أغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين أما تروني قد قعدت لابن آدم بطرقه كلها فلا يفوتني من طريق الا قعدت له من طريق غيره حتى أصبت منه حاجتي أو بعضها وقد حذرهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها قعد له بطريق الاسلام فقال له أتسلم وتذر دينك ودين آبائك فخالفه وأسلم فقعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر وتذر أرضك وسماءك فخالفه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال أتجاهد فتقتل ويقسم المال وتنكح الزوجة فخالفه وجاهد فهكذا فاقعدوا لهم بكل طريق الخير فاذا أراد أحدهم ان يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة فقولوا له في نفسه أتخرج المال وتبقى مثل هذا السائل وتصير بمنزلته أنت وهو سواء أو ما سمعتم ماالقيته على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه قال أموالنا اذا أعطيناكموها صرنا مثلكم واقعدوا له بطريق الحج فقولوا له طريقه مخوفة مشقة يتعرض سالكها لتلف النفس والمال وهكذا فاقعدوا له على سائر طرق الخير بالتنفير منها وذكر صعوبتها وآفاتها ثم أقعدوا على المعاصي فحسنوها في عين بني آدم وزينوها في قلوبهم

واجعلوا أكبر أعوانكم على ذلك النساء فمن أبوابهن فادخلوا عليهم فنعم العون هن لكم ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين فامنعوها ان تبطش بما يضركم أو تمشي فيه واعلموا إن أكبر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الامارة فاعينوها واستعينوا بها وأمدوها واستمدوا منها وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة فاجتهدوا في كسرها وابطال قواها ولا سبيل الى ذلك الا بقطع موادها عنها فاذا إنقطعت موادها وقويت مواد النفس الامارة وطاعت لكم أعوانها فاستنزلوا القلب من حصنه وأعزلوه عن مملكته وولوا مكانه النفس فانها لا تأمر الا بما تهوونه وتحبونه ولا تجيكم بما تكرهونه البتة مع إنها لا تخالفكم في شيء تشيرون به عليها بل إذا أشرتم عليها بشيء بادرت الى فعله فان أحسستم من القلب منازعة الى مملكته وأردتم الامن من ذلك فاعقدوا بينه وبين النفس عقد النكاح فزينوها وجلوها وأروها إياه في أحسن صورة عروس توجد وقولوا له ذق حلاوة طعم هذا الوصال والتمتع بهذه العروس كما ذقت طعم الحرب وباشرت مرارة الطعن والضرب ثم وازن بين لذة هذه المسالمة ومرارة تلك المحاربة فدع الحرب تضع أوزارها فليست بيوم وينقضي وإنما هو حرب متصل بالموت وقواك يضعف عن الحرب دائم واستعينوا يا بني بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما أحدهما جند الغفلة فاغفلوا قلوب بني آدم عن الله تعالى والدار الآخرة بكل طريق فليس لكم شيء أبلغ من تحصيل غرضكم من ذلك فان القلب إذا غفل عن الله تعالى تمكنتم منه ومن أعوانه الثاني جند الشهوة فزينوها في قلوبهم وحسنوها في أعينهم وصولوا عليهم بهذين العسكرين فليس لكم في بني آدم أبلغ منهما واستعينوا على الغفلة بالشهوات وعلى الشهوات بالغفلة وأقرنوا بين الغافلين ثم استعينوا بهما على الذاكر ولا يغلب واحد خمسة فان مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة وشيطان الذاكر معهم واذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم من ذكر الله ومذاكرة أمره ونهيه ودينه ولم تقدروا على تفريقهم فاستعينوا عليهم ببني جنسهم من الانس البطالين فقربوهم منهم وشوشوا عليهم بهم وبالجملة فاعدوا للامور أقرانها وادخلوا على كل واحد من بني آدم من باب إرادته وشهوته فساعدوه عليها وكونوا له أعواناً على تحصيلها وإذا كان الله قد أمرهم بالصبر أن يصبروا لكم ويصابرونكم ويرابطوا عليكم الثغور فاصبروا أنتم وصابروا ورابطوا عليهم بالثغور وانتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة والغضب فلا تصطادوا بني آدم في أعظم من هذين الموضعين واعلموا أن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب وسلطان غضبه ضعيف مقهور فخذوا عليه طريق الشهوة ودعوا طريق الغضب ومنهم من يكون سلطان الغضب عليه أغلب فلا تخلوا طريق الشهوة عليه ولا تعطلوا ثغرها فان من لم يملك نفسه

عند الغضب فانه بالحري ان لايملكها عند الشهوة فزوجوا بين غضبه وشهوته وأمزجوا أحدهم بالآخر وادعوه إلى الشهوة من باب الغضب والى الغضب من طريق الشهوة واعلموا أنه ليس لكم في بني آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين وإنما أخرجت ابوهم من الجنة بالشهوة وإنما ألقيت العداوة بين أولادهم بالغضب فبه قطعت أرحامهم وسفكت دماؤهم وبه قتل أحد ابني آدم أخاه واعلموا إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم والشهوة نار تثور من قلبه وإنما تطفي النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير وإياكم أن تمكنوا ابن آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة فان ذلك يطفي عنهم نار الغضب والشهوة وقد أمرهم نبيهم بذلك وقال إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم أما رأيتم من إحمرار عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحس بذلك فليتوضأ وقال لهم إنما تطفي النار بالماء وقد أوصاهم الله أن يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة فحولوا بينهم وبين ذلك وانسوهم إياه واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكاها الغفلة واتباع الهوى وأعظم أسلحتهم فيكم وأمنع حصونهم ذكر الله ومخالفة الهوي فاذا رأيتم الرجل مخالفاً لهواه فاهربوا من ظلمه ولا تدنوا منه والمقصود ان الذنوب والمعاصي سلاح ومدد يمد بها العبد أعداه ويعينهم بها على نفسه فيقاتلونه بسلاحه والجاهل يكون معهم على نفسه وهذا غاية الجهل قال مايبلغ الاعداء من جاهل مايبلغ الجاهل من نفسه ومن العجائب أن العبد يسعي بنفسه في هوان نفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ويجتهد في حرمانها من حظوظها وإسرافها وهو يزعم أنه يسعى في حظها ويبذل جهده في تحقيرها وتصغيرها وتدنيسها وهو يزعم انه يسعي في صلاحها ويعليها ويرفعها ويكبرها وكان بعض السلف يقول في خطبته ألارب مهين لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ومذل لنفسه وهو يزعم أنه لها معز ومصغر لنفسه وهو يزعم أنه لها مكبر ومضيع لنفسه وهو يزعم أنه مراع لحقها وكفي بالمرأ جهلا أن يكون مع عدوه على نفسه يبلغ منها بفعله مالا يبلغه عدوه والله المستعان

فصل

ومن عقوباتها أنها تنسي العبد نفسه فاذا نسي نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها فان قيل كيف ينسي العبد نفسه وإذا نسي نفسه فاي شيء يذكره وما معني نسيانه نفسه قيل نعم ينسى نفسه أعظم نسيان قال تعالى ولاتكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم كما قال الله تعالى نسوا الله فنسيهم فعاقب

سبحانه من نسيه عقوبتين أحدهما أنه سبحانه نسيه والثانية أنه أنساه نفسه ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته ونسيانه فالهلاك أدنى اليه من اليد للفم وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها وإصلاحها ومايكملها ينسيه ذلك كله جميعه فلا يخطر بباله ولا يجعله على ذكره ولا يصرف اليه همته فيرغب فيه فانه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره وأيضاً فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها فلا يخطر بباله إزالتها واصلاحها وأيضاً فينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها فلا يخطر بقلبه مداواتها ولا السعي في إزلة عللها وأمراضها التي تؤول بها الى الفساد والهلاك فهو مريض مثخن بالمرض ومرضه مترام به الى التلف ولا يشعر بمرضه ولا يخطر بباله مداواته وهذا من أعظم العقوبة للعامة والخاصة فاي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ونسي مصالحها وداءها ودواءها وأسباب سعادتها وصلاحها وفلاحها وحياتها الابدية في النعيم المقيم ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها وأضاعوا حظها من الله وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن وإنما يظهر لهم هذا عند الموت ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن يوم يظهر للعبد أنه غبن فى العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار والتجارة التى أتجر فيها لمعاده فان كل أحد يتجر في هذه الدنيا لآخرته فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب إشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها فأذهبوا طيباتهم ولذاتهم بالآخرة وحظهم فيها في حياتهم الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم بالآخرة واستمتعوا بها ورضوا بها واطمأنوا اليها وكان سعيهم لتحصيلها فباعوا واشتروا واتجروا وباعوا آجلا بعاجل ونسيئة بنقد وغائبا بناجز وقالوا هذا هو الرهرة ويقول أحدهم خذ ماتراه ودع شيئاً سمعت به فكيف أبيع حاضراً نقداشا هدا في هذه الدار بغائب نسيئه في دار أخري غير هذه وينضم الى ذلك ضعف الايمان وقوة داعي الشهوة ومحبة العاجلة والتشبه ببني الجنس فاكثر الخلق في هذه التجارة الخاسرة التي قال الله في أهلها أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون وقال فيهم فماربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين فاذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن في هذه التجارة فتنقطع عليهم انفوس حسرات وأما الرابحون فانهم باعوا فانيابباق وخسيسا بنفيس وحقيرا بعظيم وقالوا ماءمدار هذه الدنيا من أولها الى آخرها حتى نبيع حظنا من الله تعالي والدار الآخرة بها فكيف بما ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة حلم لانسبة له إلى دار القرار البتة قال تعالى ويوم نحشرهم كأن لم يلبسوا إلاساعة من النهار يتعارفون بينهم وقال تعالى يسألونك عن الساعة

أيان مرساها فيم أنت من ذكراها الى ربك منتهاها إنما أنت منذر من يخشاها كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها وقال تعالى كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ وقال تعالى كم لبثتم في الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون وقال تعالى ويوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا يتخافتون بينهم ان لبثتم إلا عشرا نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم الا يوما فهذه حقيقة هذه الدنيا عند موافاة يوم القيامة فلما علموا قلة لبثهم فيها وإن لهم دار غير هذه الدار دار الحيوان ودار البقاء رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء فاتجروا تجارة الا كياس ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس فظهر لهم لتغابن ربح تجارتهم ومقدار ماشتروه وكل أحد فى هذه الدنيا بائع مشتر متجر وكل الناس يغد فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم فهذا أول نقد من ثمن هذا التجارة فتاجروا أيها المفلسون ويامن لايقدر على هذا الثمن ههنا ثمن آخر فان كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأمولكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون والمقصود أن الذنوب تنسى العبد حظه من هذه التجارة الرابحة وتشغله بالتجارة الخاسرة وكفى بذلك عقوبة والله المستعان

فصل

ومن عقوباتها انها تزيل النعم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة فتزيل الحاصل وتمنع الواصل فان نعم الله ماحفظ موجودها بمثل طاعته ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته فأن ماعندالله لاينال الا بطاعته وقد جعل الله سبحانه لكل شئ سبباً وآفة سبباً يجلبه وآفة تبطله فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته وآفاتها المانعة منها معصيته فاذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها ومن العجب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره وسماعا لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه وهو مقيم على معصية الله كأنه مستثني من هذه الجملة أو مخصوص من هذا العموم وكأن هذا

أمر جار على الناس لاعليه وواصل الى الخلق لااليه فأى جهل أبلغ من هذا وأي ظلم للنفس فوق هذا فالحكم لله العلى الكبير

فصل

ومن عقوباتها أنهاتباعد عن العبد وليه وأنصح الخلق له وأنفعهم له ومن سعادته في قربه منه وهو الملك الموكل به وتدنى منه عدوه وأغش الخلق لهوأعظمهم ضرراً لهوهو الشيطان فان العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية حتي انه يتباعد منه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة وفي بعض الآثار إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلا من نتن ريحه فاذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة فماذا يكون قدر تباعده منه مما هو أكبر من ذلك وأفحش منه وقال بعض السلف إذاركب الذكر عجت الارض إلىالله وهربت الملائكة الى ربها وشكت إليه عظم مارأت وقال بعض السلف إذا أصبح ابن آدم ابتدرهالملك والشيطان فانّ ذكرالله وكبره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاه وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان ولا يزال الملك يقرب من العبد حتي يصير الحكم والطاعة والغلبة له فتتولاه الملائكة فيحياته وعند موته وعند مبعثه قال الله تعالى إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لاتخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلقله وأنفعهم وأبرهم له فثبته وعلمه وقوي جنانه وأيده قال تعالى اذ يوحي ربك الى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا ويقول الملك عند الموت لاتخف ولاتحزن وأبشربالذي يسرك ويثبته بالقولالثابت أحوج مايكون اليه في الحياة الدنيا وعند الموت وفي القبر عنـد المسألة فليس أحد أنفعللعبد من صحبة الملك له وهو وليه في يقظته ومنامه وحياته وعند موته وفيقبره ومؤنسهفي وحشته وصاحبه فيخلوته ومحدثه في سره ويحارب عنه عدوه ويدافع عنه ويعينهعليه ويعده بالخير ويبشره به ويحثه على التصديق بالحق كما جاء في الأثر الذي يروى مرفوعاًوموقوفاً للملك بقلب ابن آدم لمة وللشيطان لمة فلمة الملك أيعاد بالخير وتصـديق بالوعـدولمة الشيطان أيعاد بالشر وتكذيب بالحق وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانهوألقى على لسانه القول السديد وإذا أبعد منه وقرب الشيطان من العبد تكلم على لسانه قول الزور والفحش حتي يرى الرجل يتكلم على لسان الملك والرجل يتكلم على لسان الشيطان وفي الحديث ان السكينة تنطق على لسان عمر رضي الله عنه وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجلالصالح فيقول

ماألقاها على لسانك الا الملك ويسمع ضدها فيقول ماألقاها على لسانك الاالشيطان فالملك يلقي في القلب الحق ويلقيه على اللسان والشيطان يلقي الباطل في القلب ويجريه على اللسان فمن عقوبة المعاصي أنها تبعد من العبد وليه الذي سعادته في قربه ومجاورته وموالاته وتدني منه عدوه الذي شقاءه وهلاكه وفساده في قربه وموالاته حتى ان الملك لينافح عن العبد ويرد عنه اذا سفه عليه السفيه وسبه كما اختصم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم رجلان فجعل أحدهما يسب الآخر وهو ساكت فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه فقام النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله لما رددت عليه بعض قوله قمت فقال كان الملك ينافح عنك فلما رددت عليه جاء الشيطان فلم أكن لاجلس واذا دعى العبد المسلم في ظهر الغيب لاخيه أمن الملك على دعائه فقال ولك بمثل ذلك وإذافرغ من قراءة الفاتحة أمن على دعائه فاذا أذنب العبد الموحد المتبع سبيله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم استغفر له حملة العرش ومن حوله وإذا نام العبد المؤمن بات في شعاره ملك فملك المؤمن يرد عليه ويحارب ويدافع عنه ويعلمه ويثبته ويشجعه فلا يليق به أن يسيء جواره ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده فانه ضيفه وجاره وإذا كان إكرام الضيف من الادميين والاحسان إلى الجار من لزوم الايمان وموجباته فما الظن باكرام أكرم الاضياف وخير الجيران وأبرهم وإذا أذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه وقال لاجزاك الله خيراً كما يدعوا له إذا أكرمه بالطاعة والاحسان قال بعض الصحابة رضي الله عنهم إن معكم من لايفارقكم فاستحيوا منهم وأكرموهم والأم ممن لايستحي من الكريم العظيم القادر ولايكرمه ولا يوقره وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون أي استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم وأجلوهم أن يروا منكم ماتستحيون أن يريكم عليه من هو مثلكم والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنوا آدم واذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه وان كان قد يعمل مثل عمله فما الظن باذى الملائكة الكرام الكاتبين والله المستعان

فصل

ومن عقوباتها أنها تستجلب مواد هلاك العبد فى دنياه وآخرته فان الذنوب هي أمراض القلوب متى استحكمت قتلت ولا بد وكما أن البدن لايكون صحيحاً الا بغذاء يحفظ قوته واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والاخلاط الردية التي متي غلبت عليه أفسدته جميعه وحمية يمتنع بها من تناول مايؤذيه ويخشى ضرره فكذلك القلب لاتتم حياته الا بغذاء من

الايمان والاعمال الصالحة تحفظ قوته واستفراغ بالتوبة النصوح يستفرغ المواد الفاسدة والاخلاط الردية منه وحمية توجب له حفظ صحته ويجتنب مايضادها وهي عبارة عن ترك استعمال مايضاد الصحة والتقوى اسم يتناول هذه الامور الثلاثة فما فات منها فات من التقوى بقدره واذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الامور الثلاثة فانها يستجلب المواد المؤذية وتستوجب التخايط المضاد للجميع وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح فانظر الى بدن عليل قد تراكمت عليه الاخلاط ومواد المرض وهو لايستفرغها ولايحتمى لها كيف تكون صحته وبقاؤه ولقد أحسن القائل

جسمك بالحمية أحصنته * مخافة من ألم طاري
وكان أولى بك أن تحتمى * من المعاصي خشية الباري

فمن حفظ القوة بامتثال الأوامر واستعمل الحمية باجتناب النواهي واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح لم يدع للخير مطاياً ولا من الشر مهرباً وبالله المستعان

فصل

فان لم ترعك هذه العقوبات ولم تجد لها تأثيراً في قلبك فاحضره العقوبات الشرعية التي شرعها الله ورسوله على الجرائم كما قطع السارق في ثلاثة دراهم وقطع اليد والرجل على قطع الطريق على معصوم المال والنفس وشق الجلد بالسوط على كلمة قذف بها المحصن أو قطرة خمر يدخلها جوفه وقتل بالحجارة أشنع قتلة في إيلاج الحشفة في فرج حرام وخفف هذه العقوبة عمن لم تتم عليه نعمة الاحصان بمائة جلدة وبنفي سنة عن وطنه وبلده الى بلد الغربة وفرق بين رأس العبد وبدنه اذا وقع على ذات محرم أو ترك الصلاة المفروضة أو تكلم بكلمة كفر وأمر بقتل من وطئ ذكرا مثله وقتل المفعول به وأمر بقتل من أتي بهيمة وقتل البهيمة معه وعزم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة في الجماعة وغير ذلك من العقوبات التي رتبها الله على الجرائم وجعلها بحكمته على حسب الدواعي الى تلك الجرائم وحسب الوازع عنها فما كان الوازع عنها طبعياً وماليس في الطباع داعيا اليه إكتفاء بالتحريم مع التعزير ولم يرتب عليه حداً كأكل الرجيع وشرب الدم وأكل الميتة وما كان في الطباع داعيا اليه ترتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته وبقدر داع الطبع اليه ولهذا لما كان داعي الطباع الى الزناء من أقوى الدواعي كانت من عقوبته العظمى من أشنع القتلات وأعظمها وعقوبته السهلة على أنواع الجلد مع زيادة التعذيب ولما كان اللواطة فيها الامران كان حده القتل بكل حال ولما كان داعي السرقة قويا ومفسدتها كذالك قطع فيها اليد وتأمل حكمته

في إفساد العضو الذى باشربه الجناية كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه ولم يفسد على القاذف لسانه الذي جنابة إذ مفسدة قطعه تزيد على مفسدة الجناية ولايبلغها فاكتفى من ذلك بايلام جميع بدنه بالجلد فان قيل فهلا أفسد على الزاني فرجه الذي باشربه المعصية قيل بوجوه أحدها أن مفسدة ذلك تزيد على مفسدة الجناية إذ فيه قطع النسل وتعرضه للهلاك الثانى أن الفرج عضو مستور لايحصل بقطعه مقصود الحد من الردع والزجر لأمثاله من الجناية بخلاف قطع اليد الثالث انه إذا قطع يده أبقى له يداً أخرى تعوض عنها بخلاف الفرج الرابع ان لذة الزنا عمت جميع البدن فكان الاحسن أن تعم العقوبة جميع البدن وذلك أولى من تخصيصها ببضعة منه فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه وأوفقها للعقل وأقومها بالمصلحة والمقصود ان الذنوب إنما ترتب عليها العقوبات الشرعية والقدرية أو يجمعها الله العبد وقد يرفعها عمن تاب وأحسن

فصل

وعقوبات الذنوب نوعان شرعية وقدرية فاذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبات القدرية أو خففتها ولا يكاد الرب تعالى يجمع على عبده بين العقوبتين الا اذا لم يف أحدهما برفع موجب الذنب ولم يكن في زوال دائه واذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية وربما كانت أشد من الشرعية وربما كانت دونها ولكنها تعم والشرعية تخص فان الرب تبارك وتعالى لايعاقب شرعا الامن باشر الجناية أوتسبب اليها وأما العقوبة القدرية فانها تقع عامة وخاصة فان المعصية إذا خفيت لم تضر إلاصاحبها وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة واذا رأي الناس المنكر فاشتركوا في ترك إنكاره أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه وقد تقدم أن العقوبة الشرعية شرعها الله سبحانه على قدر مفسدة الذنب وتقاضي الطبع لها وجعلها سبحانه ثلاثة أنواع القتل والقطع والجلد وجعل القتل بازاء الكفر ومايليه ويقرب به وهو الزناء واللواطة فان هذا يفسد الاديان وهذا يفسد الانسان قال الامام أحمد رحمه الله لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزناء واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال يارسول الله أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قال قلت ثم أي قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قال قلت ثم أي قال أن تزني بحايلة جارك فانزل تصديقها في كتابه والذين لايدعون مع الله آلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون الآية والنبي صلى الله الله عليه وسلم ذكر كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السأل فانه سئل عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها وما هو أعظم كل نوع

فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله نداً وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه وأعظم أنواع الزناء أن يزني بحليلة جاره فأن مفسدة الزناء تتضاعف بتضاعف ماانتهكه من الحق فالزناء بالمرأة التي لها زوج أعظم إثماً وعقوبة من التي لازوج لها إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه وتعليق نسب عليه لم يكن منه وغير ذلك من أنواع أذاه فهو أعظم اثماً وجرماً من الزناء بغير ذات البعل فان كان زوجها جاراً له انضاف الى ذلك سوء الجوار واذا أجاره بأعلى أنواع الاذى وذلك من أعظم البوائق وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لايدخل الجنة من لايأمن جاره بوائقه ولا بائقه أعظم من الزناء بامرأته فالزناء بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزناء بامرأة الجار فان كان الجار أخاً له أو قريباً من أقاربه إنضم الى ذلك قطيعة الرحم فيتضاعف الاثم فان كان الجار غائباً في طاعة الله كالصلاة وطلب العلم والجهاد وتضاعف الاثم حتى ان الزاني بامرأة الغازي في سبيل الله يوقف له يوم القيامة ويقال خذ من حسناته ما شئت قال النبي صلى الله عليه وسلم فما ظنكم أي ماظنكم أنه يترك له من حسنات قد حكم في أن يأخذ منها ماشاء على شدة الحاجة الى حسنة واحدة حيث لا يترك الأب لابنه ولا الصديق لصديقه حقاً يجب عليه فان اتفق أن تكون المرأة رحماً منه انضاف الى ذلك قطيعة رحمها فان اتفق أن يكون الزاني محصناً كان الاثم أعظم فان كان شيخاً كان أعظم إثماً وهو أحد الثلاثة الذين لايكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم فان اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام أو بلد حرام أو وقت معظم عند الله كاوقات الصلاة وأوقات الاجابة تضاعف الاثم وعلى هذا فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجتها في الاثم والعقوبة والله المستعان

فصل

وجعل سبحانه القطع باذاء افساد الاموال الذي لايمكن الاحتراز منه فان السارق لا يمكن الاحتراز منه لانه يأخذ الاموال في الاختفاء ونقب الدور وتسور من غير الابواب فهو كالسنور والحية التي تدخل عليك من حيث لاتعلم فلم ترفع مفسدة سرقته الى القتل ولا تندفع بالجلد فاحسن مادفعت به مفسدته أبانة العضو الذي تسلط به على الجناية وجعل الجلد بأذاء إفساد العقول وتمزيق الاعراض بالقذف فدارت عقوباته سبحانه الشرعية على هذه الانواع الثلاثة كما دارت الكفارات على ثلاثة أنواع العتق وهو أعلاها والاطعام والصيام ثم جعل سبحانه الذنوب ثلاثة أقسام قسماً فيه الحد فهذا لم يشرع فيه كفارة

اكتفاء بالحد وقسما لم يترتب عليه حد فشرع فيه الكفارة كالوطء في نهار رمضان والوطء في الاحرام والظهار وقتل الخطأ والحنث في اليمين وغير ذلك وقسما لم يترتب عليه حد ولا كفارة وهو نوعان أحدهما ما كان الوازع عنه طبيعياً كأكل العذرة وشرب البول والدم والثاني ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد كالنظرة والقبلة واللمس والمحادثة وسرقة فلس ونحو ذلك وشرع الكفارات في ثلاثة أنواع أحدها ما كان مباح الاصل ثم عرض تحريمه فباشره في الحالة التي عرض فيها التحريم كالوطء في الاحرام والصيام وطرده الوطء في الحيض والنفاس بخلاف الوطء في الدبر ولهذا كان الحاق بعض الفقهاء له بالوطء في الحيض لايصح فانه لايباح في وقت دون وقت فهو بمنزلة التلوط وشرب المسكر النوع الثاني ماعقد لله من نذر أو مالله من يمين أو حرمه الله ثم أراد حله فشرع الله سبحانه حله بالكفارة وسماها تحلة وليست هذه الكفارة ماحية لهتك حرمة الاسم بالحنث كما ظنه بعض الفقهاء فان الحنث قد يكون واجباً وقد يكون مستحباً وقد يكون مباحاً وانما الكفارة حل لما عقده النوع الثالث ماتكون فيه جابرة لما فات ككفارة قتل الخطأ وان لم يكن هناك اثم وكفارة قتل الصيد الخطأ وان لم يكن هناك إثم فان ذلك من باب الجوابر والنوع الاول من باب الزواجر والنوع الوسط من باب التحلة لما منعه العقد ولا يجتمع الحد والتعزير في معصية بل ان كان فيها حد اكتفى به وألا اكتفى بالتعزير ولا يجتمع الحد والكفارة في معصيه بل كل معصية فيها حد فلا كفارة فيها وما فيه كفارة فلا حد فيه وهل يجتمع التعزير والكفارة في المعصية التي لا حد فيها فيه وجهان وهذا كالوطء في الاحرام والصيام ووطء الحائض اذا أوجبنا فيه الكفارة فقيل يجب فيه التعزير لما انتهك من الحرمة بركوب الجناية وقيل لاتعزير في ذلك اكتفاء بالكفارة لانها جابرة وماحية

﴿ فصل ﴾

وأما العقوبات القدرية فهي نوعان نوع على القلوب والنفوس ونوع على الابدان والاموال والتي على القلوب نوعان أحدهما آلام وجودية يضرب بها القلب والثاني قطع المواد التي بها حياته وصلاحه عنه واذا قطعت عنه حصل له اضدادها وعقوبة القلوب أشد العقوبتين وهي أصل عقوبة الابدان وهذه العقوبة تقوى وتتزايد حتى تسري من القلب الى البدن كما يسري ألم البدن الى القلب فاذا فارقت النفس البدن صار الحكم متعلقاً بها فظهرت عقوبة القلب حينئذ وصارت علانية ظاهرة وهي المسماة بعذاب القبر

ونسبته الى البرزخ كنسبة عذاب الابدان الى هذه الدار

فصل

والتي على الابدان أيضاً نوعان نوع في الدنيا ونوع في الآخرة وشدتها ودوامها بحسب مفاسدمارتب عليه في الشدة والخفة فليس في الدنيا والآخرة شرأصلا إلاالذنوب وعقوباتها فالشرإسم لذلك كله وأصله من شرالنفس وسيئات الاعمال وهماالاصلان اللذان كان النبي صلي الله عليه وسلم يستعيذ منها في خطبته بقوله ونعوذ بالله من شرورأنفسنا ومن سيئات أعمالنا وسيئات الاعمال من شرورالنفس فعاد الشركله الى شرالنفس فان سيئات الاعمال من فروعه وثمراته وقد اختلف في معني قوله ومن سيئات أعمالنا هل معناه السيء من أعمالنا فيكون من باب إضافة النوع الى جنسه أويكون بمعني من وقيل معناه من عقوباتها التي تسوء فيكون التقديرومن عقوبات أعمالنا التي تسوءنا ويرجح هذا القول أن الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشر فان شرور الانفس تستلزم الاعمال السيئة وهي تستلزم العقوبات السيئة فنبه بشرور الانفس على ماتقتضيه من قبح الاعمال واكتفي بذكرها منه أوهي أصله ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه وهوالسيئات التي تسوء العبد من عمله من العقوبات والآلام فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشروفروعه وغايته ومقتضاه ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقدرحمته فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الاعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها فانه سبحانه متي وقاهم عمل السيء وقاهم جزاء السيء وإن كان قوله ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته أظهرفي عقوبات الاعمال المطلوب وقايتهم يومئذ فان قيل فقدسألوه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم وهذا هو وقاية العقوبات السيئة فدل على أن المراد السيئة التي سألوا وقايتها الاعمال السيئة ويكون الذي سأله الملائكة نظير ماستعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم ولايرد على هذا قوله يومئذ فان المطلوب وقاية شرور سيئات الاعمال ذلك اليوم وهي سيئات في نفسها قيل وقاية السيئات نوعان أحدهما وقاية فعلها بالتوفيق فلاتصدرمنهوالثاني وقاية جزائها بالمغفرة فلايعاقب عليها فتضمنت الآية .ؤال الامرين والظرف تقييد للجملة الشرطية لاللجملة الطلبية وتأمل ماتضمنه هذا الخبرعن الملائكة من مدحهم بالايمان والعمل الصالح والاحسان الى المؤمنين بالاستغفار لهم وقدموا بين يدي استغفارهم وتوسلهم الى الله سبحانه بسعة علمه وسعة رحمته فسعة علمه يتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة واستيلاء عدوهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم ومازين لهم من الدنيا وزينتها وعلمه بهم إذانشأهم من الارض

وإذهم أجنة في بطون أمهاتهم وعلمه السابق بأنهم لابد أن يعصوه وأنه يحب العفو والمغفرة وغير ذلك من سعة علمه الذي لايحيط به أحد سواه وسعة رحمته تتضمن أنه لايهلك عليه أحد من المؤمنين به من أهل توحيده ومحبته فانه واسع الرحمة لايخرج عن دائرة رحمته إلا الاشقياء ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله وهو صراطه الموصل اليه الذى هو معرفته ومحبته وطاعته فيما أمر وترك مايكره فتابوا مما يكره واتبعوا السبيل الذي يحبها ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنات عدن التي وعدهم بها وهو سبحانه وإن كان لايخلف الميعاد فانه وعدهم بها باسباب من جملتها دعاء الملائكة لهم بان يدخلهم إياها يدخلونها برحمته التي منها أن وفقهم لاعمالها وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة* إنك أنت العزيز الحكيم أي مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك فان العزة كمال القدرة والحكمة كمال العلم وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه وتعالى مايشاء ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب فهاتان الصفتان مصدر الخلق والامر والمقصود أن عقوبات السيئات تتنوع الى عقوبات شرعية وعقوبات قدرية وهي إما في القلب وإما في البدن وإما فيهما وعقوبات في دار البرزخ بعد الموت وعقوبات يوم عود الاجسام في الدار الآخرة فالذنب لايخلو من عقوبة البتة ولكن لجهل العبد لايشعر بما هو فيه من العقوبة لانه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذي لايشعر بالالم فاذا استيقظ وصحي أحس بالمؤلم فترتب العقوبات على الذنوب كترتب الاحراق على النار والكسر على الانكسار والاغتراف على الماء وفساد البدن على السموم والامراض الأسباب الجالبة لها وقد تقارن المضرة للذنب وقد تتأخر عنه إما يسيرا وإما مدة كما يتأخر المرض عن سببه أن يقارنه وكثيراً مايقع الغلط للعبد في هذا المقام ويذنب الذنب فلا يري أثره عقيبه ولا يدري أنه يعمل وعمله على التدريج شيئاً فشيئاً كما تعمل السموم والاشياء الضارة حذو القذة بالقذة فان تدارك العبد نفسه بالادوية والاستفراغ والحمية وإلا فهو صائر إلى الهلاك هذا إذا كان ذنباً واحدا لم يتداركه بما يزيل أثره فكيف بالذنب على الذنب كل يوم وكل ساعة والله المستعان

فصل

فاستحضر بعض العقوبات التي رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب وجوز وصولها اليك واجعل ذلك داعياً للنفس الى هجرانها وأنا أسوق اليك منها طرفا يكفي العاقل مع التصديق ببعضه فمنها الختم على القلوب والاسماع والغشاوة على الابصار والاقفال على القلوب

وجعل الاكنة عليها والرين عليها والطبع عليها وتقليب الافئدة والابصار والحيلولة بين المرأ وقلبه واغفال القلب عن ذكر الرب وإنساء العبد نفسه وترك إرادة الله تطهير القلب وجعل الصدر ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء وصرف القلوب عن الحق وزيادتها مرضا على مرضها وإركاسها وإنكاسها بحيث تبقى منكوسة كما ذكر الامام أحمد عن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه أنه قال القلوب أربعة فقلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أغلف فذلك قلب الكافر وقلب منكوس فذلك قلب المنافق وقلب تمده مادتان مادة إيمان ومادة نفاق وهو لما غلب عليه منهما ومنها التثبط عن الطاعة والابتعاد عنها ومنها جعل القلب أصم لايسمع الحق أبكم لاينطق به أعمى لايراه فيصير النسبة بين القلب وبين الحق الذي لاينفعه غيره كالنسبة بين أذن الاصم والاصوات وعين الاعمى والالوان ولسان الاخرس والكلام وبهذا يعلم أن الصم والبكم والعمى للقلب بالذات والحقيقة والجوارح بالفرض والتبعية فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وليس المراد نفي العمى الحسي عن البصر كيف وقد قال تعالى ليس على الاعمى حرج وقال عبس وتولى أن جاءه الاعمى وإنما المراد أن العمى التام على الحقيقة عمى القلب حتى أن عمى البصر بالنسبة اليه كلاعمى حتى يصح نفيه بالنسبة الى كماله وقوته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ليس الشديد بالصرعة ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب وقوله صلى الله عليه وسلم ليس المسكين بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذى لايسئل الناس ولايفطن له فيتصدق عليه ونظائره كثيرة والمقصود أن من عقوبات المعاصي جعل القلب أعمى أصم أبكم ومنها الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان ومافيه فيخسف به الى أسفل سافلين وصاحبه لايشعر وعلامة الخسف به أنه لايزال جوالا حول السفليات والقاذورات والرذائل كما أن القلب الذى رفعه الله وقربه اليه لايزال جوالا حول البر والخير ومعالي الامور والاعمال والاقوال والاخلاق قال بعض السلف إن هذه القلوب جوالة فمنها مايجول حول العرش ومنها مايجول حول الحشر ومنها مسخ القلب فيمسخ كما تمسخ الصورة فيصير القلب على قلب الحيوان الذي شابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته فمن القلوب مايمسخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به ومنها مايمسخ على خلق كلب أوحمار أوحية أوعقرب وغيرذلك وهذا تأويل سفيان بن عيينة في قوله تعالى وما من دابة في الارض ولاطائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم قال منهم من يكون على أخلاق السباع العادية ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب وأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير ومنهم من يتطوس في ثيابه كما يتطوس الطاووس في ريشه ومنهم من يكون بليد كالحمار ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك ومنهم من يألف ويؤلف كالحمام ومنهم الحقود

كالجمل ومنهم الذى هو خير كله كالغنم ومنهم أشباه الذئاب ومنهم أشباه الثعالب التي يروغ كروغانها وقد شبه الله تعالى أهل الجهل والغي بالحمر تارة وبالكلاب تارة وبالانعام تارة وتقوي هذه المشابهة باطناً حتي تظهر في الصورة الظاهرة ظهوراً خفياً يراه المتفرسون ويظهر في الاعمال ظهوراً يراه كل أحد ولا يزال يقوي حتي تعلو الصورة فتنقلب له الصورة باذن الله وهو المسخ التام فيقلب الله سبحانه وتعالى الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان كما فعل باليهود وأشباههم ويفعل بقوم من هذه الامة ويمسخم قردة وخنازير فسبحان الله كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر وقلب ممسوخ وقلب مخسوف به وكم من مفتون بثناء الناس عليه ومغرور بستر الله عليه ومستدرج بنعم الله عليه وكل هذه عقوبات وإهانة ويظن الجاهل أنها كرامة ومنها مكر الله بالماكر ومخادعته للمخادع واستهزاؤه بالمستهزئ وإزاغته لقلب الزائغ عن الحق ومنها نكس القلب حتى يرى الباطل حقاً والحق باطلا والمعروف منكراً والمنكر معروفاً ويفسد ويرى أنه يصلح ويصد عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعى اليها ويشتري الضلالة بالهدى وهو يرى أنه على الهدى ويتبع هواه وهو يزعم أنه مطيع لمولاه وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلوب ومنها حجاب القلب عن الرب في الدنيا والحجاب الاكبر يوم القيامة كما قال تعالى كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم فيصلوا اليها فيروا مايصلحها ويزكيها وما يفسدها ويشقيها وإن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم فتصل القلوب اليه فتفوز بقربه وكرامته وتقر به عيناً وتطيب به نفساً بل كانت الذنوب حجاباً بينهم وبين قلوبهم وحجاباً بينهم وبين ربهم وخالقهم ومنها المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة قال تعالى ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر ولا ريب أنه من المعيشة الضنك والآية تتناول ماهو أعم منه وإن كانت نكرة في سياق الاثبات فان عمومها من حيث المعني فانه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الاعراض عن ذكره فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه وان تنعم في الدنيا باصناف النعم ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي يقطع القلوب والاماني الباطلة والعذاب الحاضر مافيه وإنما تواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة إن لم ينضم الى ذلك سكر الخمر فسكر هذه الامور أعظم من سكر الخمر فانه يفيق صاحبه ويصحوا وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحوا صاحبه الا إذا سكر في عسكر الاموات فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده ولا تقر العين ولا

يهدي القلب ولا تطمئن النفس الا بإلهها ومعبودها الذي هو حق وكل معبود سواه باطل فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحاً كما قال تعالى من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون فضمن لاهل الايمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء في الدارين ونظير هذا قوله تعالى وللذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ونظيرها قوله تعالى وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعاً حسناً الى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين فان طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة هو النعيم على الحقيقة ولا نسبة لنعيم البدن اليه فقد قال بعض من ذاق هذه اللذة لو علم الملوك وأبناء الملوك مانحن فيه لجلدونا عليه بالسيوف وقال آخر انه يمر بالقلب أوقات أقول فيها إن أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب وقال الآخر ان في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى هذه الجنة بقوله اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة قال حلق الذكر وقال مابين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ولا تظن ان قوله تعالى ان الابرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم يختص بيوم المعاد فقط بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل على موافقته وهل عيش في الحقيقة الا عيش القلب السليم وقد أثنى الله تعالى على خليله عليه السلام بسلامة القلب فقال وإن من شيعته لابراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم وقال حاكياً عنه أنه قال يوم لاينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة فسلم من كل آفة تبعده من الله وسلم من كل شبهة تعارض خبره ومن كل شهوة تعارض أمره وسلم من كل إرادة تزاحم مراده وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا وفي جنة في البرزخ وفي جنة يوم المعاد ولا يتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء من شرك يناقض التوحيد وبدعة تخالف السنة وشهوة تخالف الامر وغفلة تناقض الذكر وهوى يناقض التجريد والاخلاص يعم وهذه الخمسة حجب عن الله وتحت كل واحد منها

أنواع كثيرة تتضمن افراد الاشخاص لاتحصر ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته الى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم فايس العبد أحوج الى شيء منه الى هذه الدعوة وايس شيء أنفع منها فان الصراط المستقيم يتضمن علوماً وإرادة وأعمالا وتروكا ظاهرة وباطنة تجري عليه كل وقت فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد وقد لايعلمها وقد يكون مالا يعلمه أكثر مما يعلمه ومايعلمه قد يقدر عليه وقد لايقدر عليه وهو من الصراط المستقيم وإن عجز عنه ومايقدر عليه قد تريده نفسه وقد لاتريده كسلا وتهاونا أو لقيام مانع وغير ذلك وما تريده قد يفعله وقد لايفعله ومايفعله قد يقوم بشروط الاخلاص وقد لايقوم وما يقوم فيه بشروط الاخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لايقوم وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد صرف قلبه عنه وهذا كله واقع سار في الخلق فمستقل ومستكثر وليس في طباع العبد الهداية الى ذلك كله بل متي وكل الى طباعه حيل بينه وبين ذلك وهذا هو الاركاس الذي أركس الله به المنافقين بذنوبهم فاعادهم الى طباعهم وما خلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم والرب تبارك وتعالى على صراط مستقيم في قضائه وقدره وأمره ونهيه فيهدي من يشاء الى صراط مستقيم بفضله ورحمته وجعل الهداية حيث تصلح ويصرف من يشاء عن صراط مستقيم بعدله وحكمته لعدم صلاحية المحل وذلك موجب صراط المستقيم الذي هو عليه فهو على صراط مستقيم ونصب لعباده من أمره صراطاً مستقيما دعاهم جميعاً اليه حجة منه وعدلا وهدى من يشاء منهم الى سلوكه نعمة منه وفضلا ولم يخرج بهذا العدل وهذا الفضل عن صراطه المستقيم الذي هو عليه فاذا كان يوم القيامة نصب لخلقه صراطاً مستقيما يوصلهم الى جنته ثم صرف عنه من صرف عنه في الدنيا وأقام من أقام في الدنيا وجعل نور المؤمنين به وبرسوله وماجاء به الذي كان في قلوبهم في الدنيا نوراً ظاهراً لهم يسعى بين أيديهم وبايمانهم في ظلمة الحشر وحفظ عليهم نورهم حتي يقطعوه كما حفظ عليهم الايمان حتي لقوه وأطفى نور المنافقين أحوج ما كانوا اليه كما أطفأه من قلوبهم في الدنيا وأقام أعمال العصاة بجنبتي الصراط كلاليب وحسكا تخطفهم كما تخطفهم في الدنيا عن الاستقامة عليه وجعل على قدر سيرهم وسرعتهم اليه في الدنيا ونصب للمؤمنين حوضا يشربون منه بازاء شربهم من شرعه في الدنيا وحرم من الشرب منه هناك من حرم من الشرب من شرعه ودينه ههنا فانظروا الى الآخرة كأنها رأي عين وتأمل حكمة الله سبحانه في الدارين تعلم حينئذ علماً يقيناً لاشك فيه ان الدنيا مزرعة الآخرة وعنوانها وانموذجها وأن منازل الناس فيهما من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم في هذه الدار في الايمان والعمل الصالح وضدها وبالله التوفيق فمن

أعظم عقوبات الذنوب الخروج عن الصراط في الدنيا والآخرة

فصل

ولما كانت الذنوب متفاوتة في درجاتها ومفاسدها تفاوتت عقوباتها في الدنيا والآخرة بحسب تفاوتها ونحن نذكر فيها بعون الله فصلا وجيزا جامعا فنقول أصلها نوعان ترك مأمور وفعل محظور وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه أبوي الجن والانس بهما وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح وباطنا في القلوب وباعتبار متعلقه الى حق الله وحق خلقه وإن كان كل حق لخلقه فهو متضمن لحقه لكن سمى حقاً للخلق لانه يجب بمطالبتهم. ويسقط باسقاطهم ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام ملكية وشيطانية وسبعية وبهيمية لاتخرج عن ذلك فان الذنوب الملكية ان من يتعاطا ما لا يصلح له من صفات الربوبية كالعظمة والكبرياء والجبروت والقهر والعلو والظلم واستعباد الخلق ونحو ذلك ويدخل فى هذا الشرك بالرب تعالى وهو نوعان شرك به في أسمائه وصفاته وجعل آلهة أخري معه وشرك به في معاملته وهذا الثاني قد لايوجب دخول النار وإن أحبط العمل الذي أشرك فيه مع الله غيره وهــذا القسم أعظم أنواع الذنوب ويدخل فيه القول على الله بلا علم فى خلقه وأمره فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله سبحانه ربوبيته وملكيه وجعل له نداً وهذا أعظم الذنوب عند الله ولا ينفع معه عمل

فصل

وأما الشيطانية فالتشبه بالشيطان في الحسد والبغي والغش والغل والخداع والمكر والامر بمعاصي الله وتحسينها والنهى عن طاعة الله وتهجينها والابتداع فى دينه والدعوة الى البدع والضلال وهذا النوع يلى النوع الاول في المفسدة وان كانت مفسدته دونه

فصل

وأما السبعية فذنوب العدوان والغضب وسفك الدماء والتوثب على الضعفاء والعاجزين ويتولد منها أنواع أذى النوع الانساني والجرأة على الظلم والعدوان وأما ذنوب البهيمية فمثل الشرة والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنها يتولد الزنا والسرقة وأكل أموال اليتامى والبخل والشح والجبن والهلع والجزع وغير ذلك وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية ومنه يدخلون الى سائر الاقسام فهو يجرهم اليها بزمام فيدخلون منه الى الذنوب السبعية ثم إلى الشيطانية ثم إلى منازعة الربوبية والشرك في الوحدانية ومن تأمل هذا حق التأمل تبين له ان الذنوب دهليز الشرك والكفر ومنازعة الله ربوبية

﴿ فصل ﴾

وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على أن من الذنوب كبائر وصغائر قال الله تعالى إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وقال تعالى والذين يجتنبون كبائر الاسم والفواحش إلااللمم وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان مكفرات لمابينهن إذا اجتنبت الكبائر وهذه الاعمال المكفرة لها ثلاث درجات أحدها أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الاخلاص فيها والقيام بحقوقها بمنزلة الدواء للضعيف الذى ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية الثانية أن تقاوم الصغائر ولاترتقي الى تكفير شئ من الكبائر الثالثة أن تقوى على تكفير الصغائر وتبقى فيها قوة تكفربها بعض الكبائر فتأمل هذا فانه يزيل عنك إشكالات كثيرة وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال الاأنبئكم باكبر الكبائر قلنا بلى يارسول الله فقال الاشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور وروي في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم اجتنبوا السبع الموبقات قيل وما هن يارسول الله قال الاشراك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل أي الذنب أكبر عند الله قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك قيل ثم أي قال ان تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قيل ثم أي قال أن تزني بحليلة جارك فانزل الله تعالى تصديقها والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولايقتلون النفس التي حرم الله الابالحق ولايزنون الآية واختلف الناس في الكبائر هل لها عدد يحصرها على قولين ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا فى عددها فقال عبد الله بن مسعود هي اربعة وقال عبد الله بن عمر هي سبعة وقال عبد الله بن عمرو ابن العاص هي تسعة وقال غيره هي إحدي عشر وقال آخر هي سبعون وقال أبوا طالب المكى جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة في القلب وهي الشرك بالله والاصرار على المعصية والقنوط من رحمة الله والامن من مكر الله وأربعة في اللسان وهي شهادة الزور وقذف المحصنات واليمين الغموس والسحر وثلاثة في البطن شرب الخمر وأكل مال اليتيم وأكل الربا واثنتان في الفرج وهما الزنا واللواطة واثنان في اليدين وهما القتل والسرقة وواحدة في الرجلين وهي الفرار من الزحف وواحدة تتعلق بجميع الجسد وهي عقوق الوالدين. والذين لم يحصروها بعدد منهم من قال كلما نهى الله عنه في القرآن فهو كبيرة وما نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو صغيرة وقالت طائفة ماااقترن بالنهى عنه وعيد من لعن.

أو غضب أوعقوبة فهو كبيرة ومالم يقرن به من ذلك شيء فهو صغيرة وقيل كلما رتب عليه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة وما لم يرتب عليه لاهذا ولا هذا فهو صغيرة وقيل كلما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة وقيل كلما لعن الله أورسوله فاعله فهو كبيرة وقيل كلما ذكر من أول سورة النساء الى قوله إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم والذين لم يقسموها الى كبائر وصغائر قالوا الذنوب كلها بالنسبة الى الجراءة على الله سبحانه معصيته ومخالفة أمره كبائر فانظر الى من عصى أمره وانتهك محارمه توجب أن تكون الذنوب كلها كبائر وهي مستوية في هذه المفسدة قالوا ويوضح هذا إن الله سبحانه لاتضره الذنوب ولايتأثر بها فلايكون بعضها بالنسبة اليه أكبر من بعض فلم يبق الا مجرد معصيته ومخالفته ولافرق في ذلك بين ذنب وذنب قالوا ويدل عليه أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى ولهذا لو شرب رجل خمرا أو وطأ فرجا حراما وهو لا يعتقد تحريمه لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان أتى باحد المفسدتين وهو الذي يستحق العقوبة دون الاول فدل على ان مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب قالوا ويدل على هذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بامر المطاع ونهيه وإنتهاك حرمته وهذا لافرق فيه بين ذنب وذنب قالوا فلا ينظر العبد الى كبر الذنب وصغره في نفسه ولكن ينظر الى قدر من عصاه وعظمته وانتهاك حرمته بالمعصية وهذا لايفترق فيه الحال بين معصية ومعصية فان ملكا عظيما مطاعاً لو أمر احد مملوكيه أن يذهب في مهم له الى بلد بعيد وأمر آخر ان يذهب في شغل له الى جانب الدار فعصياه وخالفا أمره لكانا في مقته والسقوط من عينه سواء قالوا ولهذا كانت معصية من ترك الحج من مكة وترك الجمعة وهو جار المسجد أقبح عند الله من معصية من تركه من المكان البعيد والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا ولوكان مع رجل مائتا درهم فمنع زكاتها ومع آخر مائتا ألف درهم فمنع زكاتها لايستويا في منع ماوجب على كل واحد منهما ولا يبعد استواؤهما في العقوبة اذا كان كلا منهما مصر على منع زكاة ماله قليلا كان المال أو كثيراً

فصل

وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال إن الله عزوجل أرسل رسله وأنزل كتبه وخلق السموات والارض ليعرف ويعبد ويوحد ويكون الدين كله له والطاعة

كلها له والدعوة له كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وقال تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما إلا بالحق وقال تعالى الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً وقال تعالى جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافي السموات ومافي الارض وأن الله بكل شيء عليم فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والامر ان يعرف بأسمائه وصفاته ويعبد وحده لايشرك به وأن يقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به السموات والارض كما قال تعالى لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل ومن أعظم القسط التوحيد بل هو رأس العدل وقوامه وان الشرك ظلم كما قال تعالى إن الشرك لظلم عظيم فالشرك أظلم الظلم والتوحيد أعدل العدل فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات فتأمل هذا الاصل حق التأمل واعتبر به تفاصيله تعرف به أحكم الحاكمين وأعلم العالمين فيما فرضه على عباده وحرمه عليهم وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود كان أكبر الكبائر على الاطلاق وحرم الله الجنة على كل مشرك وأباح دمه وماله وأهله لاهل التوحيد وان يتخذوهم عبيداً لهم لما تركوا القيام بعبوديته وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملا أو يقبل فيه شفاعة أو يستجيب له في الآخرة دعوة أو يقبل له فيها عثرة فان المشرك أجهل الجاهلين بالله حيث جعل له من خلقه نداً وذلك غاية الجهل به كما أنه غاية الظلم منه وان كان المشرك لم يظلم ربه وانما ظلم نفسه ووقعت مسألة وهي ان المشرك انما قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى أو انه لعظمته لاينبغي الدخول عليه الا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية وإنما قصد تعظيمه وقال إنما أعبد هذه الوسائط لتقربني اليه وتدخلني عليه فهو المقصود وهذه وسائل وشفعاء فلم كان هذا القدر موجب لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ومخلداً في النار وموجبا سفك دماء أصحابه واستباحة حريمهم وأموالهم وترتب على هذا سؤال آخر وهو أنه هل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقرب اليه بالشفعاء والوسائط فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع أم ذلك قبيح في الفطر والعقول يمتنع أن تأتي به شريعة بل جاءت بتقرير ما في الفطر والعقول من قبحه الذي هو أقبح من كل قبيح وما السبب في كونه لايغفره من دون

سائر الذنوب كما قال تعالى إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء فتأمل هذا السؤال واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهونه فان به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين والعالمين بالله والجاهلين وأهل الجنة وأهل النار فنقول وبالله التوفيق والتأييد ومنه نستمد المعونة والتسديد فانه من يهدى الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادى له ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع الشرك شركان شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله وشرك في عبادته ومعاملته وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لاشريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله والشرك الاول نوعان أحدهما شرك التعطيل وهو أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون إذ قال وما رب العالمين وقال تعالى مخبراً عنه أنه قال وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا لعلي أطلع الى اله موسى وإني لأظنه كاذباً فالشرك والتعطيل متلازمان فكل مشرك معطل وكل معطل مشرك لكن لايستلزم أصل التعطيل بل قد يكون المشرك مقرًا بالخالق سبحانه وصفاته ولكن عطل حق التوحيد وأصل الشرك وقاعدته التي ترجع اليها هو التعطيل وهو ثلاثة أقسام تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون ماثم خالق ومخلوق ويقولون ههنا شيئآن بل الحق المنزه وهو عين الخلق المشبه ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته وانه لم يكن معدوماً أصلا بل لم يزل ولا يزال والحوادث باسرها مستندة عندهم الى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها ايسمونها العقول والنفوس ومن هذا شرك من عظيم أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة فلم يثبتوا له اسما ولا صفة بل جعلوا المخلوق أكمل منه إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها

فصل

النوع الثاني شرك من جعل معه إلها آخر ولم يعطل أسماءه وربوبيته وصفاته كشرك النصاري الذي جعلوه ثالث ثلاثة فجعلوا المسيح إلها وأمه إلها ومن هذا شرك المجوس القائلين باسناد حوادث الخير الى النور وحوادث الشر إلى الظلمة ومن هذا شرك القدرية القائلين بان الحيوان هو الذى يخلق أفعال نفسه وانها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته وإرادته ولهذا كانوا من أشباه المجوس ومن هذا شرك الذي حاج ابراهيم في ربه إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحي وأميت فهذا جعل نفسه نداً لله يحي ويميت بزعمه كما يحي

الله ويميت فالزمه ابراهيم عليه السلام ورحمة الله وبركاته ان طرد قولك أن تقدر على الاتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها وليس هذا انتقالا كما زعم بعض أهل الجدل بل الزاما على طرد الدليل إن كان حقا ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ويجعلها أربابا مدبرة لامر هذا العالم كما هو مذهب مشركي الصائبة وغيرهم ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الآله على الحقيقة ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة وأنه إذا خصه بعبادته والتبتل اليه والانقطاع اليه أقبل عليه واعتني به ومنهم من يزعم ان معبودهم الادني يقربه الى المعبود الذي هو فوقه والفوقاني يقربه الى من هو فوقه حتي تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه فتارة تكثر الوسائط وتارة تقل

فصل

وأما الشرك في العبادة فهو أسهل من هذا الشرك وأخف أمرا فانه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع إلا الله وانه لا إله غيره ولا رب سواه ولكن لا يخلص لله في معاملته وعبوديته بل يعمل لحظ نفسه تارة وطلب الدنيا تارة ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة فلله من عمله وسعيه نصيب ولنفسه وحظه وهواه نصيب وللشيطان نصيب وللخلق نصيب هذا حال أكثر الناس وهو الشرك الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن حبان في صحيحه الشرك في هذه الامة أخفي من دبيب النمل قالوا وكيف ننجوا منه يارسول الله قال قل اللهم إني أعوذبك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم فالرياء كله شرك قال تعالى قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلي إنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً أي كما انه إله واحد لا إله سواه فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده فكما تفرد بالالهية يجب أن يفرد بالعبودية فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لاحد فيه شيئاً وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل وقد يعاقب عليه اذا كان العمل واجبا فانه ينزله منزلة من لم يعمله فيعاقب على ترك الامر فان الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة قال تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء فمن لم يخلص لله فى عبادته لم يفعل ما أمر به بل الذي أتي به شيء غير المأمور به فلا يصح ولا يقبل منه ويقول الله تعالى أنا أغني الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك معي فيه غيري فهو للذي أشرك به

وأنا منه بريء وهذا الشرك ينقسم الى مغفور وغير مغفور وأكبر وأصغر والنوع الاول ينقسم الى كبير وأكبر وليس شيء منه مغفور فمنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم بان يحب مخلوقا كما يحب الله فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا الاية وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ومعلوم أنهم ماسووهم به سبحانه في الخلق والرزق والاماتة والاحياء والملك والقدره وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل وهذا غاية الجهل والظلم فكيف يسوي من خلق من التراب برب الارباب وكيف يسوي العبيد بما لك الرقاب وكيف يسوي الفقير بالذات الضعيف بالذات العاجز بالذات المحتاج بالذات الذي ليس له من ذاته الا العدم بالغنى بالذات القادر بالذات الذي غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته فاي ظلم أقبح من هذا وأى حكم أشد جورا منه حيث عدل من لا عدل له بخلقه كما قال تعالى الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون فعدل المشرك من خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة فى السموات ولا في الارض فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه

فصل

ويتبع هذا الشرك الشرك به سبحانه فى الاقوال والافعال والارادات والنيات فالشرك في الافعال كالسجود لغيره والطواف بغير بيته وحلق الرأس عبودية وخضوعا لغيره وتقبيل الاحجار غير الحجر الاسود الذى هو يمين الله في الارض أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها وقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم من اتخذ قبور الانبياء والصالحين مساجد يصلى لله فيها فكيف بمن اتخذ القبور أوثانا يعبدها من دون الله وفي الصحيحين عنه أنه قال لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وفي الصحيح عنه أن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد وفي الصحيح أيضاً عنه أن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فانى أنهاكم عن ذلك وفي مسند الامام أحمد رضى الله عنه وصحيح ابن حبان عنه صلى الله عليه وسلم لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج وقال اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وقال إن من كان قبلكم إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على

قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة فهذا حال من سجد لله في مسجد على قبر فكيف حال من سجد للقبر بنفسه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم لاتجعل قبري وثنا يعبد وقد حمى النبي صلى الله عليه وسلم جانب التوحيد أعظم حماية حتي نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها لئلايكون ذريعة الى التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين وسدالذريعة بان منع الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس وأما السجود لغير الله فقال لاينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا لله ولا ينبغي في كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم للذي هو في غاية الامتناع شرعا كقوله تعالى وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا وقوله وما علمناه الشعر وما ينبغي له وقوله وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي له وقوله عن الملائكة ماكان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء

فصل

ومن الشرك به سبحانه الشرك به في اللفظ كالحلف بغيره كما رواه أحمد وأبوداودعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من حلف بغير الله فقد أشرك وصححه الحاكم وابن حبان ومن ذلك قول القائل للمخلوق ماشاء الله وشئت كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل ماشاء الله وشئت قال أجعلتني لله نداً قل ماشاء الله وحده وهذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله لمن شاء منكم أن يستقيم فكيف من يقول أنامتوكل على الله وعليك وأنا فى حسب الله وحسبك ومالى إلا الله وأنت وهذا من الله ومنك وهذا من بركات الله وبركاتك والله لى في السماء وأنت لي في الارض ويقول والله وحياة فلان أو يقول نذراً لله ولفلان وأنا تائب لله ولفلان أو أرجوا الله وفلانا ونحو ذلك فوازن بين هذه الالفاظ وبين قول القائل ما شاء الله وشئت ثم انظر أيهما أفحش يتبين لك ان قائلها أولى لجواب النبي صلى الله عليه وسلم لقائل تلك الكلمة وانه اذا كان قد جعله نداً لله بها فهذا قد جعل من لايداني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء من الاشياء بل لعله أن يكون من أعدائه نداً لرب العالمين فالسجود والعبادة والتوكل والانابة والتقوى والخشية والتحسب والتوبة والنذر والحلف والتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والاستغفار وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً والطواف بالبيت والدعاء كل ذلك محض حق الله لايصلح ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب ولا نبي مرسل وفي مسند الامام أحمد أن رجلا أتى به الى النبي صلى الله عليه وسلم قد

أذنب ذنباً فلما وقف بين يديه قال اللهم إني أتوب اليك ولاأتوب الى محمد فقال قد عرف الحق لاهله

فصل

وأما الشرك في الارادات والنيات فذلك البحر الذي لاساحل له وقل من ينجو منه فمن أراد بعمله غير وجه الله ونوى شيئاً غير التقرب اليه وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وإرادته والاخلاص أن يخلص لله في أفعاله وأقواله وإرادته ونيته وهذه هي الحنيفية ملة ابراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها وهي حقيقة الاسلام كما قال تعالى ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين وهي ملة ابراهيم عليه السلام التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء

فصل

واذا عرفت هذه المقدمة انفتح لك باب الجواب عن السؤال المذكور فنقول ومن الله وحده نستمد الصواب حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به هذا هو التشبيه في الحقيقة لا اثبات صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فعكس من نكس الله قلبه وأعمى عين بصيرته وأركسه بلبسه الامر وجعل التوحيد تشبيهاً والتشبيه تعظيما وطاعة فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الالهية فان من خصائص الالهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق وجعل من لايملك لنفسه نفعاً ولا ضرا ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا أفضل من غيره تشبيهاً بمن له الامر كله فازمة الامور كلها بيديه ومرجعها اليه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لامانع لما أعطى ولا معطي لما منع بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد وإن أمسكها عنه لم يرسلها اليه أحد فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات ومن خصائص الالهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لانقص فيه بوجه من الوجوه وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والاجلال والخشية والدعاء والرجاء والانابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحب كل ذلك يجب عقلا وشرعا وفطرة أن يكون له وحده ويمتنع عقلا وشرعا وفطرة أن يكون لغيره فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لاشبيه له ولا ند له وذلك أقبح التشبيه وأبطله ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده انه لايغفره مع انه كتب

على نفسه الرحمة ومن خصائص الالهية العبودية التي قامت على ساقين لاقوام لها بدونهما غاية الحب مع غاية الذل هذا تمام العبودية وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الاصلين فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه به في خالص حقه وهذا من المحال أن تأتي به شريعة من الشرائع وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم واحتالتهم عنها ومضى على الفطرة الاولى من سبقت له من الله الحسنى فارسل اليهم رسله وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم فازدادوا بذلك نوراً على نور يهدي الله لنوره من يشاء اذا عرف هذا فمن خصائص الالهية السجود فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به ومنها التوكل فمن توكل على غيره فقد شبهه به ومنها التوبة فمن تاب لغيره فقد شبهه به ومنها الحلف باسمه تعظيما وإجلالا فمن حلف بغيره فقد شبهه به هذا فى جانب التشبيه وأما في جانب التشبه به فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس الى اطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء وتعليق القلب به خوفاً ورجاء والتجاء واستعانة فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان ويذله غاية الذل ويجعله تحت أقدام خلقه وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عزوجل العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبته وإذا كان المصور الذي يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذاباً يوم القيامة لتشبهه بالله في مجرد الصنعة فما الظن بالتشبه بالله في الربوبية والالهية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون يقال لهم أحيوا ماخلقتم وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال قال الله عزوجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقي فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة فنبه بالذرة والشعيرة على ماهو أعظم منهما وأكبر والمقصود ان هذا حال من تشبه به في صنعة صورة فكيف حال من تشبه به في خواص ربوبيته وإلهيته وكذلك من تشبه به في الاسم الذي لاينبغي إلا لله وحده كملك الاملاك وحاكم الحكام ونحوه وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ان أخنع الاسماء عند الله رجل يسمى بشاهان شاه ملك الملوك ولا ملك الا الله وفي لفظ أغيظ رجل على الله رجل يسمي بملك الاملاك فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به في الاسم الذي لاينبغي الاله فهو سبحانه ملك الملوك وحده وهو حاكم الحكام وحده فهو الذي يحكم على الحكام كلهم ويقضي عليهم كلهم لاغيره

﴿ فصل ﴾

إذا تبين هذا فهنا أصل عظيم يكشف سر المسألة وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به فان المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس فظن به ما يناقض أسماؤه وصفاته ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم كما قال تعالى عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فاصبحتم من من الخاسرين وقال تعالى عن خليله ابراهيم إنه قال لقومه ماذا تعبدون أإفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين أي فما ظنكم أي يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره وماذا ظننتم به حين عبدتم معه غيره وما ظننتم باسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك الى عبودية غيره فلو ظننتم به ماهو أهله من أنه بكل شيء عليم وهو على كل شيء قدير وانه غني عن كل ماسواه وكل ماسواه فقير اليه وأنه قائم بالقسط على خلقه وأنه المتفرد بتدبير خلقه لايشرك فيه غيره والعالم بتفاصيل الأمور فلايخفى عليه خافية من خلقه والكافي لهم وحده فلايحتاج الى معين والرحمن بذاته فلايحتاج في رحمته الى من يستعطفه وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء فانهم يحتاج الى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم والي من يعينهم على قضاء حوائجهم والى من يسترحمهم والى من يستعطفهم بالشفاعة فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم فأما القادر على كل شيء الغني عن كل شيء الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء فادخال الوسائط بينه وبين خلقه نقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن سوء وهذا يستحيل ان يشرعه لعباده ويمتنع في العقول والفطر وقبحه مستقر في السليمة فوق كل قبيح يوضح هذا ان العابد معظم لمعبوده متأله خاضع ذليل له ورب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والجلال والتأله والتذلل والخضوع وهذا خالص حقه فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره أو يشرك بينه وبينه فيه ولاسيما الذى جعل شريكه فى حقه هو عبده ومملوكه كما قال تعالى ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم الآية أي إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه سريك له في رزقه فكيف تجعلون لى من عبيدي شركاء فيما أنا به متفرد وهو الالهية التى لاتنبغي لغيري ولا تصح اسوائي فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري ولا عظمني حق عظمتي ولا أفردني بما أنا متفرد به وحدي دون خلقي فماقدر الله حق قدره من عبد معه غيره كما قال تعالى ياأيها الناس ضرب مثلا فاستمعوا له

إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له الى قوله لقوي عزيز فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره من لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره وإن يسلبهم الذباب شيئاً مما عليه لم يقدروا على الاستعاذة منه قال تعالى وما قدروا الله حق قدره والارض جميعاً قبضته يوم القيامة الآية فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه فى عبادته من ليس له شئ من ذلك البتة بل هو أعجز شئ وأضعفه فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل وكذلك ماقدره حق قدره من قال انه لم يرسل الى خلقه رسولا ولا أنزل كتابا بل نسبه الى مالا يليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدي وخلقهم باطلا عبثا وكذا ماقدره حق قدره من نفي حقائق أسمائه الحسني وصفاته العلى فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد ونفى عموم قدرته وتعلقها بافعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم فاخرجها عن قدرته ومشيئته وجعلهم يخلقون لانفسهم مايشاؤن بدون مشيئه الرب فيكون في ملكه مالا يشاء ويشاء مالا يكون فتعالى عن قوله أشباه المجوس علواً كبيراً وكذلك ماقدره حق قدره من قال أنه يعاقب عبده على مالا يفعله عبده ولا له عليه قدرة ولا تأثير له فيه البتة بل هو نفس فعل الرب جل جلاله فيعاقب عبده على فعله فهو سبحانه الذي جبر العبد عليه وجبره على الفعل أعظم من أكراه المخلوق للمخلوق وإذا كان من المستقر في الفطر والعقول إن السيد لو أكره عبده على فعل أو الجأه اليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحاً فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين كيف يجبر العبد على فعل لايكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ولاهو واقع بارادته ولا فعله البتة ثم يعاقب عليه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وقول هؤلاء شر من أشباه قول المجوس والطائفتان ماقدر الله حق قدره وكذلك ماقدره حق قدره من لم يصنه عن نتن ولاحش ولامكان يرغب عن ذكره بل جعله في كل مكان وصانه عن عرشه أن يكون مستويا عليه اليه تصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وتعرج الملائكة والروح وتنزل من عنده وتدبر الامر من السماء الى الارض ثم تعرج اليه فصانه عن استوائه على سرير الملك ثم جعله في كل مكان يأنف الانسان بل غيره من الحيوان أن يكون فيه وما قدر الله حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته ولامن نفي حقيقة حكمته التي هي الغايات المحمودة المقصودة بفعله ولامن نفى حقيقة فعله ولم يجعل له فعلا اختياريا يقوم به بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه فنفى حقيقة مجيئه وإتيانه واستوائه على عرشه وتكليمه موسي من جانب الطور ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه الى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التي نفوها وزعموا أنهم بنفيها قد قدروه حق قدره

وكذلك لم يقدره حق قــدره من جعل له صاحبة وولداً وجعله سبحانه يحل في جميع مخلوقاته أوجعله عين هذا الوجود وكذلك لم يقدره حق قدره من قال إنه رفع أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته وأعلى ذكرهم وجعل الله فيهم الملك والخلافة والعزووضع أولياء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته وأهانهم وأذلهم وضرب عليهم الذل أين ماثقفوا وهذا يتضمن غاية القدح فى جناب الرب تعالي عن قول الرافضة علواً كبيرا وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى في رب العالمين إنه أرسل ملكا ظالما فادعا النبوة لنفسه وكذب على الله وأخذ زمانا طويلا يكذب على الله كل وقت ويقول قال كذا وأمر بكذا ونهى عن كذا وينسخ شرائع أنبيائه ورسله ويستبيح دماء أتباعهم وأموالهم وحريمهم ويقول الله أباح لى ذلك والرب تعالى يظهره ويؤيده ويعليه ويقربه ويجيب دعواته ويمكنه ممن يخالفه ويقيم الادلة على صدقه ولايعاديه أحدالاظفربه فيصدقه بقوله وفعله وتقريره وتحدث أدلة تصديقه شيئاً بعد شئ الي يوم القيامة ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدح والطعن في الرب سبحانه وتعالي وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته تعالى الله عن قول الجاحدين علوا كبيرا فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين كما قال الشاعر

رضيعى لبان ثدى أم تقاسما * باسحم داج عوض لايتفرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال انه يجوز أن يعذب أولياءه ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار النعيم وان كل الامرين بالنسبة اليه وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك فمعناه للخبر لاللمخالفة حكمته وعدله وقد انكر سبحانه في كتابه على من جوز عليه ذلك غاية الانكار وجعل الحكم به من أسوء الاحكام وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم أنه لايحيي الموتى ولايبعث من في القبور ولايجمع الخلق ليوم يجازى المحسن فيه باحسانه والمسيء فيه باساءته ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه ويكرم للمتحملين المشاق في هذه الدار من أجله وفي مرضاته بافضل كرامته ويبين لخلقه الذى يختلفون فيه ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه أمره فعصاه ونهيه فارتكبه وحقه فضيعه وذكره فاهمله وغفل قلبه عنه وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة الله فلله الفضلة من قلبه وعلمه وقوله وعمله وماله وسواه المقدم في ذلك لانه المهم عنده يستخف بنظر الله اليه واطلاعــه عليه وهو في قبضته وناصيته بيده ويعظم نظر المخلوق اليه وإطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه ويستخفي من الناس ولا يستخفي من الله ويخشي الناس ولايخشي الله ويعامل الخلق بافضل ماعنده وما يقدرعليه وإن عامل

الله عامله باهون ماعنده وأحقره و'ن قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة وقد افرغ له قلبه وجوارحه وقدمه على كثير من مصالحه حتي إذا قام في حق ربه ان ساعد القدر قام قياماً لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله وبذل له من ماله مايستحي أن يواجه به مخلوق مثله فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الاجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء فلو جعل له من أقرب الخلق اليه شريكا في ذلك لكان ذلك جراءة وتوثباً على محض حقه واستهانة به وتشريكا بينه وبين غيره فيما لا ينبغي ولا يصلح الا له سبحانه فكيف وإنما أشرك معه أبغض الخلق اليه وأهونهم عليه وأمقتهم عنده وهو عدوه على الحقيقة فانه ماعبد من دون الله الا الشيطان كما قال تعالى ألم أعهد اليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة كما قال تعالى ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون فالشيطان يدعو المشركين الى عبادته ويوهمهم أنه ملك كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون إنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب وهي التي تخاطبهم وتقضي لهم الحوائج ولهذا اذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار فيقع سجودهم له وكذلك عند غروبها وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وانما عبد الشيطان فانه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه ورضيها لهم وأمرهم بها وهذا هو الشيطان الرجيم لعنة الله عليه لا عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيدل هذا كله على قوله تعالى ألم أعهد اليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم فما عبد أحد من بني آدم غير الله كائناً من كان الا وقعت عبادته للشيطان فيستمتع العابد بالمعبود في حصول إغراضه ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع الله الذي هو غاية رضاء الشيطان ولهذا قال تعالى ويوم نحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس أي من إغوائهم وإضلالهم وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ماشاء الله ان ربك حكيم عليم فهذه إشارة لطيفة الى السر الذي لاجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله وانه لا يغفره بغير التوبة منه وإنه يوجب الخلود في النار وانه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده إلهاً غيره كما يستحيل عليه مايناقض أوصاف كماله ونعوت

جلاله وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والالهية والعظمة والاجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك أو يرضي به تعالى الله ذلك علوا كبيرا

فصل

فلما كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذي خلق الله له الخلق أمر لاجله بالامر الذي كان من أكبر الكبائر عند الله وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم فان الله سبحانه خلق الخلق وأنزل الكتاب لتكون الطاعة له وحده والشرك والكبر ينافيان ذلك ولذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر ولا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر

فصل

ويلي ذلك في كبر المفسدة القول على الله بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله ووصفه بضد ماوصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم فهذا أشد شيء منافاة ومناقضة لكمال من له الخلق والامر وقدح في نفس الربوبية وخصائص الرب فان صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم إثماً عند الله فان المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله كما أن من أقر بالملك للملك ولم يجحد ملكه ولا الصفات التي استحق بها الملك لكن جعل معه شريكا في بعض الامور تقرباً اليه خير ممن جحد صفات الملك وما يكون به الملك ملكا هذا أمر مستقر في سائر الفطر والعقول فاين القدح فى صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب اليه بعبادة تلك الواسطة إعظاماً له وإجلالا فداء التعطيل هذا الداء العضال الذي لادواء له ولهذا حكى الله عن امام المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبر به من أن ربه فوق السموات ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الاسباب أسباب السموات فاطلع الى إله موسى وإني لاظنه كاذباً واحتج الشيخ أبو الحسن الاشعري في كتبه على المعطلة بهذه الآية وقد ذكرنا لفظه في غيرهذا الكتاب وهو كتاب اجتماع الجيوش الاسلامية على حرب المعطلة والجهمية في إثبات العلوم والقول على الله بلا علم والشرك متلازمان ولما كانت هذه البدع المضلة جهلا بصفات الله وتكذيباً بما أخبر به عن عن نفسه وأخبر به عنه رسوله صلى الله عليه وسلم عنادا وجهلا كانت من أكبر الكبائر ان قصرت عن الكفر وكانت أحب الى إبليس من كبار الذنوب كما قال بعض السلف البدعة أحب الى إبليس من المعصيه لان المعصيه يتاب منها والبدعة لايتاب منها وقال ابليس لعنه الله أهلكت بني آدم بالذنوب وأهلكوني بلاإله الا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك

ثبتت فيهم الاهواء فهم يذنبون ولا يتوبون لانهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً ومعلوم أن المذنب انما ضرره على نفسه وأماالمبتدع فضرره على النوع وفتنة المبتدع في أصل الدين وفتنة المذنب في الشهوة والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدهم عنه والمذنب ليس كذلك والمبتدع قادح في أوصاف الرب وكماله والمذنب ليس كذلك والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والعاصي ليس كذلك والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه

فصل

ثم لما كان الظلم والعدوان منافيان للعدل الذي قامت به السموات والارض وأرسل الله سبحانه رسله صلى الله عليهم وسلم وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط كان أي الظلم من أكبر الكبائر عند الله وكانت درجته في العظمة بحسب مفسدته في نفسه وكأن قتل الانسان ولده الطفل الصغير الذي لاذنب له وقد جبل الله سبحانه القلوب على محبته ورحمته وعطفها عليه وخص الوالدين من ذلك بمزية ظاهرة وقتله خشية أن يشاركه في مطعمه ومشربه وما له من أقبح الظلم وأشده وكذلك قتله أبويه الذين كانا سبب وجوده وكذلك قتله ذات رحمه وتتفاوت درجات القتل بحسب قبحه وإستحقاق من قتله السعي في إبقائه ونصيحته ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً أو قتله نبي ويليه من قتل إماما عادلا أو عالماً يأمر الناس بالقسط ويدعوهم الى الله سبحانه وينصحهم في دينهم وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمداً الخلود في النار وغضب الجبار ولعنته وإعداد العذاب العظيم له هذا موجب قتل المؤمن عمدا مالم يمنع منه مانع ولا خلاف ان الاسلام الواقع بعد القتل طوعاً واختيارا مانع من نفوذ ذلك الجزاء وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه فيه قولان للسلف والخلف وهما روايتان عن أحمد والذين قالوا لا تمنع التوبة من نفوذه رأوا انه حق لآدمي لم يستوفه في دار الدنيا وخرج منه بظلامته فلا بدأن يستوفى له في دار العدل قالوا فما استوفاه الوارث فانما استوفي محض حقه الذي خيره الله بين استيفائه والعفو عنه وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه وأي استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه وهذا أصح القولين في المسألة أن حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث وهي وجهان لاصحاب الشافعي وأحمد وغيرهما ورأت طائفة أنه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث فان التوبة تهدم ماقبلها والذنب الذي قد جناه قد أقيم عليه حده قالوا وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر وهما أعظم اثما من القتل فكيف تقصر عن محو أثر القتل وقد قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءهم وجعلهم

من خيار عباده ودعا الذين أحرقوا أولياءهم وفتنوهم عن دينهم ودعاهم إلى التوبة وقال تعالى ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا وهذا في حق التائب وهي تتناول الكفر فما دونه قالوا وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة هذا معلوم انتفاؤه في شرع لله وجزائه قالوا وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه ولا يمكن تسليمها إلى المقتول فاقام الشارع وليه مقامه وجعل تسليم النفس اليه كتسليمها إلى المقتول بمنزلة تسليم المال الذي عليه لوارثه فانه يقوم مقام تسليمه للموروث والتحقيق في المسألة أن القتل يتعلق به ثلاثة حقوق حق لله وحق للمظلوم المقتول وحق للولي فاذا سلم القاتل نفسه طوعا واختياراً الى الولى ندما على مافعل وخوفا من الله وتوبة نصوحا يسقط حق الله بالتوبة وحق الولى بالاستيفاء أو الصلح أو العفو وبقي حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ويصلح بينه وبينه فلا يبطل حق هذا ولا تبطل توبة هذا وأما مسألة المال فقد اختلف فيها فقالت طائفة إذا أدي ماعليه من المال الى الوارث فقد بريء من عهدته في الآخرة كما بريء منها في الدنيا وقالت طائفة بل المطالبة لمن ظلمه بأخذه باقية عليه يوم القيامة وهو لم يستدرك ظلامته باخذ وارثه له فانه منعه من انتفاعه به في طول حياته ومات ولم ينتفع به فهذا ظلم لم يستدركه وأنما ينتفع به غيره بادراكه وبنوا هذا على انه لو انتقل من واحد إلى واحد وتعدد الورثة كانت المطالبة للجميع لانه حق كان يجب عليه دفعه الى كل واحد منهم عند كونه هو الوارث وهذا قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد وفصل شيخنا رحمه الله بين الطائفتين فقال إن تمكن الموروث من أخذ ماله والمطالبة به فلم يأخذه حتى مات صارت المطالبة به للوارث في الآخرة كما هي له كذلك في الدنيا وإن لم يتمكن من طلبه وأخذه بل حال بينه وبينه ظلماً وعدوانا فالطلب له في الآخرة وهذا التفصيل من أحسن مايقال فان المال إذا استهلكه الظالم على الموروث وتعذر أخذه منه صار بمنزلة عبده الذى قتله قاتل وداره التي أحرقها غيره وطعامه وشرابه الذى أكله وشربه غيره ومثل هذا إنما تلف على الموروث لاعلى الوارث فحق المطالبة لمن تلف على ملكه فينبغي أن يقال فاذا كان المال عقاراً أو أرضاً أو أعيانا قائمة باقية بعد الموت فهي ملك للوارث يجب على الغاصب دفعها اليه كل وقت وإذا لم تدفع اليه أعيان ماله استحق المطالبة بها عند الله تعالى كما يستحق المطالبة بها في الدنيا وهذا سؤال قوى لامخلص منه إلا بان يقال المطالبة لهما جميعا كما لو غصب مالا مشتركا بين جماعة استحق كل منهم المطالبة بحقه منه وكما لو استولى على وقف مرتب على بطون فابطل حق البطون كلهم منه كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم

ولم يكن بعضهم أولى بها من بعض والله أعلم

فصل

ولما كانت مفسدة القتل هـذه المفسدة قال الله تعالى من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل انه من قتل نفساً بغير نفس أوفساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحياالناس جميعا وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس وقالوا معلوم أن إثم قاتل مائة أعظم إثماً عند الله من إثم قاتل نفس واحدة وإنما أتوا من ظنهم أن التشبيه في مقدار الاثم والعقوبة والقول لم يدل على هذا ولايلزم من تشبيه الشيء بالشيء أخذه بجميع أحكامه وقد قال تعالى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاعشية أوضحاها وقال تعالى كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلاساعة من نهار وذلك لايوجب أن لبثهم في الدنيا إنما كان هذا المقدار وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله أي مع العشاء كما جاء في لفظ آخر وأصرح من هذا قوله من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال فكأنما صام الدهر وقوله صلى الله عليه وسلم من قرأ قل هوالله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن ومعلوم أن ثواب فاعل هذه الاشياء لم يبلغ ثواب المشبه به فيكون قدرها سواء ولوكان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلى الفجر والعشاء في جماعة في قيام الليل منفعة غير التعب والنصب وما أوتي أحد بعد الايمان أفضل من الفهم عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فان قيل ففي أي شيء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة وبين قاتل الناس جميعا قيل في وجوه متعددة أحدها أن كل واحد منهما عاص لله ورسوله صلى الله عليه وسلم مخالف لامره متعرض لعقوبته وكل منهما قد باء بغضب من الله ولعنته واستحقاق الخلود في نار جهنم وأعدلهم عذابا عظيما وإن تفاوتت درجات العذاب فليس إثم من قتل نبياً أو إماما عادلا أوعالماً يأمر الناس بالقسط كمن قتل من لامزية له من آحاد الناس الثاني أنهما سواء في استحقاق ازهاق النفس الثالث أنهما سواء في الجراءة على سفك الدم الحرام فان من قتل نفساً بغير استحقاق بل لمجرد الفساد في الارض ولأخذ ماله فانه يجترى على قتل كل من ظفر به وأمكنه قتله فهو معاد للنوع الانساني ومنها أنه يسمي قاتلا أوفاسقاً أوظالماً أوعاصياً بقتله واحدا كما يسمي كذلك بقتله الناس جميعا ومنها أن الله سبحانه جعل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم وتواصلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له

سائر الجسد بالحمى والسهر فاذا أتلف القاتل عضوا من ذلك الجسد فكأنما أتلف سائر الجسد وآلم جميع أعضائه فمن آذي مؤمناً واحدا فقد آذى جميع المؤمنين وفي أذي جميع المؤمنين أذى جميع الناس كلهم فان الله إنما يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم فايذاء الخفير ايذاء المخفر وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لاتقتل النفس ظلماً بغير حق الا كان على ابن آدم الاول كفل منها لانه أول من سن القتل ولم يجئ هذا الوعيد في أول زان ولا أول سارق ولا أول شارب مسكر وإن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول قاتل لانه أول من سن الشرك ولهذا رأي النبي صلي الله عليه وسلم عمرو بن لحى الخزاعي يعذب أعظم العذاب في النار لانه أول من غير دين ابراهيم عليه السلام وقد قال تعالى ولا تكونوا اول كافر به أي فيقتدي بكم من بعدكم فيكون اثم كفره عليكم وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها وفي جامع الترمذي عن إبن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يجئ المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده واوداجه تشخب دماً يقول يارب سل هذا فيما قتاني فذكروا لابن عباس التوبة فتلى هذه الآية ومن يقتل مؤمناً متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ثم قال مانسخت هذه الآية ولا بدلت وأني له التوبة قال الترمذي هذا حديث حسن وفي صحيح البخاري عن سمرة بن جندب قال أول ماينتن من الانسان بطنه فمن استطاع منكم أن لا يأكل الا طيباً فليفعل ومن استطاع أن لايحول بينه وبين الجنة ملأ كف من دم أهرقه فليفعل وفي جامع الترمذي عن نافع قال نظر عبد الله بن عمر يوماً الى الكعبة فقال ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن عند الله أعظم حرمة منك قال الترمذي هذا حديث حسن وفي صحيح البخاري أيضاً عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لايزال المؤمن في فسحة من دينه مالم يصب دما حراماً وذكر البخاري أيضاً عن ابن عمر قال من ورطات الامور التي لامخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حلة وفي الصحيحين عن أبي هريرة يرفعه سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر وفيهما أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم لاترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض وفى صحيح البخارى عنه صلى الله عليه وسلم من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وان ريحها يوجد مسيرة أربعين عاماً هذه عقوبة قاتل عدو الله إذا كان معاهدا في عهده وأمانه فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن وإذا كانت امرأة قد دخلت النار في هرة حبستها حتي ماتت جوعا وعطشاً فرآها النبي صلى الله عليه وسلم في النار والهرة تخد شها في وجهها وصدرها فكيف عقوبة من حبس مؤمناً حتي مات بغير جرم وفي بعض السنن عنه صلى الله عليه وسلم لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق

فصل

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الانساب وحماية الفروج وصيانة الحرمات وتوقي مايوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته وأخته وأمه وفي ذلك خراب العالم كانت تلي مفسدة القتل في الكبر ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم في سننه كما تقدم قال الامام أحمد ولا أعلم بعد قتل النفس شيئاً أعظم من الزناء وقد أكد سبحانه حرمته بقوله والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولايقتلون النفس التي حرم الله إلابالحق ولايزنون الآية فقرن الزناء بالشرك وقتل النفس وجعل جزاء ذلك الخلود في النار في العذاب المضاعف المهين مالم يرفع العبد وجب ذلك بالتوبة والايمان والعمل الصالح وقد قال تعالى ولاتقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا فاخبر عن فحشه في نفسه وهو القبيح الذى قد تناهاقبحه حتي استقر فحشه في العقول حتي عند كثير من الحيوانات كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الاودي قال رأيت في الجاهلية قردازنا بقردة فاجتمع القرود عليهما فرجوهما حتي ماتا ثم أخبر عن غايته بانه ساء سبيلا فانه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا وسبيل عذاب في الآخرة وخزي ونكال ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال أنه كان فاحشة ومقتاًوساء سبيلا وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه فلاسبيل له الى الفلاح بدونه فقال قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون الى قوله فمن ابتغى وراء ذلك فاؤلئك هم العادون وهذا يتضمن ثلاثة أمور من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين وانه من الملومين ومن العادين ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ووقع في اللوم فقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك ونظير هذا أنه ذم الانسان وأنه خلق هلوعا لايصبر على شرولا خيربل إذامسه الخير منع وبخل وإذا مسه الشرجزع الامن استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه فذكرمنهم الذين هم لفروجهم حافظون إلاعلى أزواجهم أوماملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون وأمرالله تعالى نبيه أن يأمرالمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم وأن يعلمهم أنه مشاهد لاعمالهم مطلع عليها يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الامر بغضه مقدما على حفظ الفرج فان الحوادث مبدأها من النظر كما أن معظم النار مبدأها من مستصغر الشرر ثم تكون نظرة ثم تكون خطرة ثم خطوة ثم خطيئة ولهذا قيل من حفظ هذه الاربعة أحرز دينه اللحظات والخطرات واللفظات والخطوات فينبغي للعبد أن يكون

بواب نفسه على هــذه الابواب الاربعة ويلازم الرباط على ثغورها فمنها يدخل عليه العدو فيجوس خلال الديار ويتبرماعلوا تتبيرا

فصل

وأكثر ماتدخل المعاصي على العبد من هذه الابواب الاربعة فنذكر في كل واحد منها فصلا يليق به فاما اللحظات فهي رائد الشهوة ورسولها وحفظها أصل حفظ الفرج فمن أطلق نظره أورده موارد الهلاك وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ياعلى لاتتبع النظرة النظرة فانما لك الاولى وليست لك الثانية وفي المسند عنه صلى الله عليه وسلم النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره عن محاسن امرأة أوأمرد لله أورث الله فى قلبه حلاوة العبادة الى يوم القيامة هذا معنى الحديث وقال غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وقال إياكم والجلوس على الطرقات قالوا يارسول الله مجالسنا مالنابد منها قال فان كنتم لابد فاعلين فاعطوا الطريق حقه قالوا وما حقه قال غض البصر وكف الاذي ورد السلام والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الانسان فان النظرة تولد خطرة ثم تولد الخطرة فكرة ثم تولد الفكرة شهوة ثم تولد الشهوة إرادة ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة فيقع الفعل ولابد مالم يمنع منه مانع وفي هذا قيل الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم مابعده ولهذا قال الشاعر

كل الحوادث مبداها من النظر * ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت في قلب صاحبها * كمبلغ السهم بين القوس والوتر
والعبد مادام ذا طــرف يقلبه * في أعين العين موقوف على الخطر
يسر مقلتــه ماضر مهجته * لامرحبا بسرور عاد بالضرر

ومن آفاته أنه يورث الحسرات والزفرات والحرقات فيري العبد ماليس قادراً عليه ولاصابرا عنه وهذا من أعظم العذاب أن ترى مالاصبر لك عنه ولاعن بعضه ولاقدرة لك عليه قال الشاعر

وكنت متي أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوماً أتعبتك المنــاظر
رأيت الذى لاكله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وهذا البيت يحتاج الى شرح ومراده أنك تري مالا تصبر عن شيء منه ولاتقدر عليه فان قوله لاكله أنت قادر عليه نفى لقدرته على الكل الذى لاينتفي إلا بنفي القدرة عن كل واحد واحد وكم من مرسل لحظاته فما أقلعت إلا وهو يتشحط بينهن قتيلا كما قيل

ياناظراً ماأقلعت لحظاته * حتى تشحط بينهن قتيلا

ولى من أبيات

ملء السلامة فاغتدت لحظاته * وقفا على طلل يظن جميلا
مازال يتبع أثره لحظاته * حتى تشحط بينهن قتيلا

ومن العجب أن لحظة الناظر سهم لا يصل الي المنظور اليه حتي يتبوء مكانا من قلب الناظر
ولى من قصيدة

يا راميا بسهام اللحظ مجتهدا * أنت القتيل بما ترمي فلا تصب
وباعث الطرف يرتاد الشفاء له * أحبس رسولك لا يأتيك بالعطب

وأعجب من ذلك أن النظرة تجرح القلب جرحا فيتبعها جرح على جرح ثم لا يمنعه ألم الجراحة
من استدعا تكرارها ولى أيضاً في هذا المعنى

مازلت تتبع نظرة في نظرة * في أثر كل مليحة ومليح
وتظن ذاك دواء جرحك وهو في الـ * ـتحقيق تجريح على تجريح
فذبحت طرفك باللحاظ وبالبكا * فالقلب منك ذبيح أي ذبيح

وقد قيل إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات

فصل

وأما الخطرات فشأنها أصعب فانها مبدأ الخير والشر ومنها تتولد الارادات والهمم
والعزائم فمن راعي خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه
له أغلب ومن استهان بالخطرات قادته قهراً إلى الهلكات ولا تزال الخطرات تتردد على القلب
حتى تصير مني باطلة كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد
الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب وأخس الناس همة وأوضعهم نفساً من رضى
من الحقائق بالاماني الكاذبة واستجلبها لنفسه وتحلى بها وهي لعمر الله رؤس من أموال
المفلسين ومتاجر البطالين وهي قوة النفس الفارغة التى قد قنعت من الوصل بزورة الخيال
ومن الحقائق بكواذب الآمال كما قال الشاعر

أماني من سعدى رواء على الظما   سقتنا بها سعداً على ظماء بردا
منى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى   والا فقد عشنا بها زمناً رغدا

وهي أضر شئ على الانسان وتتولد من العجز والكسل وتولد التفريط والاضاعة والحسرة
والندامة والمتمني لما فاته مباشرة الحقيقة بجسمه حول صورتها في قلبه وعانقها وضمها اليه
فقنع بوصال صورة وهمية خالية صورها فكره وذلك لا يجدي عليه شيئاً وانما مثله مثل

الجائع والظمآن يصور في وهمه صورة الطعام والشراب وهو يأكل ويشرب والسكون به الى ذلك واستجلا به يدل على خساسة النفس ووضاعتها وانما شرف النفس وزكاتها وطهارتها وعلوها بأن تنفي عنها كل خطرة لا حقيقة لها ولا ترضى أن يخطرها بباله ويأنف لنفسه منها ثم الخطرات بعد أقسام تدور على أربعة أصول خطرات يستجلب بها العبد منافع دنياه وخطرات يستدفع بها مضار دنياه وخطرات يستجاب بها مصالح آخرته وخطرات يستدفع بها مضار آخرته فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه في هذه الاقسام الاربعة فاذا انحصرت له فيها فما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره واذا تزاحمت عليه الخطرات كتزاحم متعلقاتها قدم الاهم فالاهم الذي يخشى فوته وأخر الذي ليس باهم ولا يخاف فوته بقي قسمان آخران أحدهما مهم لايفوت والثاني غير مهم ولكنه يفوت ففي كل منهما يدعو الى تقديمه فهنا يقع التردد والحيرة فيه فان قدم الاهم خشي فوات مادونه وان قدم مادونه فاته الاشتغال به عن المهم وذلك بأن يعرض له أمران لايمكن الجمع بينهما ولا يحصل أحدهما الا بتفويت الآخر فهو موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة ومن ههنا ارتفع من ارتفع وأنجح من أنجح وخاب من خاب فأكثر من ترى ممن يعظم عقله ومعرفته يؤثر غير المهم الذي لايفوت على المهم الذي يفوت ولا تجد أحداً يسلم من ذلك ولكن مستقل ومستكثر والتحكيم في هذا الباب للقاعدة الكبرى التي يكون عليها مدار الشرع والقدر واليها يرجع الخلق والامر وهي إيثار أكبر المصلحتين وأعلاها وإن فاتت المصلحة التي هي دونها والدخول في أدنى المفسدتين لدفع ماهو أكبر منهما فتفوت مصلحة لتحصيل ماهو أكبر منهما ويرتكب مفسدة لدفع ماهو أعظم منها فخطرات العاقل وفكره لايتجاوز ذلك وبذلك جاءت الشرائع ومصالح الدنيا والآخرة لاتقوم الا على ذلك وأعلى الفكر وأجلها وأنفعها ما كان لله والدار الآخرة فما كان لله فهو أنواع (الاول) الفكرة في آياته المنزلة وتعقلها وفهمها وفهم مراده منها ولذلك أنزلها الله تعالى الا لمجرد تلاوتها بل التلاوة وسيلة قال بعض السلف أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملا (الثاني) الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها والاستدلال بها على أسمائه وصفاته وحكمته واحسانه وبره وجوده وقد حث الله سبحانه عباده على التفكر في آياته وتدبرها وتعقلها وذم الغافل عن ذلك (الثالث) الفكرة في آلائه وإحسانه وإنعامه على خلقه باصناف النعم وسعة مغفرته ورحمته وحلمه وهذه الانواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاءه ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصبغ القلب في المعرفة والمحبة صبغة تامة (الرابع) الفكرة في عيوب النفس وآفاتها وفي عيوب العمل وهذه الفكرة عظيمة النفع وهذا باب

لكل خير وتأثيرها في كسر النفس الامارة بالسوء ومتي كسرت عاشت النفس المطمئنة وانتعشت وصار الحكم لها فحى القلب ودارت كلمته فى مملكته وبث أمراءه وجنوده في مصالحه (الخامس) الفكرة في واجب الوقت ووظيفته وجمع الهم كله عليه فالعارف ابن وقته فان أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها فجميع المصالح انما تنشأ من الوقت فمتى أضاع الوقت لم يستدركه أبداً قال الشافعي رضى الله عنه صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين أحدهما قولهم الوقت سيف فان لم تقطعه قطعك وذكر الكلمة الاخري ونفسك إن أشغلتها بالحق والا اشغلتك بالباطل فوقت الانسان هو عمره في الحقيقة وهو مادة حياة الابدية فى النعيم المقيم ومادة المعيشة الضنك في العذاب الاليم وهو يمر أسرع من مر السحاب فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره وغير ذلك ليس محسوباً من حياته وان عاش فيه عيش البهائم فاذا قطع وقته في الغفلة والشهوة والاماني الباطلة وكان خير ماقطعه بالنوم والبطالة فموت هذا خير له من حياته واذاكان العبد وهو فى الصلاة ليس له من صلاته الا ماعقل منها فايس له من عمره إلا ما كان فيه بالله وله وما عدا هذه الاقسام من الخطرات والفكر فأما وساوس شيطانية وإما أماني باطلة وخدع كاذبة بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السكارى والمحشوشين والموسوسين ولسان حال هؤلاء يقول عند انكشاف الحقائق

إن كان منزلتي فى الحب عندكم * ماقد لقيت فقد ضيعت أيامي
أمنية ظفرت نفسى بها زمنا * واليوم احسبها أضغاث أحلام

وأعلم ان ورود الخاطر لايضر وإنما يضر استدعاؤه ومحادثته فالخاطر كالمار على الطريق فان لم تستدعه وتتركه مر وانصرف عنك وان استدعيته سحرك بحديثه وخدعه وغروره وهو أخف شئ على النفس الفارغة الباطلة وأثقل شئ على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة وقد ركب الله سبحانه فى الانسان نفسين نفساً أمارة ونفسا مطمئنة وهما متعاديتان فكلما خف على هذه ثقل على هذه وكلما التذت به هذه تألمت به الاخري فليس على النفس الامارة أشق من العمل لله وإيثار رضاه على هواها وليس لها أنفع منه وكذا ليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله وأجابة داعي الهوي وليس عليها شئ أضر منه والملك مع هذه عن يمين القلب والشيطان مع تلك عن ميسرة القلب والحروب مستمرة لاتضع أوزارها الا أن تستوفى أجلها من الدنيا والباطل كله يتحيز مع الشيطان والامارة والحق كله يتحيز مع الملك والمطمئنة والحرب دول وسجال والنصر مع الصبر ومن صبر وصابر ورابط واتقى الله فله العاقبة فى الدنيا والآخرة وقد حكم الله تعالى حكما لايبدل أبداً أن

العاقبة للتقوي والعاقبة للمتقين فالقلب لوح فارغ والخواطر نقوش تنقش فيه فكيف يليق بالعاقل أن يكون نقوش لوحه مابين كذب وغرور وخدع وأماني باطلة وسراب لاحقيقة له فأي حكمة وعلم وهدي ينتقش مع هذه النقوش وإذا أراد أن ينقش ذلك فى لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع فى محل مشغول بكتابة مالا منفعة فيه فان لم يفرغ القلب من الخواطر الردية لم يستقر فيه الخواطر النافعة فانها لاتستقر إلا في محل فارغ كما قيل

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوي فصادف قلباً خاليا فتمكنا

ولهذا كثير من أرباب السلوك بنوا سلوكهم على حفظ الخواطر وان لايمكنوا خاطراً يدخل قلوبهم حتي تصير القلوب فارغة قابلة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها وهؤلاء حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء فانهم أخلوا القلوب من أن يطرقها خاطر فبقيت فارغة لاشيء فيها فصادفها الشيطان خالية فبذر فيها الباطل في قوالب وهمهم أنها أعلى الاشياء وأشرفها وعوضهم بها عن الخواطر التي هي مادة العلم والهدي وإذا خلى القلب عن هذه الخواطر جاء الشيطان فوجد المحل خاليا فشغله بما يناسب حال صاحبه حيث لم يستطع أن يشغله بالخواطر السفلية فكيف بالعلوية فشغله بارادة التجريد والفراغ من الارادة التى لاصلاح للعبد ولا فلاح إلا بأن تكون هي المستولية على قلبه وهي إرادة مراد الله الديني الامري الذى يحبه ويرضاه وشغل القلب واهتمامه بمعرفته على التفصيل به والقيام به وتنفيذه في الخلق والتطرق الى ذلك والتوصل اليه بالدخول في الخلق لتنفيذه فيعطلهم الشيطان عن ذلك بأن دعاهم الى تركه وتعطيله من باب الزهد في خواطر الدنيا واسبابها واوهمهم أن كمالهم فى ذلك التجريد والفراغ وهيهات هيهات إنما الكمال فى امتلاء القلب والسر من الخواطر و الارادات والفكر في تحصيل مراضى الرب تعالى من العبد ومن الناس والفكر في طرق ذلك التوصل اليه فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكراً وإرادات لذلك كما إن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكراً وإرادات لحظوظه وهواه أين كانت والله المستعان وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت تتزاحم عليه الخواطر في مرضات الرب تعالى فربما استعملها في صلاته فكان يجهز جيشه وهو في صلاته فيكون قد جمع بين الصلاة والجهاد وهذا من باب تداخل العبادات في العبادة الواحدة وهو من باب عزيز شريف لايدخل منه الا صادق حاذق الطلب متضلع من العلم عالي الهمة بحيث يدخل في عبادة يظفر فيها بعبادات شتي وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

فصل

وأما اللفظات فحفظها بأن لايخرج لفظة ضائعة بل لايتكلم الا فيما يرجو فيه الربح والزيادة

في دينه فاذا أراد ان يتكلم بالكلمة نظر هل فيها ربح أو فائدة أم لا فان لم يكن فيها ربح أمسك عنها وإن كان فيها ربح نظر هل تفوته بها كلمة هي أربح منها فلا يضيعها بهذه وإذا أردت أن تستدل على ما في القلوب فاستدل عليه بحركة اللسان فانه يطلعك على ما في القلب شاء صاحبه أم أبي قال يحيي بن معاذ القلب كالقدور تغلى بما فيها والسنتها مغارفها فانظر الرجل حين يتكلم فان لسانه يغترف لك به مما في قلبه حلو وحامض وعذب وأجاج وغير ذلك ويبين لك طعم قلبه إغتراف لسانه أي كما تطعم بلسانك طعم ما في القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه فتذوق ما في قلبه من لسانه كما تذوق ما في القدر بلسانك وفي حديث أنس المرفوع لا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتي يستقيم لسانه وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال الفم والفرج قال الترمذي حديث حسن صحيح وقد سأل معاذ النبي صلى الله عليه وسلم عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده من النار فاخبره صلى الله عليه وسلم برأسه وعموده وذروة سنامه ثم قال ألا أخبركم بملاك ذلك كله قال بلى يارسول الله فأخذ بلسان نفسه ثم قال كف عليك هذا فقال وإنا لمواخذون بما نتكلم به فقال تكلتك أمك يامعاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم الاحصائد السنتهم قال الترمذي حديث حسن صحيح ومن العجب أن الانسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه حتى يري الرجل يشار اليه بالدين والزهد والعبادة وهو يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب وكم تري من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه تفري في أعراض الاحياء والاموات ولا يبالى مايقول وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر الى مارواه مسلم في صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رجل والله لا يغفر الله لفلان فقال الله عزوجل من ذا الذي يتالى على إني لا أغفر لفلان قد غفرت له وأحبطت عملك فهذا العابد الذي قد عبد الله ما شاء أن يعبده أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك ثم قال أبو هريرة تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات وان العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يهوي بها في نار جهنم وعند مسلم ان العبد ليتكلم بالكلمة مايتبين مافيها يهوي بها في النار أبعد مما بين المغرب والمشرق وعند الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث بلال بن الحارث المزني إن أحدكم

ليتكلم بالكلمة من رضوان الله مايظن أن تبلغ مابلغت فيكتب الله له بها رضوانه الى يوم يلقاه وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله مايظن أن تبلغ مابلغت فيكتب الله له بها سخطه الى يوم يلقاه فكان علقمة يقول كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث وفي جامع الترمذي أيضاً من حديث أنس قال توفي رجل من الصحابة فقال رجل أبشر بالجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لاتدري لعله تكلم فيما لايعنيه أو بخل بما لاينقصه قال حديث حسن وفي لفظ أن غلاما استشهد يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت هنيئاً لك يابني الجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومايدريك لعله كان يتكلم فيما لايعنيه ويمنع مالايضره وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة يرفعه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أوليصمت وفي لفظ لمسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فاذا شهد أمرا فليتكلم بخير أو ليسكت وذكر الترمذي باسناد صحيح عنه صلى الله عليه وسلم من حسن اسلام المرأ تركه مالايعنيه وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت يارسول الله قل لي في الاسلام قولا لاأسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم قال قلت يارسول الله ماأخوف ماتخاف علي فاخذ بلسان نفسه ثم قال هذا والحديث صحيح وعن أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا أمر بمعروف أونهي عن منكر أوذكر الله عزوجل قال الترمذي حديث حسن وفي حديث آخر إذا أصبح العبد فان الاعضاء كلها تكفر اللسان تقول اتق الله فانما نحن بك فاذا استقمت استقمنا وإن أعوججت أوعوججنا وقد كان بعض السلف يحاسب أحدهم نفسه في قوله يوم حار ويوم بارد ولقد روى بعض الاكابر من أهل العلم في النوم بعد موته فسئل عن حاله فقال أنا موقوف على كلمة قلتها قلت ما احوج الناس الى غيث فقيل لي وما يدريك أنا أعلم بمصلحة عبادي وقال بعض الصحابة لخادمه يوما هات لي السفرة نعبث بها ثم قال استغفر الله ماأتكلم بكلمة الا وأنا أخطمها وأزمها الاهذه الكلمة خرجت مني بغير خطام ولا زمام أو كما قال والسير حركات الجوارح حركة اللسان وهي أضرها على العبد واختلف السلف والخلف هل يكتب جميع مايلفظ به أو الخير والشر فقط على قولين اظهرهما الاول وقال بعض السلف كل كلام بن آدم عليه لاله إلا ما كان من ذكر الله وما والاه وكان الصديق رضي الله عنه يمسك بلسانه ويقول هذا أوردني الموارد والكلام أسيرك فاذا خرج من فيك صرت أسيره والله عند لسان كل قائل وما يلفظ من قول الالديه رقيب عتيد وفي اللسان آفتان عظيمتان إن خلص العبد من احداهما لم يخلص من الاخرة آفة الكلام وآفة السكوت وقد

يكون كل منهما أعظم إثما من الاخري في وقتها فالساكت عن الحق شيطان أخرس عاص لله مراء مداهن إذا لم يخف على نفسه والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته فهم بين هذين النوعين وأهل الوسط وهم أهل الصراط المستقيم كفوا ألسنتهم عن الباطل واطلقوها فيما يعود عليهم نفعه فى الآخرة فلا يري أحدهم أنه يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة فضلا أن تضره في آخرته وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله عز وجل وما اتصل به

فصل

واما الخطوات فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجوا ثوابه عند الله تعالى فان لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالقعود عنها خير له ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة يتقرب بها وينويها لله فيقع خطاه قربة وتنقلب عادته عبادة ومباحاته طاعات ولما كانت العثرة عثرتين عثرة الرجل وعثرة اللسان جاءت احدهما قرينة الاخري في قوله تعالى وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم كما جمع بين اللحظات والخطرات في قوله تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور

فصل

وهذا كله ذكرناه مقدمة بين يدي تحريم الفواحش ووجوب حفظ الفرج وقد قال صلى الله عليه وسلم أكثر ما يدخل الناس النار الفم والفرج وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرء مسلم الا باحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة وهذا الحديث في اقتران الزنا بالكفر وقتل النفس نظير الآية التي فى الفرقان ونظير حديث ابن مسعو دبدا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاكثر وقوعا ثم بالذي يليه فالزنا أكثر وقوعا من قتل النفس وقتل النفس أكثر وقوعا من الردة نعوذ بالله منها وأيضا فانه انتقال من الاكبر الى ماهو أكبر منه مفسدة ومفسدة الزنا مناقضة لصلاح العالم فان المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها ونكست رؤسهم بين الناس وإن حملت من الزنا فان قتلت ولدها جمعت بين الزنا والقتل وإن حملته الزوج أدخلت على أهلها وأهله أجنبيا ليس منهم فورثهم وليس منهم ورآهم وخلا بهم وانتسب اليهم وليس منهم إلى غير ذلك من مفاسد زناها وأما زنا الرجل فانه يوجد اختلاط الأنساب أيضاً وإفساد

المرأة المصونة وتعريضها للتلف والفساد ففي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين وان عمرت القبور في البرزخ والنار في الآخرة فكم في الزنا من استحلال محرمات وفوات حقوق ووقوع مظالم ومن خاصيته أنه يوجب الفقر ويقصر العمر ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس ومن خاصيته أيضاً أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته ويجلب الهم والحزن والخوف ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها ولو بلغ العبد أن امرأته أوحرمته قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت وقال سعيد بن عبادة رضي الله عنه لورأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعجبون من غيرة سعد والله لانا أغير منه والله أغير مني ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن متفق عليه وفي الصحيحين أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم إن الله يغار وإن المؤمن يغار وغيرة الله أن يأتي العبد ماحرم عليه وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم لاأحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن ولاأحد أحب اليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ولا أحد أحب اليه المدح من الله من أجل ذلك أثني على نفسه وفي الصحيحين في خطبته صلى الله عليه وسلم في صلاة الكسوف أنه قال ياأمة محمد والله إنه لاأحد أغير من الله أن يزنى عبده أوتزني أمته ياأمة محمد والله لوتعلمون ماأعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ثم رفع يديه فقال اللهم هل بلغت وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقيب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله وظهور الزنا من أمارات خراب العالم وهو من أشراط الساعة كما في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال لاحدثنكم حديثا لايحدثكموه أحد بعدي سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم يقول من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا ويقل الرجال وتكثر النساء حتي يكون لخمسين امرأة القيم الواحد وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنا يغضب الله سبحانه وتعالى ويشتد غضبه فلابد أن يؤثر غضبه في الارض عقوبة قال عبد الله بن مسعود ماظهر الربا والزنا في قرية الاأذن الله باهلا كها ورأي بعض أحبار بنى إسرائيل إبناله يغامز امرأة فقال مهلا يابني فصرع الاب عن سريره فانقطع نخاعه وأسقطت إمرأته وقيل له هكذا غضبك لى لايكون في جنسك خير ابدا وخص سبحانه حد الزنا من بين سائر الحدود بثلاث خصائص أحدها القتل فيه بأشنع القتلات وحيث خففه فجمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة الثاني أنه نهي عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه بحيث تمنعهم من إقامة

الحدعليهم فانه سبحانه من رأفته بهم ورحمته بهم شرع هذه العقوبة فهو أرحم بكم منكم بهم ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة فلا يمنعكم أنتم مايقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره وهذا وإن كان عاما في سائر الحدود ولكن ذكر في حد الزنا خاصة لشدة الحاجة الى ذكره فان الناس لايجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني مايجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم والوقائع والواقع شاهد بذلك فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله عزوجل وسبب هذه الرحمة أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل وفي النفوس أقوى الدواعي إليه والمشارك فيه كثير وأكثر أسبابه العشق والقلوب مجبولة على رحمة العاشق وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليها ولا يستنكر هذا الامر فهو مستقر عند من شاء الله من أشباه الانعام ولقد حكى لنا من ذلك شيء كثير أكثره عن ناقصي العقول والأديان كالخدم والنساء وأيضا فان هذا ذنب غالب مايقع مع التراضي من الجانبين فلا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ماتنفر النفوس منه وفيها شهوة غالبة له فتصور ذلك لنفسها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد وهذا كله من ضعف الايمان وكمال الايمان أن تقوم به قوة يقيم بها أمر الله ورحمة يرحم بها المحدود فيكون موافقا لربه سبحانه في أمره ورحمته * الثالث أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين فلا يكون في خلوة حيث لايراهما أحد وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر وحد الزاني المحصن مشتق من عقوبة الله تعالى لقوم لوط بالقذف بالحجارة وذلك لاشتراك الزنا واللواط في الفحش وفي كل منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره فان فى اللواط من المفاسد مايفوت الحصر والتعداد ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتي فانه يفسد فساداً لايرجي له بعده صلاح أبداً ويذهب خيره كله وتمص الارض ماء الحياء من وجهه فلا يستحي بعد ذلك لا من الله ولا من خلقه وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل مايعمل السم فى البدن وقد اختلف الناس هل يدخل الجنة مفعول به على قولين سمعت شيخ الاسلام رحمه الله يحكيهما والذين قالوا لايدخل الجنة احتجوا بأمور منها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لايدخل الجنة ولد زنا فاذا كان هذا حال ولد الزنا مع انه لاذنب له فى ذلك ولكنه مظنة كل شر وخبث وهو جدير ان لايجيء منه خير أبداً لانه مخلوق من نطفة خبيثة واذا كان الجسد الذي تربى على الحرام النار أولى به فكيف بالجسد المخلوق من النطفة الحرام قالوا والمفعول به شر من ولد الزنا وأخزى وأخبث وأوسخ وهو جدير أن لايوفق لخير وأن يحال بينه وبينه وكلما عمل خيراً قيض الله له مايفسده

عقوبة له وقل أن ترى من كان كذلك في صغره إلا وهو في كبره شر مما كان ولا يوفق لعمل صالح ولا لعلم نافع ولا توبة نصوحا والتحقيق فى هذه المسألة أن يقال إن تاب المبتلى بهذا البلاء وأناب ورزق توبة نصوحا وعملا صالحاً وكان فى كبره خيراً منه فى صغره ويدل سيئاته بحسنات وغسل عار ذلك عنه بانواع الطاعات والقربات وغض بصره وحفظ فرجه عن المحرمات وصدق الله فى معاماته فهذا مغفور له وهو من أهل الجنة فان الله يغفر الذنوب جميعا واذا كانت التوبة تمحو كل ذنب حتى الشرك بالله وقتل أنبيائه وأوليائه والسحر والكفر وغير ذلك فلا تقصر عن محو هذا الذنب وقد استقرت حكمة الله به عدلا وفضلا أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له وقد ضمن الله سبحانه ان تاب من الشرك وقتل النفس والزنا أنه يبدل سيئاته حسنات وهذا حكم عام لكل تائب من ذنب وقد قال تعالى قل ياعبادى الذين اسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد ولكن هذا فى حق التائبين خاصة وأما مفعول به كان فى كبره شراً مما كان في صغره لم يوفق لتوبة نصوحا ولا لعمل صالح ولا استدرك مافات ولا أحيي مامات ولا بدل السيئات بالحسنات فهذا بعيد أن يوفق عند الممات لخاتمة يدخل بها الجنه عقوبة له على عمله فان الله سبحانه وتعالى يعاقب على السيئة بسيئة أخري وتتضاعف عقوبة السيئآت بعضها ببعض كما يثيب على الحسنة بحسنة أخرى فتضاعف الحسنات واذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين وجدتهم يحال بينهم وبين حسن الخاتمة عقوبة لهم على أعمال السيئة قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلي رحمه الله واعلم أن لسوء الخاتمة أعاذنا الله منها أسباب ولها طرق وأبواب أعظمها الانكباب على الدنيا وطلبها والحرص عليها والاعراض عن الأخرى والاقدام والجرأة على معاصي الله عزوجل وربما غلب على الانسان ضرب من الخطيئة ونوع من المعصية وجانب من الاعراض ونصيب من الجرأة والاقدام فملك قلبه وسبي عقله وأطفأ نوره وأرسل عليه حجبه فلم تنفع فيه تذكرة ولا نجعت فيه موعظة فربما جاءه الموت على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد فلم يتبين له المراد ولا علم ما أراد وان كرر عليه الداعي وأعاد قال ويروي أن بعض رجال الناصر نزل به الموت فجعل ابنه يقول له قل لاإله إلا الله فقال الناصر مولاي فأعاد عليه القول فقال مثل ذلك ثم أصابته غشية فلما أفاق قال الناصر مولاي وكان هذا دأبه كلما قيل له قل لاإله الا الله قال الناصر مولاي ثم قال لابنه يافلان الناصر إنما يعرفك بسيفك والقتل القتل ثم مات على ذلك قال عبد الحق رحمه الله وقيل لآخر ممن أعرفه قل لاإله إلا الله فجعل يقول الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا والبستان

الفلاني افعلوا فيه كذا قال وفيما أذن لي أبو طاهر الساجي أن أحدث به عنه أن رجلا نزل
به الموت فقيل له قل لاإله إلا الله فجعل يقول بالفارسية ده يازده تفسيره عشرة باحدى
عشر وقيل لآخر قل لاإله إلا الله فجعل يقول * أين الطريق الى حمام منجاب *
قال وهذا الكلام له قصة وذلك أن رجلا كان واقفاً بازاء داره وكان بابها يشبه
باب هذا الحمام فمرت به جارية لها منظر فقالت أين الطريق الى حمام منجاب فقال هذا
حمام منجاب فدخلت الدار ودخل وراءها فلما رأت نفسها في داره وعلمت أنه قدخدعها
أظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه وقالت خدعة منها له وتحيلا لتتخلص مما أوقعها فيه
وخوفاً من فعل الفاحشة يصلح أن يكون معنا مايطيب به عيشنا وتقربه عيوننا فقال لها
الساعة آتيك بكل ماتريدين وتشتهين وخرج وتركها في الدار ولم يغلقها فاخذ مايصلح
ورجع فوجدها قد خرجت وذهبت ولم تخنه في شيء فهام الرجل وأكثر الذكر لها
وجعل يمشي في الطرق والازقة ويقول

يارب قائلة يوماً وقد تعبت * أين الطريق الى حمام منجاب

فبينا يقول ذلك وإذا بجاريته أجابته من طاق قرنان

هل لا جعلت سريعاً إذ ظفرت بها * حرزاً على الدار أو قفلا على الباب

فازداد هيمانه واشتد هيجانه ولم يزل كذلك حتى كان هذا البيت آخر كلامه من
الدنيا قال ويري أن رجلا عشق شخصاً فاشتد كلفه به وتمكن حبه من قلبه حتى وقع
ألماً به ولزم الفراش بسببه وتمنع ذلك الشخص عليه واشتد نفاره عنه فلم تزل الوسائط
يمشون بينهما حتى وعده أن يعوده فاخبر بذلك البائس ففرح واشتد سروره وانجلى غمه
وجعل ينتظر للميعاد الذي ضربه له فبينا هو كذلك اذ جاءه الساعي بينهما فقال انه وصل
معي الى بعض الطريق ورجع فرغبت اليه وكلمته فقال انه ذكرني وبرح بي ولا أدخل
مداخل الريب ولا أعرض نفسي لمواقع التهم فعاودته فأبى وانصرف فلما سمع البائس
ذلك أسقط في يده وعاد الى أشد مما كان به وبدت عليه علائم الموت فجعل يقول في تلك الحال

أسلم ياراحة العليل * وياشفاء المدنف النحيل

رضاك أشهى الى فؤادى * من رحمة الخالق الجليل

فقلت له يافلان اتق الله قال قد كان فقمت عنه فما جاوزت باب داره حتي سمعت صيحة
الموت فعياذاً بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة ولقد بكي سفيان الثوري ليلة الى الصباح
فلما أصبح قيل له أكل هذا خوفاً من الذنوب فاخذ تبنة من الارض وقال الذنوب أهون
من هذه وإنما أبكي خوفا من الخاتمة وهذا من أعظم الفقه ان يخاف الرجل ان تخدعه

ذنوبه عند الموت فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى وقد ذكر الامام احمد عن أبي الدرداء أنه لما احتضر جعل يغمى عليه ثم يفيق ويقرأ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون فمن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجاباً بينهم وبين الخاتمة الحسنى قال واعلم أن سوء الخاتمة أعاذنا الله تعالى منها لاتكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه ماسمع بهذا ولاعلم به ولله الحمد وإنما تكون لمن له فساد في العقيدة أو اصرار على الكبيرة واقدام على العظائم فربما غلب ذلك عليه حتي نزل به الموت قبل التوبة فيأخذه قبل إصلاح الطوية ويصطلم قبل الانابة فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله قال ويروي أنه كان بمصر رجل يلزم المسجد للأذان والصلاة فيه وعليه بهاء الطاعة ونور العبادة فرقى يوما المنارة على عادته للأذان وكان تحت المنارة دارا لنصراني فاطلع فيها فرأي إبنة صاحب الدار فافتتن بها فترك الأذان ونزل اليها ودخل الدار عليها فقالت له ماشأنك وماتريد قال اريدك قالت لماذا قال قد سلبت لي وأخذت بمجامع قلبي قالت لا اجيبك الى ريبة أبداً قال أتزوجك قالت أنت مسلم وأنا نصرانية وابي لايزوجني منك قال اتنصر قالت ان فعلت افعل فتنصر الرجل ليتزوجها واقام معهم في الدار فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقى الى سطح كان في الدار فسقط منه فمات فلم يظفر بها وفاته دينه

فصل

ولما كانت مفسدة اللواط من اعظم المفاسد كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من اعظم العقوبات وقد اختلف الناس هل هو أغلظ عقوبة من الزنا او الزنا أغلظ عقوبة منه او عقوبتهما سواء على ثلاثة اقوال فذهب ابو بكر الصديق وعلى بن ابي طالب وخالد بن الوليد وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وخالد بن زيد وعبد الله بن معمر والزهرى وربيعة بن أبي عبد الرحمن ومالك واسحق بن راهويه والامام أحمد في أصح الروايتين عنه والشافعي في احد قوليه الى ان عقوبته أغلظ من عقوبة الزنا وعقوبته القتل على كل حال محصناً كان أو غير محصن وذهب عطاء بن أبي رباح والحسن البصرى وسعيد بن المسيب وابراهيم النخعي وقتادة والاوزاعى والشافعي في ظاهر مذهبه والامام أحمد في الرواية الثانية عنه وأبو يوسف ومحمد إلى ان عقوبته وعقوبة الزانى سواء وذهب الحاكم والامام أبو حنفية الي ان عقوبته دون عقوبة الزانى وهى التعزير قالوا لأنه معصية من المعاصى لم يقدر الله ولا رسوله صلى الله عليه وسلم فيه حداً مقدراً فكان

فيه التعزير كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير قالوا ولأنه وطؤ في محل لاتشتهيه الطبائع بل ركبها الله تعالى على النفرة منه حتى الحيوان البهيم فلم يكن فيه حد كوطئ الحمار وغيره قالوا ولأنه لايسمى زانياً لغة ولا شرعا ولا عرفا فلا يدخل في النصوص من الدلالة على حد الزانيين قالوا ولانا رأينا قواعد الشريعة أن المعصية إذا كان الوازع عنها طبعياً اكتفى بذلك الوازع عن الحد واذا كان في الطبائع تقاضيها جعل فيها الحد بحسب اقتضاء الطبائع لها ولهذا جعل الحد في الزنا والسرقة وشرب المسكر دون أكل الميتة والدم ولحم الخنزير قالوا وطرد هذا انه لاحد في وطئ البهيمة ولا الميتة وقد جبل الله تعالى الطبائع على النفرة من وطئ الرجل الرجل أشد نفرة كما جبلها على النفرة من استدعاء الرجل من يطؤه بخلاف الزنا فان الداعى فيه من الجانبين قالوا ولأن أحد النوعين اذا استمتع بشكله لم يجب عليه الحد كالو تساحقت المرأتان واستمتعت كل واحدة منهما بالاخرى قال أصحاب القول الأول وهم جمهور الأمة وحكاه غير واحد إجماعا للصحابة ليس في المعاصى مفسدة أعظم من مفسدة اللواط وهى تلى مفسدة الكفر وربما كانت أعظم من مفسدة القتل كما سنبينه ان شاء الله تعالى قالوا ولم يبتلي الله تعالى بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحداً من العالمين وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أمة غيرهم وجمع عليهم أنواعا من العقوبات من الاهلاك وقلب ديارهم عليهم والخسف بهم ورجمهم بالحجارة من السماء وطمس أعينهم وعذبهم وجعل عذابهم مستمراً فنكل بهم نكالا لم ينكله بامة سواهم وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التى تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عملت عليها وتهرب الملائكة الى أقطار السموات والأرض اذا شاهدوها خشية نزول العذاب على أهلها فيصيبهم معهم وتعج الأرض الى ربها تبارك وتعالى وتكاد الجبال تزول عن أماكنها وقتل المفعول به خير له من وطئه فانه اذا وطأه الرجل قتله قتلا لاترجي الحياة معه بخلاف قتله فانه مظلوم شهيد و ربما ينتفع به في آخرته قالوا والدليل على هذا أن الله سبحانه جعل حد القاتل الى خيرة الولي إن شاء قتل وإن شاء عفى وحتم قتل اللوطي حداً كما أجمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودلت عليه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحة الصريحة التي لامعارض لها بل عليها عمل أصحابه وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم أجمعين وقد ثبت عن خالد بن الوليد أنه وجد في بعض نواحي العرب رجلا ينكح كما تنكح المرأة فكتب الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فاستشار أبو بكر الصديق الصحابة رضي الله عنهم فكان على بن أبي طالب أشدهم قولا فيه فقال مافعل هذا الا أمة من الأمم واحدة وقد علمتم مافعل الله بها أرى أن يحرق بالنار فكتب أبو بكر الى خالد فحرقه وقال عبد الله بن عباس ان ينظر أعلا مافي القرية

فيرمى اللوطى منها منكساً ثم يتبع بالحجارة وأخذ ابن عباس هذا الحد من عقوبة الله للوطية قوم لوط وابن عباس هو الذى روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به رواه أهل السنن وصححه ابن حبان وغيره واحتج الامام أحمد بهذا الحديث واسناده على شرط البخارى قالوا وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لعن الله من عمل عمل قوم لوط لعن الله من عمل عمل قوم لوط لعن الله من عمل عمل قوم لوط ولم تجيء عنه لعنة الزانى ثلاث مرات في حديث واحد وقد لعن جماعة من أهل الكبائر فلم يتجاوز بهم في اللعن مرة واحدة وكرر لعن اللوطية فاكده ثلاث مرات وأطبق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتله لم يختلف منهم فيه رجلان وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله فظن بعض الناس ان ذلك اختلاف منهم فى قتله فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة وهي بينهم مسألة نزاع قالوا ومن تأمل قوله سبحانه ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا وقوله فى اللواط أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين تبين له تفاوت مابينهما فانه سبحانه نكر الفاحشة في الزنا أي هو فاحشة من الفواحش وعرفها في اللواط وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة كما تقول زيد الرجل ونعم الرجل زيد أي تأتون الخصلة التى استقر فحشها عند كل أحد فهي لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها بحيث لاينصرف الاسم الى غيرها وهذا نظير قول فرعون لموسى وفعلت فعلتك التي فعلت أى الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد ثم أكد سبحانه شأن فحشها بانها لم يعملها احد من العالمين قبلهم فقال ماسبقكم بها من احد من العالمين ثم زاد فى التأكيد بان صرح بما تشمئز منه القلوب وتنبو اعنها الاسماع وتنفر منه أشد النفور وهو إتيان الرجل رجلا مثله ينكحه كما ينكح الأنثي فقال أئنكم لتأتون الرجال ثم نبه على استغنائهم عن ذلك وان الحامل لهم عليه ليس الامجرد الشهوة لاالحاجة التي لاجلها مال الذكر الى الانثي من قضاء الوطر ولذة الاستمتاع وحصول المودة والرحمة التي تنسي المرأة لها أبوبها وتذكر بعلها وحصول النسل الذى هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات وتحصين المرأة وقضاء الوطر وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب وقيام الرجال على النساء وخروج أحب الخلق الى الله من جماعهن كالانبياء والاولياء والمؤمنين ومكاثرة النبي صلي الله عليه وسلم الانبياء بامته الى غير ذلك من مصالح النكاح والمفسدة التى في اللواط تقاوم ذلك كله وتربي عليه بما لايمكن حصره وفساده ولايعلم تفصيله الاالله عزوجل ثم أكد سبحانه قبح ذلك بان اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر الله عليها الرجال وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور وهي شهوة النساء دون الذكور فقلبوا الامر وعكسوا الفطرة والطبيعة فاتوا الرجال شهوة من

دون النساء ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم فجعل عاليها سافلها وكذلك قلبوهم ونكسوا في العذاب على رؤسهم ثم أكد سبحانه قبح ذلك بان حكم عليهم بالاسراف وهو مجاوزة الحد فقال بل أنتم قوم مسرفون فتأمل هل جاء مثل ذلك أوقريبا منه في الزنا وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين في غاية القبح فقال إنهم كانوا قوم سوء فاسقين وسماهم مفسدين في قول نبيهم فقال رب انصرني على القوم المفسدين وسماهم ظالمين في قول الملائكة لابراهيم عليه السلام إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات ومن ذمه الله بمثل هذه الذمات ولما جادل فيهم خليله إبراهيم الملائكة وقد أخبروه باهلاكهم فقيل له ياإبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود وتأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاؤا نبيهم لوطاً لما سمعوا بانه قد طرقه أضياف هم من أحسن البشر صورا فأقبل اللوطية اليهم يهرعون فلما رآهم قال لهم ياقوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ففدا أضيافه ببناته يزوجهم بهن خوفا على نفسه وعلى أضيافه من العار الشديد فقال ياقوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد فردوا عليه ولكن رد جبار عنيد لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم مانريد فنفث نبي الله نفثة مصدور وخرجت من قلب مكروب عميد فقال لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد فكشف له رسل الله عن حقيقة الحال وأعلموه إنه ممن ليس يوصل اليهم ولا اليه بسببهم فلا تخف منهم ولا تعبأ بهم وهون عليك فقالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا اليك وبشروه بما جاؤا به من الوعد له ولقومه من الوعيد المصيب فقالوا فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ماأصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب فاستبطأ نبي الله عليه السلام موعد هلاكهم وقال أريد أعجل من هذا فقالت الملائكة أليس الصبح بقريب فوالله ماكان بين إهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه الا مابين السحر وطلوع الفجر وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصولها ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير فبرز المرسوم الذي لايرد من عند الرب الجليل على يدي عبده ورسوله جبرائيل بان يقلبها عليهم كما أخبر به في محكم التنزيل فقال عز من قائل فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل فجعلهم آية للعالمين وموعظة للمتقين ونكالا وسلفا لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين وجعل ديارهم بطريق السالكين إن في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم إن في ذلك لآية للمؤمنين

أخذهم على غرة وهم نائمون وجاءهم بباسه وهم في سكرتهم يعمهون فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون تقلبت على تلك اللذات آلاماً فأصبحوا بها يعذبون

مآرب كانت في الحياة لأهلها * عذابا فصارت فى الممات عذابا

ذهبت اللذات • وأعقبت الحسرات • وانقضت الشهوات • وأورثه الشقوات • تمتعوا قليلا • وعذبوا طويلا • رتعوا مرتعا وخيما • فأعقبهم عذابا أليما • أسكرتهم خمرة تلك الشهوات فما استفاقوا منها إلا فى ديار المعذبين • وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم فى منازل الهالكين • فندموا والله أشد الندامة حين لاينفع الندم • وبكوا على ما أسلفوه بدل الدموع بالدم • فلو رأيت الاعلى والاسفل من هذه الطائفة والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين اطباق الجحيم • وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم • ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون • ذوقوا ما كنتم تكسبون • إصلوها فاصبروا او لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون • ولقد قرب الله سبحانه مسافة العذاب بين هذه الامة وبين إخوانهم فى العمل فقال مخوفا لهم بأعظم الوعيد وماهي من الظالمين ببعيد

فيانا كح الذكران تهنيكم البشرى * فيوم معاد الناس إن لكم أجرا
كلوا واشربوا وازنوا ولوطوا واكثروا * فان لكم زفا الى ناره الكبرى
فاخوانكم قد مهدوا الدار قبلكم * وقالوا الينا عجلوا لكم البشرى
وهانحن أسلاف لكم فى انتظاركم * سيجمعنا الجبار في ناره الكبرى
ولا تحسبوا أن الذين نكحتموا * يغيبون عنكم بل ترونهم جهرى
ويلعن كلا منهم لخليله * ويشقى به المحزون في الكرة الاخرى
يعذب كل منهم بشريكه * كما اشتركا في لذة توجب الوزرى

فصل

في الاجوبة عما إحتج به من جعل عقوبة هذه الفاحشة دون عقوبة الزنا اما قولهم إنها معصية لم يجعل الله فيها حداً معيناً فجوابه من وجوه أحدها إن المبلغ عن الله جعل حد صاحبها القتل حتما وما شرعه رسوله صلى الله عليه وسلم فانما شرعه عن الله فان أردتم ان حدها غير معلوم بالشرع فهو باطل وإن أردتم إنه غير ثابت بنص الكتاب لم يلزم من ذلك إنتفاء حكمه لثبوته بالسنة الثاني إن هذا ينتقض عليكم بالرجم فانه إنما ثبت بالسنة فان قلتم بل ثبت بقرآن نسخ لفظه وبقي حكمه قلنا فينتقض عليكم بحد شارب

الخمر الثالث أن نفي دليل معين لا يلزم نفي مطلق الدليل ولا نفي المدلول فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذي نفيتموه غير مشتق وأما قولكم أنه وطء لا تشتهيه الطباع بل ركب الله الطباع على النفرة منه فهو كوطء الميتة والبهيمة فجوابه من وجوه أحدها أنه قياس فاسد الاعتبار مردود بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماع الصحابة كما تقدم بيانه الثاني أن قياس وطء الامرد الجميل الذي تربي فتنته على كل فتنة على وطء أتان أو إمرأة ميتة من أفسد القياس وهل تعدل ذلك أحد قط بأتان أو بقرة أو ميتة أو يسبي ذلك عقل عاشق أو أسر قلبه أو استولى على فكره ونفسه فليس في القياس أفسد من هذا الثالث أن هذا منتقض بوطء الام والبنت والاخت فان النفرة الطبيعية عنه كاملة مع أن الحد فيه من أغلظ الحدود في أحد القولين وهو القتل بكل حال محصنا كان أو غير محصن وهذه إحدي الروايتين عن الامام أحمد وهو قول إسحاق بن رهويه وجماعة من أهل الحديث وقد روى ابوداود من حديث البراء بن عازب قال لقيت عمي ومعه الراية فقلت له الى أين تريد قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم الى رجل نكح امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه وآخذ ماله قال الترمذي هذا حديث حسن قال الجوزجاني عم البراء اسمه الحارث بن عمرو في سنن أبي داود وابن ماجه من حديث ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من وقع على ذات محرم فاقتلوه ورفع الى الحجاج رجلا اغتصب أخته على نفسها فقال أحبسوه واسألوا من هاهنا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوا عبد الله بن مطرف فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من تخطي حرم المؤمنين نخطوا وسطه بالسيف وفيه دليل على القتل بالتوسيط وهذا دليل مستقل في المسألة وهو أن من لا يباح وطؤه بحال فحد واطئه القتل دليله من وقع على أمه وابنته وكذلك يقال في وطء ذوات المحارم من وطء من لا يباح وطؤه بحال كان حده القتل كاللوطي والتحقيق ان يستدل على المسألتين بالنص والقياس يشهد لصحة كل منهما وقد إتفق المسلمون على أن من زنا بذات محرم فعليه الحد وإنما اختلفوا في صفة الحد هل هو القتل بكل حال أو حده حد الزاني على قولين فذهب الشافعي ومالك وأحمد في إحدى روايتيه إن حده حد الزاني وذهب أحمد وإسحق وجماعة من أهل الحديث الى أن حده القتل بكل حال وكذلك إتفقوا كلهم على أنه لو أصابها باسم النكاح عالماً بالتحريم أنه يحد إلا أبا حنيفة وحده فانه رأي ذلك شبهة مسقطة للحد والمنازعون يقولون اذا أصابها باسم النكاح فقد زاد الجريمة غلظاً وشدة فانه إرتكب محذورين عظيمين محذور العقد ومحذور الوطء فكيف تخفف عنه العقوبة بضم محذور العقد الى محذور الزنا وأما وطء الميتة ففيه قولان للفقهاء وهما في مذهب أحمد وغيره

أحدهما انه يجب به الحد وهو قول الاوزاعي فان فعله أعظم جرما وأكثر ذنباً لانه انضم الى هتك فاحشة حرمة الميتة

﴿ فصل ﴾

وأما وطء البهيمة فللفقهاء فيه ثلثة أقوال أحدها أنه يؤدب ولاحد عليه وهذا قول مالك وأبي حنيفة والشافعي في أحد قوليه وهو قول إسحق والقول الثاني أن حكمه حكم الزاني يجلد إن كان بكراً و يرجم إن كان محصنا وهذا قول الحسن والقول الثالث أن حكمه حكم اللوطي نص عليه أحمد ويخرج على الروايتين في حده هل هو القتل حتما أو هو كالزاني والذين قالوا حده القتل احتجوا بما رواه أبو داود من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه قالوا ولانه وطء لايباح بحال فكان فيه القتل حداً للوطء ومن لم يرد عليه الحد قالوا لم يصح فيه الحديث ولو صح لقلنا به ولم يحل انا مخالفته قال اسمعيل بن سعيد الشالنجي سألت أحمد عن الذي يأتي البهيمة فوقف عندها ولم يثبت حديث عمرو بن أبي عمرو في ذلك أوقال الطحاوي الحديث ضعيف وأيضاً فرواية ابن عباس وقد أفتى بانه لاحد عليه قال أبو داود وهذا يضعف الحديث ولا ريب ان الزاجر الطبعي عن اتيان البهيمة أقوى من الزاجر الطبعي عن التلوط وليس الامران في طباع الناس سواء فالحاق أحدهما بالآخر من أفسد القياس

﴿ فصل ﴾

وأما قياسكم وطء الرجل لمثله على سحاق المرأتين فمن أفسد القياس إذ لا ايلاج هناك وإنما نظير مباشرة الرجل الرجل من غير إيلاج على أنه قد جاء في بعض الاحاديث المرفوعة إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان ولكن لايجب الحد بذلك لعدم الايلاج وإن اطلق عليهما اسم الزنا العام كزنا العين واليد والرجل والفم وإذا ثبت هذا فاجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع غيره ومن ظن أن تلوط الانسان مع مملوكه جائز واحتج على ذلك بقوله تعالى إلا على أزواجهم أوما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين وقاس ذلك على أمته المملوكة فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد فان تاب والا قتل وضرب عنقه وتلوط الانسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره في الاثم والحكم

﴿ فصل ﴾

فان قيل مع هذا كله فهل من دواء لهذا الداء العضال ورقية لهذا السحر القتال وما

الاحتيال لدفع هذا الخيال وهل من طريق قاصد الى التوفيق وهل يمكن السكران بخمرة الهوى أن يفيق وهل يملك العاشق قلبه والعشق قد وصل الى سويدائه وهل للطبيب بعد ذلك حيلة في برئه من سويداه لان لامه لائم التذ بملامه لذكره لمحبوبه وان عذله عاذل أغراه عذله وسار به في طريق مطلوبه ينادي عليه شاهد حاله بلسان مقاله

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي * متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتني فأهنت نفسي جاهدا * مامن يهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم * إذ كان حظي منك حظي منهم
أجد الملامة في هواك لذيذة * حبا لذكرك فليلمني اللوم

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الاول الذي وقع عليه الاستفتاء عليه والداء الذي طلب له الدواء قيل نعم الجواب من أصله وما أنزل الله سبحانه من داء الا وأنزل له دواء علمه من علمه وجهله من جهله والكلام في دواء هذا الداء من طريقين • أحدهما جسم مادته قبل حصولها • والثاني قلعها بعد نزولها وكلاهما يسير على من يسره الله عليه ومتعذر على من لم يعنه الله فان أزمة الامور بيديه وأما الطريق المانع من حصول هذا الداء فامران أحدهما غض البصر كما تقدم فان النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ومن أطلق لحظاته دامت حسراته وفي غض البصر عدة منافع • أحدها أنه إمتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده وليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من إمتثال أوامر ربه تبارك وتعالى وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة الا بتضييع أوامره • الثاني أنه يمنع من وصول أثر السم المسموم الذي لعل فيه هلاكه الى قلبه • الثالث أنه يورث القلب أنسا بالله وجمعية على الله فان إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته ويبعده من الله وليس على العبد شيء أضر من إطلاق البصر فانه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه • الرابع أنه يقوي القلب ويفرحه كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه • الخامس أنه يكسب القلب نوراً كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الامر بغض البصر فقال قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ثم قال أثر ذلك الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح أي مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات اليه من كل جانب كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان فما شئت من بدعة وضلالة واتباع هوى وإجتناب هدى وإعراض عن أسباب السعادة وإشتغال بأسباب الشقاوة فان ذلك انما يكشفه له النور الذي في القلب فاذ

فقد ذلك النور بقي صاحبه كالاعمى الذي يجوس في حنادس الظلام ٠ السادس أنه يورث الفراسة الصادقة التي يميز بها بين المحق والمبطل والصادق والكاذب وكان شاه بن شجاع الكرماني يقول من عمر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة وغض بصره عن المحارم وكف نفسه عن الشهوات واعتاد أكل الحلال لم تخط له فراسة وكان شجاع هذا لاتخطي له فراسة والله سبحانه يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه فاذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بان يطلق نور بصيرته عوضا عن حبسه بصره لله ويفتح له باب العلم والايمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التي انما تنال ببصيرة القلب وضد هذا ماوصف الله به اللوطية من العمه الذي هو ضد البصيرة فقال تعالى لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل وعمه الذي هو فساد البصر فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل وعمه البصيرة يسكر القلب كما قال القائل

سكران سكر هوى وسكر مدامة * ومتى إفاقة من به سكران

﴿ وقال الآخر ﴾

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم * العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه * وإنما يصرع المجنون في الحين

السابع إنه يورث القلب ثباتا وشجاعة وقوة ويجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة وسلطان القدرة والقوة كما في الأثر الذي يخالف هواه يفر الشيطان من ظله وضد هذا تجده في المتبع هواه من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها وما جعل الله سبحانه فيمن عصاه كما قال الحسن إنهم وان طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين فان المعصية لاتفارق رقابهم أبي الله إلا أن يذل من عصاه وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته والذل قرين معصيته فقال تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين وقال تعالى ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين والايمان قول وعمل ظاهر وباطن وقال تعالى من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه أي من كان يريد العزة فيطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح وفي دعاء القنوت انه لايذل من واليت ولا يعز من عاديت ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه وله من العز بحسب طاعته ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه وله من الذل بحسب معصيته الثامن أنه يسد على الشيطان مدخله من القلب فانه يدخل مع النظرة وينفذ معها الى القلب أسرع من نفوذ الهوى في المكان الخالي فيمثل له صورة المنظور اليه ويزينها ويجعلها صنما يعكف عليه القلب ثم يعده ويمنيه ويوقد على القلب نار الشهوة ويلقي عليه حطب المعاصي التي لم

يكن يتوصل اليها بدون تلك الصورة فيصير القلب في اللهب فمن ذلك اللهب تلك الانفاس التي يجد فيها وهج النار وتلك الزفرات والحرقات فان القلب قد أحاطت به النيران بكل جانب فهو في وسطها كالشاة في وسط التنور ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة أن جعل لهم في البرزخ تنور من نار وأودعت أرواحهم فيه الى حشر أجسادهم كما أراها الله نبيه صلى الله عليه وسلم في المنام في الحديث المتفق على صحته التاسع انه يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها وإطلاق البصر يشتت عليه ذلك ويحول عليه بينه وبينها فتنفرط عليه أموره ويقع في اتباع هواه وفي الغفلة عن ذكر ربه قال تعالى لاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا واطلاق النظر يوجب هذه الامور الثلثة بحسبه العاشر أن بين العين والقلب منفذاً أو طريقا يوجب اشتغال أحدهما عن الآخر وإن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده فاذا فسد القلب فسد النظر واذا فسد النظر فسد القلب وكذلك في جانب الصلاح فاذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والاوساخ فلا يصلح لسكني معرفة الله ومحبته والانابة اليه والانس به والسرور بقربه فيه وإنما يسكن فيه اضداد ذلك فهذه اشارة الى بعض فوائد غض البصر تطلعك على ماوراءها

فصل

الثاني اشتغال القلب بما يصده عن ذلك ويحول بينه وبين الوقوع فيه وهو إما خوف مقلق او حب مزعج فمتى خلا القلب من خوف مافواته أضر عليه من حصول هذا المحبوب أو خوف ماحصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب أومحبته ماهو أنفع له وخير له من هذا المحبوب لم يجد بداً وفواته أضر عليه من فوات هذا المحبوب لم يجد بداً من عشق الصور وشرح هذا ان النفس لاتترك محبوبا الا لمحبوب أعلى منه أو خشية مكروه حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب وهذا يحتاج صاحبه الى أمرين ان فقدا أو واحد منهما لم ينتفع بنفسه أحدهما بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه فيؤثر اعلى المحبوبين على أدناهما ويحتمل أدنى المكروهين لتخلص من أعلاهما وهذا خاصة العقل ولا يعد عاقلا من كان بضد ذلك بل قد تكون البهائم أحسن حالا منه الثاني قوة عزم وصبر يتمكن بهما من هذا الفعل والترك فكثير مايعرف الرجل قدر التفاوت ولكن يأتي له ضعف نفسه وهمته وعزيمته على إيثار الانفع من خسته وحرصه ووضاعة نفسه وخسة همته ومثل هذا لاينتفع بنفسه ولا ينتفع به غيره وقد منع الله سبحانه إمامة الدين الا من أهل

الصبر واليقين فقال تعالى وبقوله يهتدي المهتدون وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون وهذا هو الذي ينتفع بعلمه وينتفع به غيره من الناس وضد ذلك لاينتفع بعلمه ولاينتفع بهغيره ومن الناس من ينتفع بعلمه في نفسه ولاينتفع بهغيره فالاول يمشي في نوره ويمشي الناس في نوره والثاني قد طفي نوره فهو يمشي في الظلمات ومن تبعه والثالث يمشي في نوره وحده

فصل

اذا عرفت هذه المقدمة فلا يمكن ان يجتمع في القلب حب المحبوب الاعلى وعشق الصور أبدا بل هما ضدان لايجتمعان بل لا بد إن يخرج أحدهما صاحبه فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الاعلى الذي محبة ماسواه باطلة وعذاب على صاحبها صرفه ذلك عن محبة ماسواه وان أحبه لم يحبه الا لاجله أو لكونه وسيلة له الى محبته او قاطعا له عما يضاد محبته وينقصها والمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب وان لايشرك بينه وبين غيره في محبته واذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار ان يشرك فى محبته غيره ويمقته لذلك ويبعده ولا يحظيه بقربه ويعده كاذبا فى دعوي محبته مع انه ليس أهلا لصرف قوة المحبة اليه فكيف بالحبيب الاعلى الذي لاتنبغي المحبة الا له وحده وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها ووبالا ولهذا لايغفر سبحانه أن يشرك به فى هذه المحبة ويغفر مادون ذلك لمن يشاء فمحبة الصور تفوت محبة ماهو أنفع للعبد منها بل يفوت محبة ماليس له صلاح ولا نعيم ولا حيوة نافعة الا بمحبته وحده فليختر إحدى المحبتين فانهما لايجتمعان في القلب ولا يرتفعان منه بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق الى لقائه إبتلاه بمحبة غيره فيعذبه بها في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة إما يعذبه بمحبة الاوثان أو بمحبة الصلبان أو بمحبة النيران أو بمحبة المردان أو بمحبة النسوان أو بمحبة الاثمان أو بمحبة العشراء والخلان أو بمحبة ماهو دون ذلك مما هو في غاية الحقارة والهوان فالانسان عبد محبوبه كائنا ما كان كما قيل

أنت القتيل بكل من أحببته * فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

فمن لم يكن إلهه مالكه ومولاه كان إلهه هواه قال تعالى أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون

فصل

وخاصيه التعبد الحب مع الخضوع والذل للمحبوب فمن أحب شيئاً وخضع له فقد

تعبد قلبه له بل التعبد آخر مراتب الحب ويقال له التتيم أيضاً فان أول مراتبه العلاقة وسميت علاقة لتعلق الحب بالمحبوب قال الشاعر

وعلقت ليلى وهي ذات تمائم * ولم يبد للاتراب من ثديها ضخم

وقال الآخر

أعلاقة أم الوليد بعد ما * أفنان رأسك كالثغام الابيض

ثم بعدها الصبابة وسميت بذلك لانصباب القلب الى المحبوب قال الشاعر

يشكى المحبون الصبابة ليتني * تحملت مايلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها * فلم يلقها قبلى محب ولا بعدي

ثم الغرام وهو لزوم الحب للقلب لزوماً لاينفك عنه ومنه سمى الغريم غريماً لملازمته صاحبه ومنه قوله تعالى إن عذابها كان غراماً وقد أولع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ في الحب وقل أن تجده في أشعار العرب ثم العشق وهو سفر إفراط المحبة ولهذا لايوصف به الرب تبارك وتعالى ولا يطلق في حقه ثم الشوق وهو سفر القلب الى المحبوب أحث السفر وقد جاء إطلاقها في حق الرب تعالى كما في مسند الامام أحمد من حديث عمار بن ياسر إنه صلا صلاة فاوجز فيها فقيل له في ذلك فقال أما إني دعوت فيها بدعوات كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بهن اللهم إني أسئلك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني اذا كانت الحياة خيرا لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى اللهم إني أسئلك خشيتك في الغيب والشهادة وأسئلك كلمة الحق في الرضاء والغضب وأسئلك القصد في الفقر والغنى وأسئلك نعيما لاينفد وأسئلك قرة عين لاتنقطع وأسئلك الرضاء بعد القضاء وأسئلك برد العيش بعد الموت وأسئلك لذة النظر الى وجهك الكريم وأسئلك الشوق الى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين وفي أثر آخر طال شوق الابرار الى وجهك وأنا الى لقائهم أشد شوقا وهذا هو المعنى الذي عبر عنه صلى الله عليه وسلم بقوله من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالى من كان يرجوا لقاء الله فان أجل الله لآت لما علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه الى لقائه وان قلوبهم لاتهدي دون لقائه ضرب لهم أجلا موعداً للقائه تسكن نفوسهم به وأطيب العيش واللذة على الاطلاق عيش المشتاقين المستأنسين فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة ولا حياة للعبد أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها فهى الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالى من عمل صالحاً من ذكر أو أنثي وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة وليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار والابرار والفجار من طيب المأكل والمشرب والملبس والمنكح

بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه فى ذلك أضعافا مضاعفة وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحا أن يحييه حياة طيبة فهو صادق الوعد الذي لايخلف وعده وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هي واحدة فى مرضات الله ولم يستشعب قلبه بل أقبل على الله واجتمعت إرادته وإنكاره التي كانت منقسمة بكل واد منها شعبة على الله فصار ذكر محبوبه الاعلى وحبه والشوق الى لقائه والانس بقربه وهو المتولى عليه وعليه تدور همومه وإرادته وتصوره بل خطرات قلبه فان سكت سكت بالله وإن نطق نطق بالله وإن سمع فبه يسمع وإن أبصر فبه يبصر وبه يبطش وبه يمشى وبه يتحرك وبه يسكن وبه يحيي وبه يموت وبه يبعث كما فى صحيح البخارى عنـه صلى الله عليه وسـلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال ماتقرب الى عبدى بمثل أداءماافترضت عليه ولايزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتي أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصربه ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها فبي يسمع وبي يبصروبي يبطش وبي يمشى ولئن سألني لاعطينه ولئن استعاذ بي لاعيذنه وما ترددت فى شيء أنافاعله ترددي عن قبض روح عبدي المؤمن من يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه فتضمن هذا الحديث الشريف الالهى الذي حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه والمراد به حصر أسباب محبتـه فى أمرين أداء فرائضه والتقرب اليه بالنوافل وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب مماتقرب اليه المتقربون ثم بعدها النوافل وأن المحب لايزال يكثر من النوافل حتي يصير محبوبا لله فاذا صار محبوبا لله أوجبت محبة الله له محبة منه أخرى فوق المحبة الاولى فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه وملكت عليه روحه ولم يبق فيه سعة لغـير محبوبه البتة فصار ذكر محبوبه وحبه مثله الأعلى مالكا لزمام قلبه مستوليا على روحه إستيلاء المحبوب على محبه الصادق في محبته التي قد اجتمعت قوى حبه كلها له ولا ريب ان هذا المحب ان سمع سمع لمحبوبه وان أبصر أبصر به وان بطش بطش به وان مشي مشي به فهو في قلبه ومعه ومؤنسه وصاحبه فالباء ههنا باء المصاحبة وهى مصاحبة لا نظير لها ولا تدرك بمجرد الاخبار عنها والعلم بها فالمسألة حالية لاعلمية محضة واذا كان المخلوق يجد هذا في محبة المخلوق التي لم يخلق لها ولم يفطر عليها كما قال بعض المحبين

خيالك في عيني وذكرك في فمي * ومثواك فى قلبي فأين تغيب

(وقال الآخر)

وتطلبهم عيني وهم في سوادها * ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعى

ومن عجب أني أحن اليهـم * فأسأل عنهم من لقيت وهم معي

(وهذا ألطف من قول الآخر)

إن قلت غبت فقلبي لا يصدقني * إذ أنت فيـه مكان السر لم تغب
أو قلت ما غبت قال الطرف ذا كذب * فقد تحيرت بين الصدق والكذب

فليس شيء أدني من المحب لمحبوبه وربما تمكنت المحبة حتى يصير فى المحبة أدنى اليه من نفسه بحيث ينسي نفسه ولا ينساه كما قيل

أريد لأنسي ذكره فكأنما * تمثل لي ليـلى بكل سبيل

(وقال الآخر)

يراد من القلب نسيانكم * وتأبي الطباع على الناقل

وخص في الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذكر فان هذه الآلات آلات الادراك وآلات الفعل والسمع والبصر يوردان على القلب الارادة والكراهة ويجلبان اليه الحب والبغض فتستعمل اليد والرجل فاذا كان سمع العبد بالله وبصره به كان محفوظاً في آلات إدراكه فكان محفوظاً في حبه وبغضه فحفظ في بطشه ومشيه وتأمل كيف اكتفي بذكر السمع والبصر واليد والرجل عن اللسان فانه اذا كان ادراك السمع الذى يحصل باختياره تارة وبغير اختياره تارة وكذلك البصر قد يقع بغير الاختيار فجأة وكذلك حركة اليد والرجل التي لابد للعبـد منها فكيف بحركة اللسان التي لا يقع الا بقصد واختيار وقد يستغنى العبد عنها الا حيث أمر بها وأيضاً فانفعال اللسان عن القلب أتم من انفعال سائر الجوارح فانه ترجمانه ورسوله وتأمل كيف حقق تعالى كون العبد به عند سمعه وبصره الذى يبصر به وبطشه ومشيه بقوله كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها تحقيقاً لكونه مع عبده وكون عبده فى إدراكاته بسمعه وبصره وحركته بيديه ورجله وتأمل كيف قال بي يسمع وبي يبصر وبي يبطش ولم يقل فلي يسمع ولى يبصر ولى يبطش وربما يظن الظان ان اللام أولى بهذا الموضع إذ هي أدل على الغاية ووقوع هذه الامور لله وذلك أخص من وقوعها به وهذا من الوهم والغلط إذ ليست الباء ههنا لمجرد الاستعانة فان حركات الابرار والفجار وإدراكاتهم انما هي بمعونة الله لهم وان الباء ههنا للمصاحبة إنما يسمع ويبصر ويبطش ويمشى وأنا صاحبه ومعه كقوله في الحديث الآخر أنا مع عبدى ما ذكرني وتحركت بى شفتاه وهذه المعية هي المعية الخاصة المذكورة في قوله تعالى إن الله معنا وقول النبي صلى الله عليه وسلم ماظنك باثنين الله ثالثهما وقوله تعالى وإن الله لمع المحسنين وقوله إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وقوله واصبروا إن الله مع الصابرين وقوله كلا إن معي ربي سيهدين وقوله تعالى لموسى

وهارون إنني معكما أسمع وأرى فهذه الباء مفيدة بمعني هذا المعية دون اللام ولا يتأتى للعبد الاخلاص والصبر والتوكل ونزوله في منازل العبودية الا بهذه الباء وهذه المعيةفتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق وانقلبت المخاوف في حقه أمانا فبالله يهون كل صعب ويسهل كل عسير ويقرب كل بعيد وبالله تزول الاحزان والهموم والغموم فلا هم مع الله ولاغم مع الله ولا حزن مع الله وحيث يفوت العبد معني هذه الباء فيصير قلبه حينئذ كالحوت إذا فارق الماء يثب وينقلب حتي يعود اليهولما حصلت هذه الموافقة معالعبد لربه تعالى فى محابه حصلت موافقة الرب لعبده فى حوائجه ومطالبه فقال ولئن سئاني لاعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه أى كما وافقني في مرادي بامتثال أوامري والتقرب الى بمحابي فانا أوافقه في رغبته ورهبته فيما يسئاني أن أفعل به ويستعيذني أن يناله مكروه وحقق هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى تردد الرب سبحانه في اماتة عبده ولأنه يكره الموت والرب تعالى يكره مايكره عبدهويكره مساءته فمن هذه الجهة تقتضيانه لايميتهولكن مصلحته في إماتته فانه ماأماته الاليحييه وما أمرضه الا ليصحه وما أفقرهالا ليغنيهوما منعه الا ليعطيه ولم يخرج من الجنة فى صلب أبيه الا ليعيده اليها على أحسن الاحوال ولم يقل لابيهأخرج منهاالا ليعيده اليهافهذا هوالحبيب على الحقيقةلاسواهبل لو كان في كلمنبتشعر لعبد محبة تامة لله لكان بعض مايستحقه على عبده

نقلفؤادكحيثشئتمنالهوى * ما الحب الا للحبيب الاول
كم منزل فى الارض يألفه الفتى * وحنينه أبدا لاول منزل

فصل

ثم التتيم وهوآخر مراتب الحب وهو تعبد المحب لمحبوبه يقال تيمه الحب إذا عبده ومنهتيم الله أي عبدالله وحقيقةالتعبد الذل والخضوع للمحبوب ومنه قولهم طريق معبدأي مذلل قدذللتهالاقدامفالعبدهو الذيذلله الحب والخضوع لمحبوبهولهذاكانتأشرفأحوال العبد ومقاماته في العبودية فلا منزل له أشرف منها وقد ذكر الله سبحانه أكرم الخلق عليه وأحبهم اليه وهو رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالعبودية في أشرف مقاماته وهي مقام الدعوة اليه ومقام التحدي بالنبوة ومقام الاسرى فقال سبحانهوانهلما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداوقال وإن كنتم في ريب مما نزلناعلى عبدنا فأتوا بسورة من مثله وقال سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الىالمسجد الاقصى وفيحديث الشفاعة إذهبوا الى محمد صلىالله عليه وسلم عبد غفر الله له ماتقدم منذنبه وماتأخر

فقال مقام الشفاعة بكمال عبوديته وكمال مغفرة الله له والله سبحانه خالق الخلق لعبادته وحده لاشريك له التي هي أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع والذل وهذاهو حقيقة الاسلام وملة ابراهيم التي من رغب عنها فقد سفه نفسه قال تعالى ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه الآيه ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك والله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء واصل الشرك بالله الا شراك مع الله في المحبة - كما قال تعالى ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله وأخبر سبحانه إن من الناس من يشرك به من دونه فيتخذالانداد من دونه يحبهم كحب الله وأخبران الذين آمنوا أشد حبا لله من أصحاب الانداد لانداءهم وقيل بل المعني انهم أشد حبا لله من أصحاب الانداد لله فانهم وان أحبوا الله لكن لما أشركوا بينه وبين اندادهم في المحبة ضعفت محبتهم لله والموحدون لله لما خلصت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك والعدل برب العالمين والتسوية بينه وبين الانداد هو في هذه المحبة ولما كان مراد الله من خلقه هو خلوص هذه المحبة له أنكر على من اتخذ من دونه وليا او شفيعاغاية الانكار وجمع ذلك تارة وأفر واحدهما عن الآخر تارة بالانكار فقال تعالى إن ربكم الله الذى خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الامر مامن شفيع الا من بعد اذنه وقال تعالى ألله الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون وقال تعالى وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون وقال فى الافراد أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لايملكون شيئاً ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعاً وقال تعالى من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم فاذا والى العبد ربه وحده وأقام له ولياً من شفعاء وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه في الله بخلاف من اتخذ مخلوقا أولياء من دون الله فهذا لون وذاك لون والشفاعة الشركيه الباطلة لون والشفاعة الحق الثابتة التي انما تنال بالتوحيد لون وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الشرك بالله والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم والمقصود ان حقيقة العبودية وموجباته لاتخاص مع الاشراك بالله في المحبة بخلاف المحبة لله فانها من لوازم العبودية وموجباتها فان محبة الرسول صلى الله عليه وسلم بل تقديمه في الحب على الانفس وعلى الآباء والابناء لايتم الايمان الا بها اذ محبته من محبة الله وكذلك كل حب في الله ولله كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان وفي لفظ في الصحيح لايجد عبد طعم الايمان

الا من كان في قلبه ثلاث خصال أن يكون الله ورسوله أحب اليه مماسواهماوان يحب المرأ لايحبه الا لله وان يكره أن يرجع الى الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار وفي الحديث الذي في السنن من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان وفي حديث آخر ماتحاب رجلان في الله الا كان أفضلهما أشدهما حباً لصاحبه فان هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها وكل ما كانت أقوى كان أصلها كذلك

فصل

وههنا أربعة أنواع من الحب يجب التفريق بينهما وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينهما أحدها محبة الله ولاتكفي وحدها في النجاة من الله من عذابه والفوز بثوابه فان المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله الثاني محبة مايحب الله وهذه هي التي تدخله في الاسلام وتخرجه من الكفر وأحب الناس الى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها الثالث الحب لله وفيه وهي من لوازم محبة ما يحب الله ولا يستقيم محبة مايحب الله الا بالحب فيه وله الرابع المحبة مع الله وهى المحبة الشركية وكل من أحب شيئاً مع الله لالله ولا من أجله ولافيه فقد اتخذه نداً من دون الله وهذه محبة المشركين وبقى قسم خامس ليس مما نحن فيه وهى المحبة الطبيعية وهي ميل الانسان الى مايلائم طبعه كمحبة العطشان للماء والجائع للطعام ومحبة النوم والزوجة والولد فتلك لاتذم الا إن ألهت عن ذكر الله وشغلته عن محبته كما قال تعالى ياأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله وقال تعالى رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله

فصل

ثم الخلة وهي تتضمن كمال المحبة ونهايتها بحيث لايبقى في القلب لمحبه سعة لغير محبوبه وهي منصب لايقبل المشاركة بوجه وهذا المنصب خاصة للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما إبراهيم ومحمد كما قال صلى الله عليه وسلم إن الله إتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم لو كنت متخذاً من أهل الارض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله وفي حديث آخر اني أبرئ الى كل خليل من خلته ولما سأل ابراهيم عليه السلام الولد فاعطيه فتعلق حبه بقلبه فاخذ منه شعبه غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره فامر بذبحه وكان الامر في المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحانا ولم يكن المقصود ذبح الولد ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب فاما بادر الخليل عليه الصلات والسلام الى الامتثال وقدم

محبة الله على محبة ولده حصل المقصود فرفع الذبح وفدى بذبح عظيم فان الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأساً بل لابد أن يبقى بعضه أو بدله كما أبقى شريعة الفداء وكما أبقى استحباب الصدقة عند المناجاة وكما أبقى الخمس صلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها وقال لايبدل القول لدى خمس في الفعل وخمسون في الاجر

فصل

وأما مايظنه بعض الظانين ان المحبة أكمل من الخلة وان إبراهيم خليل الله ومحمد صلى الله عليه وسلم حبيب الله فمن جهله فان المحبة عامة والخلة خاصة والخلة نهاية المحبة وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان الله اتخذ إبراهيم خليلا ونفى أن يكون له خليل غير ربه مع اخباره لحبه لعائشة ولابيها ولعمر بن الخطاب وغيرهم وأيضاً فان الله سبحانه يحب التوابين ويحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب المتقين ويحب المقسطين وخلته خاصة بالخليلين عليهما الصلاة والسلام والشاب التائب حبيب الله وإنما هذا عن قلة العلم والفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم

فصل

وقد تقدم أن العبد لايترك مايحب ويهواه إلا لما يحبه ويهواه ولكن يترك أضعفهما محبة لاقواهما محبة كما انه يفعل مايكره لحصول مامحبته أقوي عنده من كراهة مايفعله والخلاص من مكروه كراهته عنده أقوي من كراهة مايفعله وتقدم ان خاصية العقل إيثار على المحبوبين على أدناهما وأيسر المكروهين على أقواهما وتقدم ان هذا الكمال قوة الحب والبغض ولم يتم له هذا إلا بامرين قوة الادراك وشجاعة القلب فان التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكون اما بضعف الادراك بحيث إن لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه على ما كان عليه إما لضعف في النفس وعجز في القلب لايطاوعه الايثار الا صالح له مع علمه بانه الاصلح فاذا صح إدراكه وقويت نفسه وتشجع القلب على إيثار المحبوب الاعلى والمكروه الادني فقد وافق لاسباب السعادة فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوي من سلطان عقله وإيمانه فيقهر الغالب الضعيف ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوى من سلطان شهوته وإذا كان كثير من المرضى يحميه الطبيب عما يضره فتأبا عليه نفسه وشهوته إلا تناوله ويقدم شهوته على عقله وتسميه الاطباء عديم المروءة فهكذا اكثر مرضى القلب يؤثرون مايزيد مرضهم لقوة شهوتهم له فاصل الشر من ضعف الادراك وضعف النفس ودناءتها وأصل الخير من كمال الادراك وقوة النفس وشرفها وشجاعتها فالحب والارادة أصل كل فعل

ومبدأه والبغض والكراهة أصل كل ترك ومبدأه وهاتان القوتان في القلب أصل سعادته وشقاوته ووجود الفعل الاختياري لايكون إلابوجود سببه من الحب والارادة وأماعدم الفعل فتارة يكون لعدم مقتضاه وسببه وتارة يكون بوجود البغض والكراهة المانع منه وهذا متعلق الامر والنهي وهويسمي الكف وهو متعلق الثواب والعقاب وبهذا يزول الاشتباه في مسألة الترك هل هو أمر وجودي أوعدمي والتحقيق انه قسمان فالترك المضاف الى عدم السبب المقتضي عدمي والمضاف الى السبب المانع من الفعل وجودى

فصل

وكل واحد من الفعل والترك الاختياريين فانما يؤثر الحي لما فيه من الحصول والمنفعة التي يلتذ بحصولها أوزوال الالم الذي يحصل له الشفاء بزواله ولهذا يقال شفاء صدره وشفاء قلبه قال

هي الشفاء لداء لوظفرت بها * وليس منها شفاء الداء مبذول

وهذا مطلوب يؤثره العاقل حتي الحيوان البهيم ولكن يغلط فيه أكثر الناس غلطاً قبيحا فيقصد حصول اللذة بما يعقب عليه أعظم الالم فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذتها ويشفي قلبه بما يعقب عليه غاية المرض وهذا شأن من قصر نظره على العاجل ولم يلاحظ العواقب وخاصة العقل النظر في العواقب فاعقل الناس من أثر لذة نفسه وراحته في الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة وأسفه الخلق من باع نعيم الابد وطيب الحياة الدائمة واللذة العظمى التي لاتنغيص فيها ولانقص بوجه ما بلذة منقضية مشوبة بالآلام والمخاوف وهي سريعة الزوال وشيكة الانقضاء قال بعض العلماء فكرت في سعي العقلاء فرأيت سعيهم كلهم في مطلوب واحد وإن اختلفت طرقهم في تحصيله رأيتهم جميعهم إنما يسعون في دفع الهم والغم عن نفوسهم فهذا في الاكل والشرب وهذا في التجارة والكسب وهذا بالنكاح وهذا بسماع الغناء والاصوات المطربة وهذا باللهو واللعب فقلت هـذا المطلوب مطلوب العقلاء ولكن الطرق كلها غير موصلة اليه بل لعل أكثرها إنما يوصل الى ضده ولم أرفي جميع هـذه الطرق طريقاً موصلا اليه بل لعل أكثرها إنما يؤثر الى الاقبال على الله وحـده ومعاملته وحده وإيثار مرضاته على كل شيء فان سالك هذا الطريق ان فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالي الذي لافوت معه وإن حصل للعبد حصل له كل شيء وإن فاته فاته كل شيء وان ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهني الوجوه فليس للعبد أنفع من هـذا الطريق ولا أوصل منه الى لذته وبهجته وسعادته وبالله التوفيق

فصل

والمحبوب قسمان محبوب لنفسه ومحبوب لغيره ولابد أن ينتهي الى المحبوب لنفسه دفعا للتسلسل المحال وكل ماسوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره وليس شيء يحب لنفسه الا الله وحده وكل ماسواه مما يحب فانما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى كمحبة ملائكته وانبيائه وأوليائه فانها تبع لمحبته سبحانه وهي من لوازم محبته فان محبة المحبوب توجب محبة مايحبه وهذا موضع يجب الاعتناء به فانه محل فرقان بين المحبة النافعة لغيره والتي لاتنفع بل قد تضر واعلم إنه لايحبه لذاته الا من كماله من لوازم ذاته وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته وماسواه فانما يبغض ويكره لمنافاته محابه ومضادته لها وبغضه وكراهته بحسب قوة هذه المنافاة وضعفها فما كان أشد منافاة لمحابه كان أشد كراهة من الاعيان والاوصاف والافعال والارادات وغيرها فهذا ميزان عادل يوزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته فاذا رأينا شخصا يحب مايكرهه الرب تعالى ويكره مايحبه علمنا ان فيه من معاداته بحسب ذلك واذا رأينا الشخص يحب مايحبه الرب ويكره مايكرهه وكلما كان الشيء أحب الى الرب كان أحب اليه وأثره عنده وكلما كان أبغض اليه كان أبغض اليه وأبعد منه علمنا ان فيه من موالات الرب بحسب ذلك فتمسك بهذا الاصل غاية التمسك في نفسك وفي غيرك فالولاية عبارة عن موافقة الولى الحميد في محابه ومساخطه ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا رياضة والمحبوب لغيره قسمان أيضاً أحدها مايلتذ المحب بادراكه وحصوله والثاني مايتألم به ولكن يحتمله لافضائه الى المحبوب كشرب الدواء الكريه قال تعالى كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون فاخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع إنهم خير لهم لافضائه إلى أعظم محبوب وأنفعه والنفوس تحب الراحة والفراغة والرفاهية وذلك شر لها لافضائه إلى فوات هذا المحبوب فالعاقل لاينظر الى لذة المحبوب العاجل فيؤثرها وألم المكروه العاجل فيرغب عنه فان ذلك قد يكون شراً له بل قد يجلب عليه غاية الألم وتفوته أعظم اللذة بل عقلاء الدنيا يحتملون المشاق المكروهة لما يعقبهم من اللذة بعدها وإن كانت منقطعة فالامور أربعة مكروه يوصل الى مكروه ومكروه يوصل الى محبوب ومحبوب يوصل الى محبوب ومحبوب يوصل الى مكروه فالمحبوب الموصل الى المحبوب قد اجتمع فيه داعي الفعل من وجهين والمكروه الموصل الى مكروه قد اجتمع فيه داعي الترك من وجهين بقي قسمان الاخران يتجاوزهما الداعيان وهما معترك الابتلاء والامتحان فالنفس تؤثر أقربهما جواراً منها وهو العاجل والعقل

والعقل والايمان يؤثرا نفعهما وإبقائها والقلب بين الداعيين وهو الى هذا مرة والى هذا مرة وهنا محل الابتلاء شرعا وقدرا فداعي العقل والايمان ينادي كل وقت حي على الفلاح عند الصباح يحمد القوم السري وفي الممات يحمد العبد التقى فان اشتد ظلام ليل المحبة وتحكم سلطان الشهوة والارادة يقول

يانفس اصبري فما هي الا ساعة * ثم تنقضي ويذهب هذا كله ويزول

فصل

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل فأصل الاعمال الدينية حب الله ورسوله كما إن أصل الاقوال الدينية تصديق الله ورسوله وكل إرادة تمنع كمال حب الله ورسوله وتزاحم هذه المحبة وشبهه منع كمال التصديق في معارضة لاصل الايمان أومضعفة له فان قويت حتى عارضت أصلي الحب والتصديق كانت كفرا وشركا أكبر وإن لم تعارضه قدحت في كماله وأثرت فيه ضعفا وفتوراً في العزيمة والطلب وهى تحجب الواصل وتقطع الطالب وتنكي الراغب فلاتصلح الموالات إلابالمعادات كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين انه قال لقومه أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون فانهم عدولي إلارب العالمين فلم تصلح لخليل الله هذه الموالات والخلة إلا بتحقيق هذه المعادات فان ولاية الله لاتصح إلا بالبراءة من كل معبود سواه قال تعالى قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنابرآء منكم ومماتعبدون من دون الله كفرنابكم وبدأبيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده وقال تعالى وإذقال إبراهيم لأبيه وقومه إنني برآء مماتعبدون إلاالذى فطرني فانه سيهدين وجعلها كلمةباقية فى عقبه لعلهم يرجعون أي جعل هذه الموالات لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الانبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهي كلمة لاإله إلا الله وهي التى ورثها إمام الحنفاء لاتباعه الي يوم القيامة وهي الكلمة التي قامت بها الارض والسموات وفطر الله عليها جميع المخلوقات وعليها أسست الملة ونصبت القبلة وجردت سيوف الجهاد وهى محض حق الله على جميع العباد وهى الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار وهى النشور الذي لاتدخل الجنة إلابه والحبل الذي لايصل الى الله من لم يتعلق بسببه وهى كلمة الاسلام ومفتاح دار السلام وبها تنقسم الناس الى شقي وسعيد ومقبول وطريد وبها انفصلت دار الكفر من دار الاسلام وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان وهى العمود الحامل للفرض والسنة ومن كان آخر كلامه لاإله إلاالله دخل الجنة وروح هذه الكلمة وسرها

إفراد الرب جل ثناؤه وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولاإله غيره بالمحبة والاجلال والتعظيم والخوف والرجاء وتوابع ذلك من التوكل والانابة والرغبة والرهبة فلايحب سواه بل كل ماكان يحب غيره فانما هوتبعا لمحبته وكونه وسيلة الى زيادة محبته ولايخاف سواه ولايرجى سواه ولايتوكل إلاعليه ولايرغب إلااليه ولايرهب إلامنه ولا يحلف إلا باسمه ولاينذر إلا له ولايتاب إلا اليه ولايطاع إلا أمره ولايحتسب إلابه ولا يستعان في الشدائد إلابه ولايلتجي إلااليه ولايسجد إلاله ولايذبح إلاله وباسمه يجتمع ذلك في حرف واحد وهو أن لايعبد بجميع أنواع العبادة إلا هو فهذا هو تحقيق شهادة أن لاإله إلاالله ولهذا حرم الله على النار من شهد أن لاإله إلاالله حقيقة الشهادة ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها كما قال تعالى والذين هم بشهاداتهم قائمون فيكون قائماً بشهادته في باطنه وظاهره وفي قلبه وقالبه فان من الناس من تكون شهادته ميتة ومنهم من تكون نائمة اذا نبهت انتبهت ومنهم من تكون مضطجعة ومنهم من تكون الى القيام أقرب وهى في القلب بمنزلة الروح في البدن فروح ميتة وروح مريضة الى الموت أقرب وروح الى الحياة أقرب وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن وفي الحديث الصحيح عنه صلي الله عليه وسلم إني لأعلم كلمة لايقولها عبد عند الموت الا وجدت روحه لها روحا فحياة هذه الروح بهذه الكلمة فيها فكما ان حياة البدن بوجود الروح فيه وكما ان من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى وعيشها أطيب عيش قال تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى فالجنة مأواه يوم اللقاء وجنة المعرفة والمحبة والانس بالله والشوق الى لقائه والفرح به والرضى عنه وبه مأوى روحه في هذه الدار فمن كانت هذه الجنة مأواه ههنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرماناً والابرار في نعيم وإن اشتد بهم العيش وضاقت بهم الدنيا والفجار في جحيم وإن إتسعت عليهم الدنيا قال تعالى من عمل صالحاً من ذكر أو أنثي وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة وطيب الحياة جنة الدنيا قال تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً فاي نعيم أطيب من شرح الصدر وأي عذاب أضيق من ضيق الصدر وقال تعالى ألاإن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحيوة الدنيا وفي الآخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشاً وأنعمهم بالا وأشرحهم صدراً وأسرهم قلباً وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا مررتم

برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة قال حلق الذكر ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم مابين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومن هــذا قوله وقد سئلوه عن وصاله في الصوم وقال اني لست كهيئتكم اني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني فاخبر صلى الله عليه وسلم إن مايحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسي وإن مايحصل له من ذلك أمر مختصاً به لايشركه فيه غيره فاذا أمسك عن الطعام والشراب فله عوض عنه يقوم مقامه وينوب منابه ويغنى عنه كما قيل

لها أحاديث من ذكراك تشغلها * عن الشراب وتلهيها عن الزاد

لهــا بوجهك نور يستضيء به * ومن حديثك في أعقابها حادي

إذ اشتكت من كلال السير أوعدها * روح اللقاء فتحي عند ميعادي

وكل ما كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو اليه أحوج كان تألمه بفقده أشد وكل ما كان عدمه أنفع كان تألمه بوجوده أشد ولا شيء على الاطلاق أنفع للعبــد من إقباله على الله واشتغاله بذكره وتنعمه بحبه وإيثاره لمرضاته بل لاحياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة الا بذلك فعدمه ءألم شيء له وأشد عذاباً عليه وإنما تغيب الروح عن شهود هــذا الألم والعذاب لاشتغالها بغيره واستغراقها في ذلك الغير فتغيب به عن شهود ماهي فيــه من ألم العقوبة بفراق أحب شيء اليها وأنفعه لها وهذا بمنزلة السكران المستغرق في سكره الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده وهو لاستغراقه في السكر لايشعر بألم ذلك الفوات وحسرته حتى إذا صحى وكشف عنه غطاء السكر وانتبه من رقدة الخمر فهو أعلم بحاله حينئذ وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة والاشراف على مفارقة الدنيا والانتقال منها الى الله بل الالم والحسرة والعذاب هناك أشد باضعاف أضعاف ذلك فان المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته في الدنيا بالعوض ويعــلم إنه قد أصيب بشيء زائل لابقاء له فكيف بمن مصيبته بمالا عوض عنه ولا بدل منه ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعا فلو قضي الله سبحانه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديراً به وان الموت لايعود أكبر أمنيته وأكبر حسراته هذا لو كان الألم على مجرد الفوات كيف وهناك من العذاب على الروح والبدن أمور أخرى وجودية مالا يقدر قدره فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الالمين العظيمين اللذين لاتحملهما الجبال الرواسي فاعرض على نفسك الآن أعظم محبوب لك في الدنيا بحيث لاتطيب لك الحياة الا معه فاصبحت وقد أخذ منك وحيل بينك وبينه أحوج ماكنت اليه كيف يكون حالك هذا ومنه كل عوض فكيف بمن لاعوض عنه كما قيل

من كل شيءٍ اذا ضيعته عوض * وما من الله آن ضيعته عوض

وفي الأثر الالهي بن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تتعب ابن آدم أطلبني تجدني فان وجدتني وجدت كل شيءٍ وإن فتك فاتك كل شيءٍ وأنا أحب اليك من كل شيءٍ

فصل

ولما كانت المحبة جنساً تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب مايذكر فيها في حق الله تعالى مايختص به ويليق به من أنواعها ولا يصلح الا له وحده مثل العبادة والانابة ونحوها فان العبادة لاتصلح الا له وحده وكذا الانابة وقد ذكر المحبة باسمها المطلق كقوله تعالى فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه وقوله تعالى ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله وأعظم أنواع المحبة المذمومة المحبة مع الله التي سوى فيها المحب بين محبة الله ومحبته للند الذي إتخذه من دون الله وأعظم أنواعها المحمودة محبة الله وحده وهذه المحبة هي أصل السعادة ورأسها التي لاينجو أحد من العذاب إلا بها والمحبة المذمومة الشركية هي أصل الشقاوة ورأسها التي لايبقي في العذاب الا أهلها فأهل المحبة الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لاشريك له لايدخلون النار من دخلها منهم بذنوبه فانه لايبقى فيها منهم أحد ومدار القرآن على الامر بتلك المحبة ولوازمها والنهى عن المحبة الاخرى ولوازمها وضرب الامثال والمقاييس للنوعين وذكر قصص ولوازمها النوعين وتفصيل أعمال النوعين وأوليائهم ومعبود كل منهما واخباره عن فعله ولنوعين وعن حال النوعين في الدور الثلاثة دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار والقران بافي شأن النوعين وأصل دعوة جميع الرسل من أولهم الى آخرهم إنما هو عبادة الله وحده لاشريك له المتضمنة لكمال حبه وكمال الخضوع والذل له والاجلال والتعظيم ولوازم ذلك من الطاعة والتقوى وقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال والذي نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين وفي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال يارسول الله والله لانت أحب الي من كل شيءٍ إلا من نفسي فقال لاياعمر حتى أكون أحب اليك من نفسك فقال والذي بعثك بالحق لانت أحب الي من نفسي فقال الآن ياعمر فاذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ووجوب تقديمها على محبة النفس والوالد والولد والناس أجمعين فما الظن بمحبة مرسله سبحانه وتعالى ووجوب تقديمها على محبة ماسواه

ومحبة الرب تعالى تختص عن محبة غيره في قدرها وصفتها وإفراده سبحانه بها فان الواجب له من ذلك كله أن يكون الى العبد أحب اليه من ولده ووالده بل من سمعه وبصره ونفسه التي بين جنبيه فيكون إلهه الحق ومعبوده أحب اليه من ذلك كله والشيء قد يحب من وجه دون وجه وقد يحب بغيره وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده ولا تصلح الالوهية إلا له ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا والتأله هو المحبة والطاعة والخضوع

﴿ فصل ﴾

وكل حركة في العالم العلوي والسفلي فأصلها المحبة فهي علتها الفاعلية والغائية وذلك لان الحركات ثلاثة أنواع حركة إختيارية إرادية وحركة طبيعية وحركة قسرية فالحركة الطبيعية أصلها السكون وإنما يتحرك الجسم اذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعي فهو يتحرك للعود اليه وخروجه عن مركزه ومستقره وإنما يتحرك بتحرك القاسر المحرك له فله حركة قسرية تحرك بتحريك محركه وقاسره وحركة طبيعية بذاتها تطلب بها العود الى مركزه وكلا حركتيه تابع للمحرك القاسر فهو أصل الحركتين والحركة الاختيارية الارادية هي أصل الحركتين الآخرتين وهي تابعة للارادة والمحبة فصارت الحركات الثلاث تابعة للمحبة والارادة والدليل على انحصار الحركات في هذه الثلاث أن المتحرك إن كان له شعور بالحركة فهي الارادية وان لم يكن له شعور بها فاما أن يكون على وفق طبيعته الاولى فالاولى هي الطبيعية والثانية هي القسرية إذا فهمت هذا فما في السموات والارض وما بينهما من حركات الافلاك والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر والنبات وحركات الأجنة في بطون أمهاتها فانما هي بواسطة الملائكة المدبرات أمراً والمقسمات أمراً كما دل على ذلك نصوص القرآن والسنة في غير موضع والايمان بذلك من تمام الايمان بالملائكة فان الله وكل بالرحم ملائكة وبالقطر ملائكة وبالنبات ملائكة وبالرياح ملائكة وبالافلاك والشمس والقمر والنجوم ووكل بكل عبد أربعة من الملائكة كاتبين على يمينه وعلى شماله وحافظين من بين يديه ومن خلفه ووكل ملائكة بقبض روحه وتجهيزها الى مستقرها من الجنة والنار وملائكة بمسألته وإمتحانه في قبره وعذابه هناك أو نعيمه وملائكة تسوقه الى المحشر إذا قام من قبره وملائكة بتعذيبه في النار أو نعيمه في الجنة ووكل بالجبال ملائكة وبالسحاب ملائكة تسوقه الى حيث أمرت به وملائكة بالقطر تنزله بامر الله بقدر معلوم كما شاء الله ووكل ملائكة بغرس الجنة وعمل آلاتها وفرشها وثيابها والقيام عليها وملائكة بالنار كذلك فاعظم جند الله الملائكة واعظم الملك يشعر بانه رسول منفذ لامر غيره

وليس لهم من الامر شيء بل الامر كله لله وهم يدبرون الامر ويقسمونه باذن الله وأمره
قال تعالى إخبارا عنهم وما نتنزل الا بامر ربك له مابين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك
وما كان ربك نسيا وقال تعالى وكم من ملك في السموات لاتغني شفاعتهم شيئاً الا من بعد
أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى وأقسم سبحانه بطوائف من الملائكة المنفذين لامره في
الخليقة كما قال تعالى والصافات صفاً فالزاجرات زجراً فالاليات ذكراً وقال والمرسلات
عرفاً فالعاصفات عصفاً والناشرات نشرا فالفارقات فرقاً فالملقيات ذكراً عذرا أو نذرا
وقال تعالى والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً والسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً فالمدبرات
أمراً وقد ذكرنا معني ذلك وسر الاقسام في كتاب أقسام القرآن اذا عرف ذلك فجميع
تلك المحبات والحركات والارادات والافعال هي عباداتهم لرب الارض والسموات وجميع
الحركات الطبيعيه والقسرية تابعة لهافلولا الحب مادارت الافلاك ولا تحركت الكواكب
النيرات ولاهبت الرياح المسخرات ولا مرت السحاب الحاملات ولا تحركت الأجنة في
بطون الامهات ولا أنصدع عن الحب أنواع النبات ولااضطربت أمواج البحار الراجرات
ولا تحركت المدبرات والمقسمات ولا سبحت بحمد فاطرها الارض والسموات وما فيها
من أنواع المخلوقات فسبحان من تسبحه السموات والارض ومن فيهن وان من شيء الا
يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً

فصل

إذا عرف ذلك فكل حي له إرادة ومحبة وعمل يحسنه وكل متحرك فأصل حركته
المحبة والارادة والاصلاح للموجودات الا بان تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وباريها
وحده كما لاوجود لها الا بأبداعه وحده ولهذا قال تعالى لو كان فيهما آلهة إلاالله لفسدتا
فسبحان الله رب العرش عما يصفون ولم يقل سبحانه لما وجدتا ولكانتا معدومتين ولا
قال لعدمتا اذ هو سبحانه قادر على أن يبقيهما على وجه الفساد لكن لايمكن أن تكون
على وجه الصلاح والاستقامة الا بان يكون الله وحده وهومعبود لهما ومعبود ما حوتاه
وسكن فيهما فلوكان للعالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد فان كل إله يطلب مغالبة الآخر
والعلو عليه وتفرده دونه بالالهية اذ الشرك نقص في كمال الالهية والاله لايرضى لنفسه أن
يكون إلهاً ناقصاًفان قهر أحدهما الآخر كان هو الاله وحده والمقهورليس باله وان لم يقهر
أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما ونقصه ولم يكن تام الالهية فيجب أن يكون فوقهما إله
قاهر لهما حاكم عليهما وإلا ذهب كل منهما بما خلق وطلب كل منهما العلو على الآخر

وفي ذلك فساد أمر السموات والارض ومن فيهما كما هو المعهود من فساد البلد اذا كان فيها ملكان متكافئان وفساد الزوجة اذا كان لها بعلان والشول اذا كان فيه فحلان واصل فساد العالم انما هو من فساد اختلاف الملوك والخلفاء ولهذا لم تطمع أعداء الاسلام فيهم في زمن من الازمنة الا في زمن تعدد الملوك من المسلمين واختلافهم وانفراد كل واحد منهم ببلاد وطلب بعضهم العلو على بعض فصلاح السموات والارض واستقامتهما وإنتظام أمر المخلوقات على أتم نظام ومن أظهر الادلة على انه لاإله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير وان كل معبود من لدن عرشه الى قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلى قال الله تعالى ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله اذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلى بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون وقال تعالى أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لايسئل عما يفعل وهم يسئلون وقال تعالى قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا الى ذي العرش سبيلا قيل المعنى لابتغوا السبيل اليه بالمغالبة والقهر كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ويدل عليه قوله في الآية الاخرى ولعلى بعضهم على بعض قال شيخنا والصحيح ان المعنى لابتغوا اليه سبيلا بالتقرب اليه وطاعته فكيف تعبدونهم من دونه وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيداً له قال ويدل على هذا وجوه منها قوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه أي هؤلاء الذين يعبدونهم من دوني هم عبادي كما أنتم عبادي ويرجون رحمتي ويخافون عذابي فلماذا تعبدونهم من دوني الثاني انه سبحانه لم يقل لابتغوا عليه سبيلا قال لابتغوا اليه سبيلا وهذا اللفظ إنما يستعمل في القرب كقوله تعالى اتقوا الله وابتغوا الوسيلة وأما في المغالبة فانما يستعمل بعلى كقوله فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا الثالث إنهم لم يقولوا إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه وهو سبحانه قال قل لو كان معه آلهة كما يقولون وهم انما كانوا يقولون ان آلهتهم تبتغي التقرب اليه وتقربهم زلفى اليه قال تعالى لو كان الامر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيداً له فلماذا تعبدون عبيده من دونه

فصل

والمحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام سواء كانت محمودة أو مذمومة نافعة أو ضارة من الوجد والذوق والحلاوة والشوق والانس والاتصال بالمحبوب والقرب منه والانفصال عنه والبعد منه والصد والهجران والفرح والسرور والبكا والحزن وغير ذلك من أحكامها

ولوازمها والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ماينفعه في دنياه وآخرته وهذه المحبة هي عنوان السعادة وضدها هي التي تجلب لصاحبها مايضره في دنياه وآخرته وهي عنوان الشقاوة ومعلوم ان الحى العاقل لايختار محبة ما يضره ويشقيه وإنما يصدر ذلك عن جهله وظلمه فان النفس قد تهوي مايضرها ولا ينفعها وذلك ظلم من الانسان لنفسه اما ان تكون النفس جاهلة بحال محبوبها بان تهوي الشي وتحبه غير عالمة بما في محبته من المضرة وهذا حال من اتبع هواه بغير علم واما عالمة بما في محبته من الضرر لكن يؤثر هواها على علمها وقد تتركب محبتها من أمرين من إعتقاد فاسد وهوي مذموم وهذا حال من اتبع الظن وما تهوي الانفس فلا تقع المحبة الفاسدة الا من جهل أو اعتقاد فاسد وهو غالب أوما تركب من ذلك فاعان بعضه بعضاً فتتفق شبهة يشتبه بها الحق بالباطل يزين له أمر المحبوب وشهوة تدعوه الى وصوله فيتساعد جيش الشبهة والشهوة على جيش العقل والايمان والغلبة لاقواهما اذا عرف هذا فتوابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعه فالمحبة النافعة المحمودة التي هي عنوان سعادة العبد وتوابعها كلها نافعة له حكمها حكم متبوعها فان بكي نفعه وإن حزن نفعه وإن فرح نفعه وإن انبسط نفعه وإن انقبض نفعه فهو يتقلب في منازل المحبة وأحكامها في مزيد وربح وقوة والمحبة المضرة المذمومة توابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها مبعدة له من ربه كيف ماتقلب في آثارها ونزل في منازلها فهو في خسارة وبعد وهذا شأن كل فعل تولد عن طاعة ومعصية فكل ماتولد من الطاعة فهو زيادة لصاحبه وقرب وكل ماتولد من المعصية فهو خسران لصاحبه وبعد قال تعالى ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤن موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح إن الله لايضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون فأخبر سبحانه في الاية الاولى أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح وأخبر في الثانية أن أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتب لهم أنفسها والفرق بينهما ان الاول ليس من فعلهم وإنما تولد عنه فكتب لهم به عمل صالح والثاني نفس أفعالهم فكتب لهم فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل ليعلم ماله وما عليه

سيعلم يوم العرض أي بضاعة * أضاع وعند الوزن ما كان حصلا

فصل

وكما ان المحبة والارادة أصل كل فعل كما تقدم فهي أصل كل دين سواء كان حقا أم

باطلا فان الدين هو من الاعمال الباطنة والظاهرة والمحبة والارادة أصل ذلك كله والدين هو الطاعة والعبادة والخلق فهو الطاعة اللازمــة الدائمة التي صارت خلقا وعادة ولهذا فسر الخلق بالدين في قوله تعالى وإنك لعلى خلق عظيم قال الامام أحمد عن ابن عيينة قال ابن عباس لعلى دين عظيم وسئلت عائشة عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن والدين فيه معنى الاذلال والقهر وفيه معنى الذل والخضوع والطاعة فلذلك يكون من الاعلى الى الاسفل كما يقال دنته فدان أي قهرته فذل قال الشاعر

هو أدني الزمان أذكر هذا الدين * فأصبحوا بغــرة وصيــان

ويكون من الأدني الى الاعلى كما يقال دنت الله ودنت لله وفلان لايدين الله ديناً ولا يدين الله بدين فــدان الله أي أطاع الله وأحبه وخافه ودان لله أي خشع له وخضع وذل وانقاد والدين الباطن لابد فيه من الخضوع والحب كالعبادة سواء بخلاف الدين الظاهر فانه لايستلزم الحب وإن كان فيه انقياد وذل في الظاهر وسمي الله تعالى يوم القيامة يوم الدين لانه اليوم الذي يدين فيه الناس فيه باعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر وذلك يتضمن جزاؤهم وحسابهم فلذلك فسروا بيوم الجزاء ويوم الحساب وقال تعالي فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها ن كنتم صادقين أي هلا تردون الروح الى مكانها إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولامجزيين وهذه الآية تحتاج الى تفسير فانها سيقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب ولابد أن يكون الدليل مستلزم لمدلوله بحيث ينتقل الذهن منه الى المدلول لما بينهما من التلازم فيكون الملزوم دليل على لازمه ولايجب العكس ووجه الاستدلال أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربهم وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته فاما أن يقروا بان لهم رباقاهراً متصرفا فيهم يميتهم ويحييهم إذا شاء ويأمرهم وينهاهم ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم وأما أن لايقروا برب هذا شأنه فان أقروا آمنوا بالبعث والنشور والدين الامري والجزائي وإن أنكروه كفروا به فقد زعموا إنهم غير مربوبين ولامحكوم عليه ولالهم رب يتصرف فيهم كما أراد فهلا يقدرون على دفع الموت عنهم اذا جاءهم وعلى رد الروح الى مستقرها إذا بلغت الحلقوم وهذا خطاب للحاضرين وهم عند المحتضر وهم يعاينون موته أى فهلا يردون الروح الى مكانها إن كان لهم قدرة وتصرف ولستم بمربوبين ولامقهورين لقاهر قادر يمضي عليكم أحكامه وينفذ فيكم أوامره وهذه غاية التعجيز لهم إذا تبين عجزهم عن رد نفس واحدة الى مكانها ولواجتمع على ذلك الثقلان فيالها من آية دالة على وحدانيته وربوبيته سبحانه وتصرفه في عباده ونفوذ أحكامــه فيهم وجريانها عليهم والدين دينان دين شرعى أمري ودين حسابي جزائي وكلاهما لله وحده فالدين كله أمراً

أوجزاء والمحبة أصل كل واحد من الدينين فان ماشرعه وأمر به فانه يحبه ويرضاه وما نهى عنه فانه يكرهــه ويبغضه لمنافاته لمايحبه ويرضاه فهو يحب ضده فساددينه الامري كله الى محبته ورضاه ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبة ورضى كماقال النبي صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا وهذا الدين قائم بالمحبة وبسببها شرع ولاجلها شرع وعليها أسس وكذلك دينه الجزائي فانه يتضمن مجازات المحسن باحسانه والمسيء باساءته وكل من الامرين محبوب للرب فانهما عدله وفضله وكلاهما من صفات كماله وهو سبحانه يحب صفاته وأسمائه ويحب من يحبها وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذى هو عليــه فهو سبحانه على صراط مستقيم في أمره ونهيه وثوابه وعقابه كماقال تعالى إخباراً عن نبيه هود عليه السلام إنه قال لقومه إني أشهد الله واشهدوا إني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لاتنظرون إنى توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلاهو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ولما علم نبي الله أن ربه على صراط مستقيم في خلقه وأمره وثوابه وعقابه وقضائه وقدره ومنعه وعطائه وعافيته وبلائه وتوفيقه وخذلانه لايخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته من العدل والحكمة والرحمة والاحسان والفضل ووضع الثواب في مواضعه والعقوبة في موضعهـا اللائق بها ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والاضلال كل ذلك في أماكنه ومحاله اللائقة به بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء أوجب له ذلك العلم والعرفان إذ نادى على رؤس الملأ من قومه بجنان ثابت وقلب غير خائف بل متجرد لله إني أشهد الله واشهدوا إني بريء مما تشركون من دونه الآية ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره بكل ماسواه وذل كل شيء لعظمته فقال مامن دابة إلاهو آخذ بناصيتها فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره وهو في قبضته وتحت قهره وسلطانه دونه وهل هذا الامر الامن أجهل الجهل وأقبح الظلم ثم أخبر انه سبحانه على صراط مستقيم فكل مايقضيه ويقدره فلايخاف العبد جوره ولاظلمه فلاأخاف مادونه فان ناصيته بيده ولاأخاف جوره وظلمه فانه على صراط مستقيم وهو سبحانه ماض في عبده حكمه عدل فيه قضاؤه له الملك وله الحمد لايخرج في تصرفه في عباده عن العدل والفضل إن أعطي وأكرم وهدي ووفق فبفضله ورحمته وإن منع وأهان وأضل وخذل وشقى فبعدله وحكمته وهو على صراط مستقيم في هذا وهذا وفي الحديث الصحيح ما أصاب عبد قط هم ولاحزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسئلك اللهم بكل اسم هولك سميت به نفسك أوأنزلته في كتابك أوعلمته أحدا من خلقك أواستأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم

ربيع قلبي ونورصدري وجلاء همي وحزني وذهاب همي وغمي إلاأذهب الله همه وغمه وأبدله فرجا مكانه وهذا يتناول حكم الرب الكوني والامري والقضاء الذي يكون باختيار العبد وبغير اختياره وكلا الحكمين ماض في عبده وكلا القضائين عدل فيه فهذا الحديث مشتق من هذه الآية بينهما أقرب نسب وبالله التوفيق

فصل

ونختم الجواب بفصل متعلق بعشق الصور ومافيه من المفاسد العاجلة والآجلة وإن كانت أضعاف مايذكره ذاكر فانه يفسد القلب بالذات وإذافسد فسدت الارادات والاقوال والاعمال وفسد ثغر التوحيد كما تقدم وسنقرره أيضاً إن شاء الله تعالى والله سبحانه وتعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس وهم اللوطية والنساء فاخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وماراودته وكادته به وأخبر عن الحال التي صار اليها يوسف بصبره وعفته وتقواه مع إن الذي ابتلى به أمر لايصبر عليه إلامن صبره الله عليه فان موافقة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع وكان الداعي هاهنا في غاية القوة وذلك لوجوه أحدها ماركب الله سبحانه فى طبع الرجل من ميله الى المرأة كما يميل العطشان الى الماء والجائع الى الطعام حتي إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولايصبر عن النساء وهذا لايذم اذا صادف حلالا بل يحمد كما فى كتاب الزهد للامام أحمد من حديث يوسف بن عطية الصغار عن ثابت البناني عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم حبب الى من دنياكم الطيب والنساء أصبر عن الطعام والشراب ولاأصبر عنهن الثانى أن يوسف عليه السلام كان شابا وشهوة الشاب وحدته أقوى الثالث أنه كان عزبا لازوجة له ولاسرية تكسر شدة الشهوة الرابع أنه كان فى بلاد غربة يتأتي للغريب فيها من قضاء الوطر مالا يتأتي لغيره في وطنه وأهله ومعارفه الخامس أن المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث أن كل واحد من هذين الامرين يدعوالى موافقتها السادس أنها غير آبية ولاممتنعة فان كثيراً من الناس يزيل رغبته فى المرأة إباؤها وامتناعها لمايجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها وكثير من الناس يزيده الاباء والامتناع زيادة حب كما قال الشاعر

وزادني كلفا في الحب إن منعت * أحب شيء الى الانسان مامنعا

فطباع الناس مختلفة فيذلك فمنهم من يتضاعف حبه عندبذل المرأة ورغبتها وتضمحل عند إبائها وإمتناعها وأخبرني بعض القضاة ان إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع زوجته أو سريته وإبائها بحيث لايعاودها ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع ويشتد شوقه بكل

مامنع وتحصل له من اللذة بالظفر نظير مايحصل من لذة بالظفر بالضد بعد إمتناعه ونفاره واللذة بادراك المسئلة بعد إستصعابها وشدة الحرص على إدراكها السابع انها طلبت وأرادت وبذلت الجهد فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة اليها بل كانت هي الراغبة الذليلة وهو العزيز المرغوب اليه الثامن إنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها بحيث يخشي إن لم يطاوعها من اذاها له فاجتمع داعي الرغبة والرهبة التاسع إنه لايخشي أن تنمى عليه هي ولا أحد من جهتها فانها هي الطالبة والراغبة وقد غلقت الابواب وغيبت الرقباء العاشر انه كان مملوكا لها في الدار بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه وكان الامن سابقاً على الطلب وهو من أقوى الدواعي كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب ماحملك على الزنا قالت قرب الوساد وطول السواد تعني قرب وساد الرجل من وسادتي وطول السواد بيننا الحادي عشر أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال فأرته إياهن وشكت حالها اليهن لتستعين بهن عليه فاستعان هو بالله عليهن فقال وإلا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين الثاني عشر أنها تواعدته بالسجن والصغار وهذا أنواع إكراه إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ماهدد به فيجتمع داعى الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار الثالث عشر أن الزوج لم يظهر منه الغيرة والنخوة مايفرق به بينهما ويبعد كلامنهما عن صاحبه بل كان غاية ماخاطبهما به أن قال ايوسف أعرض عن هذا وللمرأة إستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع وهنا لم يظهر منه غيرة ومع هذه الدواعى كلها فآثر مرضات الله وخوفه وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنا فقال رب السجن أحب الى مما يدعونني إليه وعلم أنه لايطيق صرف ذلك عن نفسه وان ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا اليهن بطبعه وكان من الجاهلين وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم مايزيد على الف فائدة لعلنا إن وفقنا الله أن نفردها في مصنف مستقل

فصل

والطائفة الثانية الذين حكى الله عنهم العشق هم اللوطية كما قال تعالى وجاء أهل المدينة يستبشرون قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون قالوا ألم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون فهذه عشقة فحكاه سبحانه عن طائفتين عشق كل منهما ماحرم عليه من الصور ولم يبال بما في عشقه من الضرر وهذا داء أعي الاطباء دواؤه وعز عليهم شفاؤه وهو والله الداء العضال والسم القتال

الذي ماعلق بقلب الا وعز على الورى إستنقاذه من إسارة ولا اشتعلت نار في مهجة إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره وهو أقسام وهو تارة يكون كفر لمن إتخذ معشوقه ندا يحبه كما يحب الله فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله في قلبه فهذا عشق لايغفر لصاحبه فانه من أعظم الشرك والله لايغفر أن يشرك به وإنما يغفر بالتوبة الماحية مادون ذلك وعلامة هذا العشق الشركى الكفرى أن يقدم العاشق رضاء معشوقه على رضاء ربه وإذا تعارض عنده حق معشوقه وحقه وحق ربه وطاعته قدم حق معشوقه على حق ربه وآثر رضاه على رضاه وبذل لمعشوقه أنفس مايقدر عليه وبذل لربه إن بذل أردى ماعنده واستفرغ وسعه في مرضات معشوقه وطاعته والتقرب اليه وجعل لربه إن أطاعه الفضلة التي تفضل عن معشوقه من ساعاته فتأمل حال أكثر عشاق الصور هل تجدها مطابقة لذلك ثم ضع حالهم في كفة وتوحيدهم في كفة وإيمانهم في كفة ثم زن وزنا يرضي الله ورسوله ويطابق العدل وربما صرح العاشق منهم بان وصل معشوقه أحب اليه من توحيد ربه كما قال العاشق الخبيث

يترشفن من فمي رشفات * هن أحلى فيه من التوحيد

وكما صرح الخبيث الآخر بان وصل معشوقه أشهى اليه من رحمة ربه فعياذا بك اللهم من هذا الخذلان ومن هذا الحال قال الشاعر

وصلك أشهى الى فؤادي * من رحمة الخالق الجليل

ولا ريب ان هذا العشق من أعظم الشرك وكثير من العشاق يصرح بانه لم يبق في قلبه موضع لغير معشوقه البتة بل قد ملك معشوقه عليه قلبه كله فصار عبداً مخلصاً من كل وجه لمعشوقه فقد رضي هذا من عبودية الخالق جل جلاله بعبودية المخلوق مثله فان العبودية أي كال الحب والخضوع وهذا قد استغرق قوة حبه وخضوعه وذله لمعشوقه فقد أعطاه حقيقة العبودية ولا نسبة بين مفسدة هذا الامر العظيم ومفسدة الفاحشة فان تلك ذنب كبير لفاعله حكمه حكم أمثاله ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول لئن أبتلى بالفاحشة مع تلك الصورة أحب الى من أن أبتلى فيها بعشق يتعبد لها قلبي ويشغله عن الله

فصل

ودواء هذا الداء القتال أن يعرف إنما إبتلى به من الداء المضاد للتوحيد أولا ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكر فيه ويكثر اللجاء والتضرع

الى الله سبحانه في صرف ذلك عنه وان يرجع بقلبه اليه وليس له دواء أنفع من الاخلاص لله وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين فاخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل باخلاصه فان القلب اذا خلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور فانه انما تمكن من قلب فارغ كما قال

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى * فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وليعلم العاقل أن العقل والشرع قد يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها وإعدام المفاسد وتقليلها فاذا عرض للعاقل أمر يرى فيه المصلحة والمفسدة وجب عليه أمران أمر علمي وأمر عملي فالعلمي طلب معرفة الراجح من طرفي المصلحة والمفسدة فاذا تبين له الرجحان وجب عليه إتيان الاصلح له ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة وذلك من وجوه أحدها الاشتغال بذكر المخلوق وحبه عن حب الرب تعالى وذكره فلا يجتمع في القلب هذا وهذا الا ويقهر أحدهما صاحبه ويكون السلطان والغلبة له الثاني عذاب قلبه بمعشوقه فان من أحب شيئاً غير الله عذب به ولا بد كما قيل

فما في الارض أشقى من محب * وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً في كل حين * مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي ان نأوا شوقاً اليهم * ويبكي ان دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند الفراق * وتسخن عينه عند التلاق

والعشق وان استلذ به صاحبه فهو من أعظم عذاب القلب الثالث ان العاشق قلبه أسير في قبضة معشوقه يسومه الهوان ولكن لسكرة العشق لايشعر بمصابه فقلبه كالعصفورة في كف الطفل يسومها حياض الردى والطفل يلهو ويلعب فيعيش العاشق عيش الاسير الموثق ويعيش الخلي عيش المسيب المطلق والعاشق كما قيل

طليق برأي العين وهو أسير * عليل على قطب الهلاك يدور
وميت يرى في صورة الحي غادياً * وليس له حتى النشور نشور
أخو غمرات ضاع فيهن قلبه * فليس له حتى الممات حضور

الرابع انه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور اما مصالح الدين فانها منوطة بلم شعث القلب وإقباله على الله وعشق الصور أعظم شيئاً تشعيثا وتشتيتا له وأما مصالح الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين فمن انفرطت

عليه مصالح دينه وضاعت عليه فصالح دنياه أضيع وأضيع الخامس ان آفات الدنيا والآخرة أسرع الى عشاق الصور من النار في يابس الحطب وسبب ذلك إن القلب كلما قرب من العشق قوى اتصاله به بعد من الله فابعد القلوب من الله قلوب عشاق الصور واذا بعد القلب من الله طرقته الآفات من كل ناحية فان الشيطان يتولاه ومن تولاه عدوه واستولى عليه لم يأله وبالا ولم يدع أذاً يمكنه إيصاله إليه الا أوصله فما الظن من قلب تمكن منه عدوه وأحرص الخلق على عيبه وفساده وبعده من وليه ومن لاسعادة له ولا فلاح ولا سرور الا بقربه وولايته السادس انه اذا تمكن من القلب واستحكم وقوى سلطانه أفسد الذهن وأحدث الوساوس وربما التحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها واخبار العشاق في ذلك موجودة في مواضعها بل بعضها يشاهد بالعيان وأشرف مافي الانسان عقله وبه يتميز عن سائر الحيوانات فاذاعدم عقله التحق بالبهائم بل ربما كان حال الحيوان أصلح من حاله وهل اذهب عقل مجنون ليلى وأضرابه الا العشق وربما زاد جنونه على جنون غيره كما قيل

قالوا جننت بمن تهوي فقلت لهم * العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لايستفيق الدهر صاحبه * وإنما يصرع المجنون بالحين

السابع انه ربما أفسد الحواس أو نقصها إمافساداً معنوياً أو صورياً أما الفساد المعنوي فهو تابع لفساد القلب فان القلب اذا فسد فسدت العين والاذن واللسان فيرى القبيح حسناً منه ومن معشوقه كما في المسند مرفوعا حبك الشيء يعمي ويصم فهو يعمي عين القلب عن رؤية مساوي المحبوب وعيوبه فلا ترى العين ذلك ويصم أذنه عن الاصغاء الى العذل فيه فلا تسمع الاذن ذلك والرغبات تستر العيوب فان الراغب في شيء لايرى عيوبه حتي إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه فشدت الرغبة غشاوة على العين تمنع من رؤية الشيء على ماهو عليه كما قيل

هويتك اذعيني عليها غشاوة * فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

والداخل في الشيء لايرى عيوبه والخارج منه الذي لم يدخل فيه لايرى عيوبه ولا يرى عيوبه الامن دخل فيه ثم خرج منه ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الاسلام بعد الكفر خير من الذين ولدوا في الاسلام قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه انما ينتقض عرى الاسلام عروة عروة اذا ولد في الاسلام من لايعرف الجاهلية وأمافساده للحواس ظاهراً فانه يمرض البدن وينهكه وربما أدى الى تلفه كما هو المعروف في اخبار من قتله العشق وقد رفع الى ابن عباس وهو بعرفة شاب قد انتحل حتى عاد جلداً على عظم فقال ماشأن

كما تقدم هو الافراط في المحبة بحيث يستولى المعشوق على القلب من العاشق حتي لايخلو من تخيله وذكره والفكر فيه بحيث لايغيب عن خاطره وذهنه فعند ذلك تشتغل النفس بالخواطر النفسانية فتتعطل تلك القوي فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يضر دواؤه ويتعذر فتتغير أفعاله وصفاته ومقاصده ويختل جميع ذلك فتعجز البشر عن صلاحه كما قيل

الحب أول مايكون لجاجة * يأتى بها وتسوقه الاقدار
حتى اذا خاض الفتى لجج الهوي * جاءت أمور لاتطاق كبار

والعشق مباديه سهلة حلوة وأوسطه هم وشغل قلب وسقم وآخره عطب وقتل ان لم يتداركه عناية من الله كما قيل

وعش خالياً فالحب أوله عناً * وأوسطه سقم وآخره قتل

وقال آخر

تولع بالعشق حتى عشق * فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة * فلما تمكن منها غرق

والذنب له فهو الجاني على نفسه وقد قعد تحت المثل السائر يداك أوكتا وفوك نفخ

فصل

والعاشق له ثلاث مقامات مقام ابتداء ومقام توسط ومقام انتهاء فاما مقام ابتدائه فالواجب عليه مدافعته بكل مايقدر عليه اذا كان الوصول الى معشوقه متعذرا قدرا وشرعا فان عجز عن ذلك وأبي قلبه الا السفر الى محبوبه وهذا مقام التوسط والانتهاء فعليه كتمانه ذلك وأن لا يفشيه الى الخلق ولا يشمت بمحبوبه ولا يهتكه بين الناس فيجمع بين الظلم والشرك فان الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم وربما كان أعظم ضرراً على المعشوق وأهله من ظلمه في ماله فانه يعرض المعشوق بهتكه في عشقه الي وقوع الناس فيه وانقسامهم الى مصدق ومكذب وأكثر الناس يصدق في هذا الباب بادنى شبهة واذا قيل فلان فعل بفلان أو بفلانة كذبه واحد وصدقه تسعمائة وتسعة وتسعين وخبر العاشق المهتك عن المتهتك عند الناس في هذا الباب يفيد القطع اليقين بل اذا أخبرهم المفعول به عن نفسه كذباً وافتراء على غيره جزموا بصدقه جزماً لايحتمل النقيض بل لو جمعهما مكانا واحداً اتفاقا جزموا ان ذلك عن وعد واتفاق بينهما وجزمهم في هذا الباب على الظنون والتخييل والشبهة والاوهام والاخبار الكاذبة كجزمهم بالحسيات المشاهدة وبذلك وقع أهل الافك

في الطيبة المطيبة حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من فوق سبع سموات بشبهة
بمجيء صفوان بن المعطل بها وحده خلف العسكر حتى هلك من هلك ولولا أن تولى الله
سبحانه براءتها والذب عنها وتكذيب قاذفها لكان أمراً آخر والمقصود ان في اظهار المبتلى
عشق من لا يحل له الاتصال به من ظلمه واذاه ماهو عدوان عليه وعلى أهله وتعريض
لتصديق كثير من الناس ظنونهم فيه فان استعان عليه ممن يستميله اليه اما برغبة أو رهبة
تعدى الظلم وانتشر وصار ذلك الواسطة بين الراشي والمرتشي وصار ذلك الواسطة ظالم
واذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد لعن الرائش وهو الواسطة ديوثا ظالما بين الراشي
أو المرتشي لايصال الرشوة فما الظن بالديوث الواسطة بين العاشق والمعشوق في الوصلة المحرمة
فيتساعد العاشق على ظلم المعشوق وغيره ممن يتوقف حصول غرضهما على ظلمه في نفس
ومال أو عرض فان كثيرا ما يتوقف حصول المطلوب غرضه على قتل نفس يكون حياتها مانعة
من غرضه وكم قتيل طل دمه بهذا السبب من زوج وسيد وقريب وكم خبثت امرأة على بعلها وجارية
وعبد على سيدهما وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك وتبرأ منه وهو من اكبر
الكبائر واذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه وأن
يستام على سومه فكيف بمن يسعي بالتفريق بينه وبين امرأته وأمته حتى يتصل بهما وعشاق
الصور ومساعدوهم من الديثة لايرون ذلك ذنبا فان في طلب العاشق وصل معشوقه ومشاركة
الزوج والسيد ففي ذلك من اثم ظلم الغير مالعله لا يقصر عن اثم الفاحشة إن لم يربو عليها ولا
يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة فان التوبة وإن أسقطت حق الله فحق العبد باق له
المطالبة به يوم القيامة فان من ظلم الوالد بافساد ولده وفلذة كبده ومن هو أعز عليه من نفسه
وظلم الزوج بافساد حبيبته والجناية على فراشه أعظم من ظلمه باخذ ماله كله ولهذا يؤذيه
ذلك أعظم مما يؤذيه باخذ ماله ولا يعدل ذلك عنده الا سفك دمه فياله من ظلم أعظم إثما من
فعل الفاحشة فان كان ذلك حقاً لغاز في سبيل الله وقف له الجاني الفاعل يوم القيامة وقيل
له خذ من حسناته ماشئت كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال صلى الله عليه وسلم
فما ظنكم أى فما تظنون يبقى له من حسناته فان انضاف الي ذلك أن يكون المظلوم جاراً أو
ذا رحم محرم تعدد الظلم وصار ظلما مؤكدا لقطيعة الرحم واذي الجار ولا يدخل الجنة قاطع
رحم ولا من لا يأمن جاره بوائقه فان استعان العاشق على وصال معشوقه بشياطين الجن
إما بسحر أو استخدام أو نحو ذلك ضم الى الشرك والظلم كفر السحر فان لم يفعله هو ورضي
به كان راضيا بالكفر غير كاره لحصول مقصوده وهذا ليس ببعيد من الكفر والمقصود
أن التعاون في هذا الباب تعاون على الاثم والعدوان وأما مايقترن بحصول غرض العاشق

من الظلم المنتشر المتعدي ضرره فامر لايخفى فانه إذا حصل له مقصوده من المعشوق فللمعشوق أمور أخر يريد من العاشق إعانته عليها فلايجد من إعانته بدا فيبقى كل منهما يعين الآخر على الظلم والعدوان فالمعشوق يعين العاشق على ظلم من اتصل به من أهله وأقاربه وسيده وزوجه والعاشق يعين المعشوق على ظلم من يكون غرض المعشوق متوقفا على ظلمه فكل منهما يعين الآخر على أغراضه التي يكون فيها ظلم الناس فيحصل العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما في القبح لتعاونهما بذلك على الظلم وكما جرت به العادة بين العشاق والمعشوقين من إعانة العاشق لمعشوقه على مافيه ظلم وعدوان وبغى حتى ربما يسعي له في منصب لايليق به ولايصلح لمثله في تحصيل مال من غير حله وفي استطالة على غيره فاذا اختصم معشوقه وغيره أوتشاكيا لم يكن الا في جانب المعشوق ظالما كان أومظلوما هذا الى ماينضم الى ذلك من ظلم العاشق للناس بالتحيل على أخذ أموالهم والتوصل بهما الي معشوقه بسرقة أوغصب أوخيانة أويمين كاذبة أوقطع طريق ونحو ذلك وربما أدي ذلك الى قتل النفس التي حرم الله ليأخذ ماله ليتوصل به الى معشوقه فكل هذه الآفات وأضعافها وأضعاف أضعافها تنشأ من عشق الصور وربما حمله على الكفر الصريح وقد تنصر جماعة ممن نشأ في الاسلام بسبب العشق كما جري لبعض المؤذنين حين أبصر وهو على سطح مسجد امرأة جميلة ففتن بها فنزل ودخل عليها وسألها نفسها فقالت هي نصرانية فان دخلت في ديني تزوجت بك ففعل فرقى في ذلك اليوم على درجة عندهم فسقط منها فمات ذكر هذا عبد الحق في كتاب العاقبة له وإذا أراد النصاري أن ينصروا الاسير أروه امرأة جميلة وأمروها أن تطمعه في نفسها حتي إذا تمكن حبها من قلبه بذلت له نفسها ان دخل في دينها فهنالك يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء وفي العشق من ظلم كل واحد من العاشق والمعشوق لصاحبه لمعاونته له على الفاحشة وظلمه لنفسه فكل منهما ظالم لنفسه وصاحبه وظلمهما متعد الى الغير كما تقدم وأعظم من ذلك ظلمهما بالشرك فقد تضمن العشق أنواع الظلم كلها والمعشوق اذا لم يتق الله فانه يعرض العاشق للتلف وذلك ظلم منه بان يطمعه في نفسه ويتزين له ويستميله بكل طريق حتي يستخرج منه ماله ونفعه ولا يمكنه من نفسه لئلا يزول غرضه بقضاء وطره منه فهو يسومه سوء العذاب والعاشق ربما قتل معشوقه ليشفي نفسه منه ولا سيما إذا جاد بالوصال لغيره وكم للعشق من قتيل من الجانبين وكم قد زال من نعمة وأفقر من غني وأسقط من مرتبة وشتت من شمل وكم أفسد من أهل للرجل وولد فان المرأة إذا رأت بعلها عاشقا لغيرها اتخذت هي معشوقا لنفسها

فيصير الرجل متردداً بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة فمن الناس من يؤثر هذا ومنهم من يؤثر هذا فعلى العاقل أن يحكم على نفسه سد عشق الصور لئلا يؤذيه ويؤديه ذلك الى الهلاك والى هذه المفاسد وأكثرها أو بعضها فمن فعل ذلك فهو المفرط بنفسه والمغرر بها فاذا هلكت فهو الذي أهلكها فلولا تكراره النظر الى وجه معشوقه وطمعه في وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه فان أول أسباب العشق الاستحسان سواء تولد عن نظر أو سماع فان لم يقارنه طمع في الوصال وقارنه الاياس من ذلك لم يحدث له العشق فان إقترن به الطمع فصرفه عن فكره ولم يشغل قلبه به لم يحدث له ذلك فان اطاع مع ذلك الفكر في محاسن المعشوق وقارنه خوف ماهو أكبر عنده من لذة وصاله إما خوف ديني كخوف النار وغضب الجبار واجتناب الاوزار وغلب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر لم يحدث له العشق فان فاته هذا الخوف وقارنه خوف دنيوي كخوف إتلاف نفسه وماله وذهاب جاهه وسقوط مرتبته عند الناس وسقوطه من عين من يعز عليه وغلب هذا الخوف لداعي العشق دفعه وكذلك اذا خاف من فوات محبوب هو أحب اليه وأنفع له من ذلك المعشوق وقدم محبته على محبة المعشوق إندفع عنه العشق فانتفاء ذلك كله أو غلبت محبة المعشوق لذلك إنجذب اليه القلب بالكلية ومالت اليه النفس كل الميل فان قيل قد ذكرتم آفات العشق ومضاره ومفاسده فهلا ذكرتم منافعه وفوائده التي من جملتها رقة الطبع وترويح النفس وخفتها وزوال ثقلها ورياضتها وحملها على مكارم الاخلاق من الشجاعة والكرم والمروؤة ورقة الحاشية ولطف الجانب وقد قيل ليحي بن معاذ الرازي إن ابنك قد عشق فلانة فقال الحمد لله الذى صيره الى الطبع الآدمي وقال بعضهم العشق داء أفئدة الكرام وقال غيره العشق لا يصلح الا لذي مروءة طاهرة وخليقة طاهرة أولذي لسان فاضل وإحسان كامل أو لذي أدب بارع وحسب ناصع وقال آخر العشق حنان الجبان ويصفي ذهن الغبي ويسخي كف البخيل ويذل عزة الملوك ويسكن نوافر الاخلاق وهو أنيس من لا أنيس له وجليس من لا جليس له وقال آخر العشق يزيل الأثقال ويلطف الروح ويصفي كدر القلب ويوجب الارتياح لافعال الكرام كما قيل

سيهلك في الدنيا شفيق عليكم * اذا غاله من حادث الحب غائله
كريم يميت السر حتى كانه * إذا إستفهموه عن حديثك جاهله
يودبان يمسي سقيماً لعلها * إذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويهتز للمعروف في طلب العلي * لتحمد يوما عند ليلى شمائله

فالعشق يحمل على مكارم الاخلاق وقال بعض الحكماء العشق يروض النفس ويهذب

الاخلاق إظهاره طبعي وإضماره تكلفي وقال الآخر من لم تبتهج نفسه بالصوت الشجي والوجه البهي فهو فاسد المزاج يحتاج الى علاج وأنشد في ذلك المعنى

اذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى * فما لك في طيب الحياة نصيب

وقال الآخر

اذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى * فقم واعتلف تبنا فانت حمار

وقال آخر

اذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى * فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

وقال بعض العشاق أولي العفة والصيانة اذا عفوا تشرفوا واذا عشقوا تظرفوا وقيل لبعض العشاق ما كنت تصنع بمن تهوي لو ظفرت به فقال كنت أمتع طرفي بوجهه وأروح قلبي بذكره وحديثه واسترمنه مالا أحب كشفه ولا أصير بقبيح الفعل الى ماينقض عهده ثم أنشد

أخلو به فأعف عنه تكرماً * خوف الديانة لست من عشاقه

كالماء في يد صائم يلتذ به * ظمأ فيصبر عن لذيذ مذاقه

وقال أبو اسحق بن ابراهيم أرواح العشاق عطرة لطيفة وأبدانهم رقيقة خفيفة نزهتهم المؤانسة وكلامهم يحيي موات القلوب ويزيد في العقول ولولا العشق والهوى لبطل نعيم الدنيا وقال آخر العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان أن تركته ضرك وان أكثرت منه قتلك وفي ذلك قيل

خليلي إن الحب فيه لذاذة * وفيه شقاء دائم وكروب

على ذاك ماعيش يطيب بغيره * ولا عيش الا بالحبيب يطيب

ولا خير في الدنيا بغير صبابة * ولا في نعيم ليس فيه حبيب

وذكر الخرائطي عن ابي غسان قال مر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجارية وهي تقول

وهويته من قبل قطع تمائمي * متمايلا مثل القضيب الناعم

فسألها أحرة أنت أم مملوكة قالت بل مملوكة فقال تهوين فتلكأت فاقسم عليها فقالت

وأنا التي لعب الهوى بفؤادها * قتلت بحب محمد بن القاسم

فاشتراها من مولاها وبعث بها الى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب فقال هؤلاء والله فتن الرجال وكم والله قد مات بهن كريم وعطب بهن سليم وجاءت جارية عثمان بن عفان رضى الله عنه تستعدى على رجل من الانصار قال لها عثمان ماقصتك قالت كلفت ياأمير المؤمنين بابن أخيه فما انفك أداعبه فقال له عثمان إما أن تهبها الى ابن أخيك أو أعطيك ثمنها من مالي فقال أشهدك ياأمير المؤمنين إنها له ونحن لاننكر فساد العشق الذي يتعلق به

فعل الفاحشة بالمعشوق وإنما الكلام في العشق العفيف من الرجل الظريف الذي يأبى له إيمانه ودينه وعفته ومروءته ان يفسد مابينه وبين الله وما بينه وبين معشوقه بالحرام وهذا عشق السلف الكرام والائمة الاعلام فهذا عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة عشق حتى اشتهر أمره ولم ينكر عليه وعد ظالما من لامه ومن شعره

كتمت الهوى حتى أضربك الكتم * ولامك أقوام ولومهم ظلم

فنم عليك الكاشحون وقبلهم * عليك الهوى قد نم ماينفع الكتم

فأصبحت كالنمري إذ مات حسرة * على أثر هند اوكمن شفه سقم

تجنبت إتيان الحبيب تأثما * ألا إن هجران الحبيب هو الاثم

فذق هجرها قد كنت تزعم أنه * رشاد ألا يا ربما كذب الزعم

وهذا عمر بن عبد العزيز وعشقه لجارية فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وإمرأته مشهورة وكانت جارية بارعة الجمال وكان معجبا بها وكان يطلبها من إمرأته ويحرص على ان تهبها له فتأبى ولم تزل الجارية في نفس عمر فلما استخلف أمرت فاطمة بالجارية فاصلحت وكانت مثلا في حسنها وجمالها ثم دخلت على عمر وقالت ياأمير المؤمنين انك كنت معجبا بجاريتي فلانة فسألتنيها ان أهبهالك فأبيت عليك والآن فقد طابت نفسي لك بها فلماقالت له ذلك استبان الفرح في وجهه وقال عجلي بها علي فلما دخلت بها عليه ازداد بها عجباوقال لها القي ثيابك ففعلت ثم قال لها على رسلك اخبريني لمن كنت ومن أين صرت لفاطمة فقالت أغرم الحجاج عاملا له بالكوفة مالا وكنت في رفيقة ذلك قالت فأخذني وبعث بي الى عبد الملك فوهبني لفاطمة قال وما فعل ذلك العامل قالت هلك قال وهل ترك ولدا قالت نعم قال فما حالهم قالت سيئة قال شدي عليك ثيابك واذهبي الى مكانك ثم كتب الى عامله على العراق أن ابعث الي فلان بن فلان على البريد فلما قدم قال له ارفع الي جميع ماأغرمه الحجاج لابيك فلم يرفع اليه شيئاً الا دفعه اليه ثم أمر بالجارية فدفعت اليه ثم قال له اياك واياها فلعل أباك قد وقع بها فقال الغلام هي لك ياأمير المؤمنين قال لاحاجة لي بها قال فابتعها مني قال لست اذا ممن نهى نفسه عن الهوى فلما عزم الفتى على الانصراف قالت أين وجدك بي ياأمير المؤمنين قال على حاله ولقد زادني ولم تزل الجارية في نفس عمر حتى مات رحمه الله وهذا أبو بكر بن محمد بن داود الظاهري العالم المشهور في فنون العلم من الفقه والحديث والتفسير والادب وله قول في الفقه وهو من أكابر العلماء وعشقه مشهور قال نفطويه دخلت عليه في مرضه الذي مات فيه فقلت كيف تجدك قال حب من تعلم أورثني ماترى فقلت وما يمنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه فقال الاستمتاع على وجهين أحدهما

النظر المباح والآخر اللذة المحظورة فاما النظر المباح فهو الذى أورثني ماترى وأما اللذة المحظورة يمنعني منها ماحدثني أبي حدثناسويدبن سعيد حدثنا علي بن مسهر عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه من عشق وكتم وعف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة ثم أنشد

انظر الى السحر يجري من لواحظه * وانظر الى دعج في طرفه الساج
وانظر الى شعرات فوق عارضه * كأنهن نمال دب في عاج

(ثم أنشد)

مالهم أنكروا سواداً بخديه * ولا ينكرون ورد الغصون
ان يك عيب خده بدو لشعر * فعيب العيون شعر الجفون

فقلت له نفيت القياس في الفقه وأثبته في الشعر فقال غلبة الوجد وملكة الوجه النفس دعت اليه ثم مات من ليلته وبسبب معشوقه صنف كتاب الزهرة ومن كلامه فيه من يبأس يمن يهواه ولم يمت من وقته سلاه وذلك ان أول روعات الناس تأتي القلب وهو غير مستعد لها فأما الثانية تأتي القلب وقد وطأت لها الروعة والتقى هو وأبو العباس بن شريح في مجلس أبي الحسن على بن عيسى الوزير فتناظرا في مسألة من الايلاء قال له ابن شريح أنت بأن تقول من دامت لحظاته كثرت حسراته أحذق منك بالكلام على الفقه فقال الآن كان ذلك فاني أقول

أنزه في روض المحاسن مقلتي * وأمنع نفسي أن تنال محرما
وأحمل من ثقل الهوى مالو أنه * يصب على الصخر الاصم تهدما
وينطق طرفي عن مترجم خاطري * فلولا اختلاس وده لتكلما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم * فلست أرى وداً صحيحا مسلما

فقال له أبو العباس بن شريح بم تفتخر علي ولو شئت لقلت

مطاعمه كالشهد في نغماته * قد بت أمنعه لذيذ سناته
بصبابه وبحسنه وحديثه * وأنزه اللحظات عن وجناته
حتى اذا ما الصبح راح عموده * ولى بخاتم ربه وبراته

فقال أبو بكر يحفظ عليه الوزير ماأقربه حتى يقيم شاهدين على انه ولى بخاتم ربه وبراءته فقال ابن شريح يلزمني في هذا مايلزمك في قولك

أنزه في روض المحاسن مقلتي * وأمنع نفسي أن تنال محرما

فضحك الوزير فقال لقد جمعتما لطفا وظرفا ذكر ذلك أبو بكر الخطيب في تاريخه وجاءته يوما فتيا مضمونها

يا إبن داود يافقيه العراق * إفتنا في فواتر الاحداق
هل عليها بما أتت من جناح * أم حلال لها دم العشاق

فكتب تحت البيتين بخطه

عندي جواب سائل العشاق * فاسمعه من قرح الحشا مشتاق
لما سئلت عن الهوى هيجتني * وأرقت دمعا لم يكن مهراق
ان كان معشوقا يعذب عاشقا * كان المعذب أنعم العشاق

قال صاحب كتاب منازل الاحباب شهاب الدين محمود بن سليمان بن مهدي صاحب كتاب الانشاء وقلت في جواب البيتين على قافيتهما مجيبا للسائل

قل لمن جاء سائلا عن لحاظ * هن يلعبن في دم العشاق
ماعلى السيف في العدا من جناح * ان ثني الحد عن دم مهراق
وسيوف اللحاظ أولى بأن * تصفح عما جنت على العشاق
انما كل من قتلن شهيد * ولهذا يفني فنا وهو باق

ونظير ذلك فتوى وردت على الشيخ أبي الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذاني شيخ الحنابلة في وقته رحمه الله

قل للامام أبي الخطاب مسألة * جاءت اليك وما أخال سواك لها
ماذا على رجل رام الصلاة فمذ * لاحت مخاطرة ذات الجمال لها

فأجابه تحت سؤاله

قل للأديب الذي وافى بمسألة * سرت فؤادي لما ان أصخت لها
إن الذي فتنته عن عبادة ربه * فريدة ذات حسن فانثنى ولها
إن تاب ثم قضا عنه عبادة ربه * فرحمة الله تغشى من عصى ولها

وقال عبد الله بن معمر القيسي حججت سنة ثم دخلت مسجد المدينة لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم فبينما أنا جالس ذات ليلة بين القبر والمنبر اذ سمعت أنينا فأصغيت اليه فاذا هو يقول

أشجاك نوح حمائم السدر * فأهجن منك بلابل الصدر
أم عز نومك ذكر غانية * أهدت اليك وساوس الفكر
ياليلة طالت على دنف * يشكو السهاد وقلة الصبر
أسلمت من تهوى لحر جوى * متوقد كتوقد الجمر
فالبدر يشهد إنني كلف * مغرم بحب شبيهة البدر

ما كنت أحسبني أهيم بحبها * حتى بليت وكنت لا أدري

ثم انقطع الصوت فلم أدر من أين جاء واذا به قد عاد البكاء والانين ثم أنشد يقول

أشجاك من ريا خيال زائر * والليل مسود الذوائب عاكر
واعتاد مهجتك الهوى برشيشة * وأهتاج مقلتك الخيال الزائر
ناديت ريا والظلام كأنه * يم تلاطم فيه موج زاخر
والبدر يسري في السماء كأنه * ملك ترجل والنجوم عساكر
وترى به الجوزاء ترقص في الدجي * رقص الحبيب علاه سكر طاهر
ياليل طلت على محب ماله * إلا الصباح مساعد ومؤازر
فاجابني مت حتف أنفك واعلمن * إن الهوى لهو الهوان الحاضر

قال وكنت ذهبت عند ابتدائه بالابيات فلم يتنبه الا وأنا عنده فرأيت شابا مقبلا شبابه قد خرق الدمع في خده خرقين فسلمت عليه فقال إجلس من أنت فقلت عبد الله بن معمر القيسي قال ألك حاجة قلت نعم كنت جالسا في الروضة فما راعني الا صوتك فبنفسي افديك فما الذي تجده فقال أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الانصاري غدوت يوما الى مسجد الاحزاب فصليت فيه ثم اعتزلت غير بعيد فاذا بنسوة قد أقبلن يتهادين مثل القطا واذا في وسطهن جارية بديعة الجمال كاملة الملاحة فوقفت علي وقالت ياعتبة ماتقول في وصل من يطلب وصلك ثم تركتني وذهبت فلم أسمع لها خبراً ولم أقف لها على أثر فأنا حيران أنتقل من مكان الى مكان ثم انصرع وأكب مغشيا عليه ثم أفاق كأنما أصبغت وجنتاه بورس ثم أنشد يقول

أراكم بقلبي من بلاد بعيدة * فياهل تروني بالفؤاد على بعدي
فؤادي وطرفي تاسفان عليكم * وعندكم روحي وذكركم عندي
ولست ألذ العيش حتى أراكم * ولو كنت في الفردوس جنة الخلد

فقلت ياإبن أخي تب الى ربك واستغفره من ذنبك فبين يديك هول المطلع فقال ما أنا بسائل حتى يذوب العارضان فلم أزل معه حتى طلع الصباح فقلت قم بنا الى مسجد الاحزاب فلعل الله أن يكشف كربتك فقال أرجوا ذلك ان شاء الله ببركة طاعتك فذهبنا حتى أتينا مسجد الاحزاب فسمعته يقول

ياللرجال ليوم الاربعاء أما * ينفك يحدث لي بعد النهار طربا
ماإن يزال غزال منه يقلقني * يأتي الى مسجد الاحزاب منتقبا
يخبر الناس إن الاجر همته * وما أتى طالبا للاجر محتسبا

لو كان يبغي ثوابا ما أتى صلفا * مضمخا بفتيت المسك مختضبا

ثم جلسنا حتى صلينا الظهر فاذا بالنسوة قد أقبلن وليست الجارية فيهن فوقفن عليه وقلن له ياعتبة ماظنك بطالبة وصلك وكاشفة بالك قال وما بالها قلن أخذها أبوها وارتحل بها الى أرض السماوة فسئلتهن عن الجارية فقلن هي ريا بنت الغطريف السلمي فرفع عتبة اليهن رأسه وقال

خليلي ريا قد أجد بكورها * وسارت الى أرض السماوة غيرها
خليلي إني قد غشيت من البكا * فهل عند غيري مقلة أستعيرها

فقلت له إني قد وردت بمال جزيل أريد به أهل الستر ووالله لأبذلنه امامك حتى تبلغ رضاك وفوق الرضاء فقم بنا الى مسجد الانصار فقمنا وسرنا حتى أشرفنا على ملأ منهم فسلمت فأحسنوا الرد فقلت أيها الملأ ماتقولون في عتبة وأبيه قالوا من سادات العرب قلت فانه قد رمى بداهية من الهوي وماأريد منكم الا المساعدة الى السماوة فقالوا سمعا وطاعة فركبنا وركب القوم معنا حتى أشرفنا على منازل بني سليم فأعلم الغطريف بنا فخرج مبادرا فاستقبلنا وقال حييتم بالاكرام فقلنا وأنت فحياك الله إنا لك أضياف فقال نزلتم أكرم منزل فنادي يامعشر العبيد أنزلوا القوم ففرشت الانطاع والنمارق وذبحت الذبائح فقلنا لسنا بذائقي طعامك حتى تقضي حاجتنا فقال وما حاجتكم قلنا نخطب عقيلتك الكريمة لعتبة بن الحباب بن المنذر فقال إن التي تخطبونها أمرها الى نفسها وأنا أدخل أخبرها ثم دخل مغضبا على إبنته فقالت ياأبت مالي أرى الغضب في وجهك فقال قد ورد الانصار يخطبونك مني فقالت سادات كرام إستغفر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم فلمن الخطبة منهم قال لعتبة قالت والله لقد سمعت عن عتبة هذا إنه يفي بما وعد ويدرك اذا قصد فقال أقسمت لاأزوجنك إياه أبدا ولقد نمى الي بعض حديثك معه فقالت ماكان ذلك ولكن اذا أقسمت فان الانصار لايردون ردا قبيحا فأحسن لهم الرد فقال بأي شيء قالت اغلظ عليهم المهر فانهم قوم يرجعون ولا يجيبون فقال ماأحسن ماقلت فخرج مبادرا عليهم فقال ان فتاة الحي قد أجابت ولكني أريد لها مهر مثلها فمن القائم به فقال عبد الله بن معمر أنا فقل ماشئت فقال ألف مثقال من الذهب ومائة ثوب من الابراد وخمسة أكرسة من عنبر فقال عبد الله لك ذلك كله فهل أجبت قال نعم قال عبد الله فأنفذت نفرا من الانصار الى المدينة فأتوا بجميع ماطاب ثم صنعت الوليمة فاقمنا على ذلك أياما ثم قال خذوا فتاتكم وانصرفوا مصاحبين ثم حملها في هودج وجهزها بثلاثين راحلة من المتاع والتحف فودعناه وسرنا حتى اذا بقى بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة خرجت علينا خيل تريد الغارة

أحسبها من سليم فحمل عليها عتبة فقتل منهم رجالا وجندل منهم آخرين ثم رجع وبه طعنة تفور دما فسقط الى الارض وأتانا نجدة فطردت الخيل عنا وقد قضى عتبة نحبه فقلنا واعتبتاه فسمعتنا الجارية فألقت نفسها عن البعير وجعلت تصيح بحرقة وأنشدت

تصبرت لاإنى صبرت وإنما * أعالل نفسي انها بك لاحقه

فلوأنصفت روحي لكانت الى الردي * أمامك من دون البريه سابقه

فما أحد بعدي وبعدك منصف * خليلا ولا نفس لنفس موافقه

ثم شهقت وقضت نحبها فاحتفرنا لهما قبرا واحدا ودفناهما فيه ثم رجعت الى المدينة فأقمت سبع سنين ثم ذهبت الى الحجاز ووردت المدينة فقلت والله لآتين قبر عتبة أزوره فأتيت القبر فاذا عليه شجرة عليها عصائب حمر وصفر فقلت لأرباب المنزل مايقال لهذه الشجرة قالوا شجرة العروسين ولولم يكن في العشق من الرخصة المخالفة للتشديد إلا الحديث الوارد بالحسن من الأسانيد وهو حديث سويد بن سعيد بن على بن مسهر عن أبي يحيي القتات عن مجاهد عن ابن العباس يرفعه من عشق وعف وكتم فمات فهو شهيد ورواه سويد أيضاً عن ابن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعا ورواه الخطيب عن الازهري فى الام عن المعافا بن زكريا عن قطبة عن ابن الفضل عن أحمد بن مسروق عنه ورواه الزبير بن بكار عن عبد العزيز الماجشون عن عبد العزيز ابن أبى حاتم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس وهذا سيد الاولين والآخرين ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم نظر الي زينب بنت جحش رضي الله عنها فقال سبحان مقلب القلوب وكانت تحت زيد بن حارثة مولاه فلما هم بطلاقها قال له اتق الله وامسك عليك زوجك فلما طلقها زوجها الله سبحانه من رسوله صلى الله عليه وسلم من فوق سبع سموات فكان هو وليها وولى تزويجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقد عقد نكاحها فوق عرشه وأنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه وهذا داود نبي الله عليه السلام لما كان تحته تسعة وتسعين امرأة ثم أحب تلك المرأة وتزوجها وأكمل بها المأة قال الزهري أول حب كان فى الاسلام حب النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها وكان مسروق يسميها حبيبة رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم وقال أبو قيس مولي عبد الله ابن عمرو أرسلني عبد الله بن عمرو الى أم سلمة أسألها أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل أهله وهو صائم فقالت لا فقال إن عائشة رضي الله عنها قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبلها وهو صائم فقالت أم سلمة رضي الله

عنها إن النبي صل الله عليه وسلم كان إذا رأي عائشة لم يتمالك نفسه عنها وذكر سعيد بن إبراهيم عن عامر بن سعيد عن أبيه قال كان إبراهيم خليل الله يزوره جبرائيل في كل يوم من الشام على البراق من شغفه به وقلة صبره عنه وذكر الخرائطي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما اشتري جارية رومية فكان يحبها حبا شديدا فوقعت ذات يوم عن بغلة له فجعل يمسح التراب عن وجهها ويفديها ويقبلها وكانت تكثر من أن تقول له يابطرون أنت قالون تعني يامولاي أنت جيد ثم إنها هربت منه فوجد عليها وجدا شديدا فقال

قد كنت أحسبني قالون فانصرفت * فاليوم أعلم إني غير قالون

قال أبو محمد بن حزم وقد أحب من الخلفاء الراشدين والائمة المهتدين كثير وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ياأمير المؤمنين رأيت امرأة فعشقتها فقال ذلك مالا يملك فالجواب وبالله التوفيق ان الكلام فى هذا الباب لابد فيه من التمييز بين الواقع والجائز والنافع والضار ولا يستعجل عليه بالذم والانكار ولا بالمدح والقبول من حيث الجملة وانما يتبين حكمه وينكشف أمره بذكر متعلقه والا فالعشق من حيث هو لايحمد ولا يذم ونحن نذكر النافع من الحب والضار والجائز والحرام اعلم ان أنفع المحبة على الاطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جبلة القلوب على محبته وفطرت الخليقة على تألهه وبها قامت الارض والسموات وعليها فطر المخلوقات وهي سر شهادة أن لا إله إلا الله فان الآله هو الذي تألهه القلوب بالمحبة والاجلال والتعظيم والذل والخضوع وتعبده والعبادة لاتصح الاله وحده والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل والشرك في هذه العبودية من أظلم الظلم الذي لايغفره الله والله سبحانه يحب لذاته من سائر الوجوه وما سواه فانما يحب تبعا لمحبته وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة ودعوة جميع رسله صلى الله عليهم وسلم أجمعين وفطرته التي فطر عليها عباده وما ركب فيها من العقول وما أسبغ عليهم من النعم فان القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن اليها فكيف بمن كل الاحسان منه وما بخلقه جميعهم من نعمه فمنه وحده لاشريك له كما قال تعالى وما بكم من نعمة فمن الله الآية وما تعرف به الى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العليا وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته والمحبة لها داعيين الجلال والجمال والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك فانه جميل يحب الجمال بل الجمال كله له والاجمال كله منه فلا يستحق ان يحب لذاته من كل وجه سواه قال الله تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله وقال تعالي ياأيها الذين آمنو من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه الآية والولاية أصلها الحب فلا موالات الابحب

كما ان المداوة أصلها البغض والله ولى الذين آمنوا وهم أولياؤه فهم يوالونه بمحبتهم له وهو يواليهم بمحبته لهم فالله يوالى عبده المؤمن بحسب محبته له ولهذا أنكر سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء بخلاف من والى أولياءه فانه لم يتخذهم من دونه بل موالاته لهم من تمام موالاته وقد أنكر على من سوي بينه وبين غيره في المحبة وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباالله واخبر عمن سوي بينه وبين الانداد في المحبة أنهم يقولون في النار لمعبوديهم تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين وبهذا التوحيد في المحبة أرسل الله سبحانه جميع رسله صلى الله عليهم وسلم وأنزل جميع كتبه وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من أولهم الى آخرهم ولاجله خلقت السموات والارض والجنة والنار فجعل الجنة لاهله والنار للمشركين به وفيه وقد أقسم النبي صلى الله عليه وسلم أنه لايؤمن عبد حتى يكون هو أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين فكيف بمحبة الرب جل جلاله وقال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه لاحتى أكون أحب اليك من نفسك أى لاتؤمن حتى تصل محبتك لي الى هذه الغاية فاذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أولى بنا من أنفسنا بالمحبة ولوازمها أفليس الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره أولى بمحبته وعبادته من أنفسهم وكل مامنه الى عبده المؤمن يدعوه الى محبة مايحب العبد ويكرهه فعطاؤه ومنعه ومعافاته وابتلائه وقبضه وبسطه وعدله وفضله وأمانته وإحياؤه ولطفه وبره ورحمته وإحسانه وستره وعفوه وحلمه وصبره على عبده وإجابته لدعائه وكشف كربه وإغاثة لهفته وتفريج كربته من غير حاجة منه اليه بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه كل ذلك داع للقلوب الى تألهه ومحبته بل تمكينه عبده من معصيته وإعانته عليه وستره حتى يقضي وطره منها وكلاءته وحراسته له وهو يقضي وطره من معصيته وهو يعينه ويستعين عليها بنعمه من أقوى الدواعي الى محبته فلو ان مخلوقا فعل بمخلوق أدني شيء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته فكيف لايحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن اليه على الدوام بعدد الأنفاس مع إساءته نخيره اليك نازل وشرك اليه صاعد يحبب اليه بنعمه وهو غني عنه والعبد يتبغض اليه بالمعاصي وهو فقير اليه فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يصده عن معصيته ولا معصية العبد ولومه يقطع إحسان ربه عنه فألأم اللؤم تخلف القلوب عن محبة من هذا شأنه وتعلقها بمحبة سواه وأيضا فكل من تحبه من الخلق أو يحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك والرب سبحانه وتعالى يريدك لك كما في الأثر الآلهي عبدي كل يريدك لنفسه وأنا أريدك لك فكيف لايستحي العبد أن يكون ربه له بهذه المنزلة

وهو معرض عنه مشغول بحب غيره وقد استغرق قلبه محبة ماسواه وأيضا فكل من تعامله
من الخلق ان لم يربح عليك لم يعاملك ولا بدله من نوع من أنواع الربح والرب تعالى إنما
يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه فالدرهم بعشرة أمثاله الى سبعمائة ضعف الى
أضعاف كثيرة والسيئة بواحدة وهي أسرع شيء محوا وأيضا فهو سبحانه خلقك لنفسه
وكل شيء خلق لك في الدنيا والآخرة فمن أولى منه باستفراغ الوسع في محبته وبذل الجهد
في مرضاته وأيضا فمطالبك بل مطالب الخلق كلهم جميعا لديه وهو أجود الاجودين
وأكرم الاكرمين ويعطي عبده قبل أن يسأله فوق مايؤمله يشكر على القليل من العمل
وينميه ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه ويسأله من في السموات والارض كل يوم هو في
شأن لايشغله سمع عن سمع ولا يغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بالحاح الملحين بل يحب
الملحين في الدعاء ويحب أن يسئل ويغضب اذا لم يسئل فيستحي من عبده حيث لايستحي
العبد منه ويستره حيث لايستر نفسه ويرحمه حيث لايرحم نفسه دعاه بنعمته وإحسانه
وناداه الى كرامته ورضوانه فأبى فأرسل رسله صلى الله عليهم وسلم في طلبه وبعث
معهم اليه عهده ثم نزل سبحانه بنفسه وقال من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له
أدعوك للوصل فتأبى أبعث رسلي في الطلب أنزل اليك بنفسي ألقاك في النوم وكيف
لا تحب القلوب من لايأتي بالحسنات إلاهو ولا يذهب بالسيئات الاهو ولايجيب الدعوات
ويقيل العثرات ويغفر الخطيئات ويستر العورات ويكشف الكربات ويغيث اللهفات وينيل
الطلبات سواه فهو أحق من ذكر وأحق من شكر وأحق من حمد وأحق من عبد
وأنصر من ابتغي وأرأف من ملك وأجود من سئل وأوسع من أعطي وأرحم من استرحم
وأكرم من قصد وأعز من التجئ اليه وأكفي من توكل عليه أرحم بعبده من الوالدة بولدها
وأشد فرحا بتوبة عباده التائبين من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الارض المهلكة
اذا يأس من الحياة فوجدها وهو الملك فلا شريك له والفرد فلا ندله كل شيء هالك الا
وجهه لن يطاع الا باذنه ولن يعصى الا بعلمه يطاع فيشكر وبتوفيقه ونعمته أطيع ويعصي
فيغفر ويعفو وحقه أضيع فهو أقرب شهيد وأدنى حفيظ وأوفى وفي بالعهد وأعدل قائم
بالقسط حال دون النفوس وأخذ بالنواصي وكتب الآثار ونسخ الآجال فالقلوب له مفضية
والسر عنده علانية والعلانية والغيوب لديه مكشوف وكل أحد اليه ملهوف وعنت الوجوه
لنور وجهه وعجزت القلوب عن إدراك كنهه ودلت الفطرة والادلة كلها على إمتناع مثله
وشبهه أشرقت لنور وجهه الظلمات إستنارت له الارض والسموات وصلحت عليه جميع
المخلوقات لاينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار

وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه

ماعتاض باذل حبه لسواه من * عوض ولو ملك الوجود بأسره

فصل

وههنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به وهو أن كمال اللذة والسرور والفرح ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لامرين أحدهما كمال المحبوب في نفسه وجماله وإنه أولى بايثار المحبة من كل ماسواه والامر الثاني كمال محبته واستفراغ الوسع في حبه وإيثار قربه والوصول اليه على كل شيء وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوته ومحبته فكل ما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحب أكمل فلذة من اشتد ظمؤه بادراك الماء الزلال ومن اشتد جوعه باكل الطعام الشهي ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته فاذا عرفت هذا فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه بل هو مقصود كل حي وعاقل واذا كانت اللذة مطلوبة في نفسها فهي تذم اذا أعقبت ألم أعظم منها أو منعت لذة خيراً منها وأجل فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات وفوتت أعظم اللذات والمسرات وتحمد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لاتنغيص فيها ولا نكد بوجه ما وهي لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها قال تعالى بل تؤثرون الحيوة الدنيا والآخرة خير وأبقى وقال السحرة لفرعون لما آمنوا اقض ماأنت قاض إنما تقضي هذه الحيوة الدنيا الآية والله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليبتليهم ونيل من أطاعه هذه اللذة الدائمة في دار الخلد وأما الدنيا فمنقطعة ولذاتها لاتصفو أبداً ولا تدوم بخلاف الآخرة فان لذاتها دائمة ونعيمها خالص من كل كدر وألم وفيها ماتشتهيه الانفس وتلذ الاعين مع الخلود أبداً فلا تعلم نفس ماأخفي لهم من قرة أعين بل فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا المعنى الذي قصده الناصح لقومه بقوله ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ياقوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار فاخبرهم ان الدنيا متاع ليستمتع بها الى غيرها وان الآخرة هي المستقر واذا عرفت أن لذات الدنيا متاع وسبيل الى لذات الآخرة ولذلك خلقت الدنيا لذاتها فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت اليها لم يذم تناولها بل يحمد لحسب ايصالها الى لذة الآخرة اذا عرف فاعظم نعيم الآخرة ولذاتها النظر الى وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والقرب منه كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية فوالله ماأعطاهم شيئاً أحب اليهم من النظر اليه وفي حديث آخر إنه اذا تجلي لهم ورأوه نسوا ماهم فيه من النعيم وفى النسائي ومسند الامام أحمد من حديث عمار بن ياسر رضي الله

عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه واسئلك اللهم لذة النظر الى وجهك الكريم والشوق الى لقائك وفي كتاب السنة لعبد الله بن الامام أحمد مرفوعا كأن الناس يوم القيمة لم يسمعوا القرآن من الرحمن فاذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوا قبل ذلك فاذا عرف هذا فاعظم الاسباب التي تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الاطلاق وهي لذة معرفته سبحانه ولذة محبته فان ذلك هو لذة الدنيا ونعيمها العالي ونسبة لذاتها الفانية اليه كتفلة في بحر فان الروح والقلب والبدن انما خلق لذلك فاطيب مافي الدنيا معرفته سبحانه ومحبته وألذما في الجنة رؤيته ومشاهدته فمحبته ومعرفته قرة العيون ولذة الارواح وبهجة القلوب ونعيم الدنيا وسرورها من اللذة القاطعة عن ذلك تنقلب آلاما وعذابا ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك فليس الحياة الطيبة الابالله وكان بعض المحبين تمر به أوقات فيقول إن كان أهل الجنة في نعيم بمثل هذا إنهم لفي عيش طيب وكان غيره يقول لو يعلم الملوك وأبناء الملوك مانحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف وإذا كان صاحب المحبة الباطلة التي هي عذاب على قلب المحب يقول في حاله

وماالناس إلاالعاشقون ذووالهوى * فلاخير فيمن لايحب ويعشق

ويقول الآخر

أف للدنيا متى ما لم يكن * صاحب الدنيا محب أو حبيب

ويقول الآخر

ولاخير في الدنيا ولافي نعيمها * وأنت وحيد مفرد غير عاشق

ويقول الآخر

أسكن الى سكن تلذ بحبه * ذهب الزمان وأنت منفرد

ويقول الآخر

تشكى المحبون الصبابة ليتني * تحملت مايلقون من بينهم وحدي
فكانت لقلبي لذة الحب كلها * فلم يلقها قبلي محب ولابعدي

فكيف بالمحبة التي هي حياة القلوب وغذاء الارواح وليس للقلب لذة ولانعيم ولا فلاح ولاحياة الابها وإذافقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها والأذن إذا فقدت سمعها والانف إذا فقد شمه واللسان إذا فقد نطقه بل فساد القلب إذا خلى من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلي منه الروح وهذا الامر لايصدق به الامن فيه حياة ومالجرح ميت ايلام والمقصود إن أعظم لذات الدنيا هي السبب الموصل الى أعظم لذة في الآخرة ولذات الدنيا ثلاثة أنواع فاعظمها وأكملها ماأوصل الى

لذة الآخرة ويثاب الانسان على هذه اللذة أتم ثواب ولهذا كان المؤمن يثاب على مايقصد به وجه الله من أكله وشربه ولبسه ونكاحه وشفاء غيظ لقهر عدوالله وعدوه فكيف بلذة إيمانه ومعرفته بالله ومحبته له وشوقه الى لقائه وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم النوع الثاني لذة تمنع لذة الآخرة وتعقب آلاما أعظم منها كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثانا مودة بينهم في الحياة الدنيا يحبونهم كحب الله ويستمتع بعضهم ببعض كما يقولون في الآخرة إذا لقوا ربهم ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا الآية الى قوله يكسبون ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغي في الارض والعلو بغير الحق وهذه اللذات في الحقيقة إنما هي استدراج من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام ويحرمهم بها أكمل اللذات بمنزلة من قدم لغيره طعام لذيذ مسموم يستدرجه به الى هلاكه قال تعالى سنستدرجهم من حيث لايعلمون الآية الى قوله إن كيدي متين قال بعض السلف في تفسيرها كل ما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون الآية الى قوله والحمد لله رب العالمين وقال تعالى لاصحاب هذه اللذة أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لايشعرون وقال في حقهم فلا تعجبك أموالهم ولاأولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا الآية وهذه اللذة تنقلب آلاما من أعظم الآلام كما قيل

يارب كائنة في الحياة لاهلها * عذبا فصارت في المعاد عذابا

النوع الثالث لذة لاتعقب لذة في دار القرار ولاألما يمنع وصول لذة دار القرار وإن منعت كمالها وهذه اللذة المباحة التي لايستعان بها على لذة الآخرة فهذه زمانها يسير ليس لتمتع النفس بها قدر ولابد أن يشتغل عماهو خير وأنفع منها وهذا القسم هو الذي عناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل الارميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته امرأته فانهن من الحق فماأعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق ومالم يعن عليها فهو باطل

فصل

فهذا الحب لاينكر ولايذم بل هو أحد أنواع الحب وكذلك حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما نعني بالمحبة الخاصة وهي التي تشغل قلب المحب وفكره وذكره لمحبوبه والا فكل مسلم في قلبه محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولايدخل الاسلام إلابها والناس متفاوتون في درجات هذه المحبة تفاوت لايحصيه إلاالله فبين محبة الخليلين صلى الله عليهما وسلم ومحبة غيرهما مابينهما فهذه المحبة هي التي تلطف وتخفف أثقال التكاليف وتسخي

البخيل وتشجع الجبان وتصفي الذهن وتروض النفس وتطيب الحياة على الحقيقة لامحبة الصور المحرمة وإذا بليت السرائر يوم اللقاء كانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد كما قيل

سيبقى لكم في مضمر القلب والحشا * سريرة حب يوم تبلى السرائر

وهذه المحبة هي التي تنور الوجه وتشرح الصدر وتحيي القلب وكذلك محبة كلام الله فانه من علامة حب الله واذا أردت أن تعلم ماعندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة القرآن من قلبك وإلتذاذك سماعه أعظم من إلتذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم فانه من المعلوم أن من أحب حبيباً كان كلامه وحديثه أحب شيئاً اليه كما قيل

ان كنت تزعم حبي فلم هجرت كتابي * أما تأملت مافيه من لذيذ خطابي

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله وكيف يشبع المحب من كلام من هو غاية مطلوبه وقال النبي صلى الله عليه وسلم يوما لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه إقرأ علي فقال أقرأ عليك وعليك أنزل فقال إني أحب أن أسمعه من غيري فاستفتح فقرأ سورة النساء حتي إذا بلغ قوله فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً قال حسبك الآن فرفع رأسه فاذا عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان من البكاء وكان الصحابة اذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون ياأبا موسى إقرأ علينا فيقرأوهم يستمعون فلمحبي القرآن من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور أضعاف مالمحبي السماع الشيطاني فاذا رأيت الرجل ذوقه وشدة وجده وطربه وشوقه سماعه الابيات دون سماع الآيات في سماع الالحان دون سماع القرآن وهو كما قيل

تقرأ عليك الختمة وأنت جامد كالحجر * وبيت من الشعر ينشد فتميل كالنشوان

فهذا من أقوي الادلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه وتعلقه بمحبة سماع الشيطان والمغرور يعتقد انه على شيء في محبة الله وكلامه ورسوله صلى الله عليه وسلم أضعاف أضعاف ماذكر السائل من فوائد العشق ومنافعه بل لاحب على الحقيقة أنفع منه وكل حب سوى ذلك باطل ان لم يعن عليه ويسوق المحب اليه

فصل

واما محبة النسوان فلا لوم على المحب فيها بل هي من كماله وقد من الله سبحانه بها على عباده فقال ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة الآية فجعل المرأة سكناً للرجل يسكن اليها قلبه وجعل بينهما خالص الحب وهو المودة المقترنة بالرحمة وقد قال تعالى عقيب ذكره ما أحل لنا من النساء وماحرم منهن

يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم الى قوله خلق الانسان ضعيفاً وذكر سفيان الثوري في تفسيره عن ابن طاوس عن أبيه كان اذا نظر الى النساء لم يصبر عنهن وفي الصحيح من حديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى إمرأة فاتى زينب فقضى حاجته منها وقال ان المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان فاذا رأى أحدكم امرأة فاعجبته فليأت أهله فان ذلك يرد مافي نفسه ففي هذا الحديث عدة فوائد منها الارشاد الى التسلي عن المطلوب بجنسه كما يقوم الطعام مكان الطعام والثوب مقام الثوب ومنها الامر بمداوات الاعجاب بالمرأة المورث لشهوتها بانفع الادوية وهو قضاء وطره من أهله وذلك ينقض شهوته بها وهذا كما أرشد المتحابين الى النكاح كما في سنن ابن ماجه مرفوعا لم ير للمتحابين مثل النكاح ونكاحه لمعشوقه هو دواء العشق الذي جعله الله داءه شرعا وقدراً وبه تداوي نبي الله داود صلى الله عليه وسلم ولم يرتكب نبي الله محرماً وانما تزوج المرأة وضمها الى نسائه لمحبته لها وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته ولا يليق بنا المزيد على هذا وأما قصة زينب بنت جحش فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه وكان يستشير رسول الله صلى الله عليه وسلم في فراقها وهو يأمره بامسا كها فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سيفارقها ولابد فاخفى في نفسه ان يتزوجها اذا فارقها زيد وخشى مقالة الناس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج زوجة ابنه فانه كان قد تبنى زيد قبل النبوة والرب تعالى يريد أن يشرع شرعا عاما فيه مصالح عباده فلما طلقها زيد وانقضت عدتها منه أرسله اليها يخطبها لنفسه فجاء زيد واستدبر الباب بظهره وعظمت في صدره لما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فناداها من وراء الباب يازينب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبك فقالت ماأنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي وقامت الى محرابها فصلت فتولى الله عزوجل نكاحها من رسوله صلى الله عليه وسلم بنفسه وعقد النكاح له من فوق عرشه وجاء الوحي بذلك فلما قضى زيد منها وطرا زوجنا كها فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم لوقته فدخل عليها فكانت تفخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وتقول أنتن زوجتكن أهليكن وزوجني الله عزوجل من فوق سبع سموات فهذه قصة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زينب ولاريب أن النبي صلى الله عليه وسلم حبب اليه النساء كما في الصحيح من حديث أنس ورواه النسائي في سننه والطبراني في الاوسط عنه صلى الله عليه وسلم قال حبب الي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة هذا لفظ الحديث لامايرويه بعضهم حبب الي من دنياكم ثلاث. زاد الامام أحمد في كتاب الزهد في هذا الحديث أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر

عنهن وقد حسـده أعداء الله اليهود على ذلك وقالوا ماهمه إلا النكاح فرد الله سبحانه عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم ونافح عنه فقال أم يحسـدون الناس على ما آتاهم الله من فضله الآية وهـذا خليل الله إمام الحنفاء كان عنده سارة أجمـل نساء العالمين وأحب هاجر وتسرى بها وهذا داود عليه السـلام كان عنده تسعة وتسعون إمرأة فأحب تلك المرأة وتزوجها فكمل المائة وهذا سليمان ابنه عليه السلام كان يطوف في الليلة على تسعين إمرأة وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن أحب الناس اليه فقال عائشة رضى الله عنها وقال عن خديجة إني رزقت حبها فحبة النساء من كمال الانسان قال ابن عباس خير هذه الامة أكثرهم نساء وقد ذكر الامام أحمد ان عبد الله بن عمر وقع في سهمه يوم حلولا جارية كان عنقها ابريق فضة قال عبد الله فما صبرت عنها ان قبلتها والناس ينظرون الي وبهذا احتج الامام أحمد على جواز الاستمتاع بالمسبية قبل الاستبراء بغير الوطء بخلاف الامة المشتركة والفرق بينهما انه لايتوهم انفساخ الملك في المسبية بخلاف المشتركة فقد ينفسخ فيها الملك فيكون مستمتعا بأمة غيره وقد شفع النبي صلى الله عليه وسلم لعاشق أن يواصله معشوقه بان يتزوج به فأبت وذلك في قصة مغيث وبريرة فانه رآه يمشي خلفها بعد فراقها ودموعه تجري على خديه فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسـلم لو راجعتيه فقالت أتامرني قال لا إنما أشفع فقالت لاحاجة لي به فقال لعمه ياعباس ألاتعجب من حب مغيث بريرة ومن بغضها له ولم ينكر عليه حبها وان كانت قد بانت منه فان هذا مالايملكه وكان النبي صلى الله عليه وسلم يساوي بين نسائه بالقسم ويقول اللهم هذاقسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لاأملك يعني في الحب وقد قال تعالى ولن تسـتطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم يعني في الحب والجماع فلا تميلوا كل الميل ولم يزل الخلفاء الراشدين الرحماء من الناس يشفعون للعشاق الى معشوقهم الجائز وصلهن كما تقدم من فعل أبي بكر وعثمان وكذلك علي أتي بغلام من العرب وجد في دار قوم بالليـل فقال له ماقصتك قال لست بسارق ولكني أصدقك

تعلقت في دار الرياحي خريده * يذل لها من حسن منظرها البدر
لها في بنات الروم حسن ومنظر * اذا افتخرت بالحسن عانقها الفخر
فلما طرقت الدار من حب مهجتي * أتيت وفيها من يوقدها الجمر
تبادر أهل الدار بي ثم صيحوا * هو اللص محتوم له القتل والاسر

فلما سمع علي بن أبي طالب رضى الله عنه قوله رق له وقال للمهلب بن رباح إسمح له بها فقال ياأمير المومنين سله من هو فقال النهاس بن عينة فقال خذها فهي لك واشتري معاوية

جارية فأعجب بها إعجابا شديداً فسمعها يوما تنشد أبياتا منها

وفارقته كالغصن يهتز في الثرى * طريرا وسيما بعد ماطر شاربه

فسئلها فأخبرته انها تحب سيدها فردها اليه وفي قلبه منها وذكر الزمخشري في ربيعه ان زبيدة قرأت في طريق مكة على حائط

أما في عباد الله أو في إمائه * كريم يجلي الهم عن ذاهل العقل

له مقلة إما المآء في قريحة * وأما الحشا فالنار منه على رجل

فنذرت أن تحتال لقائلها ان عرفته حتى تجمع بينه وبين من يحبه فبينما هي في المزدلفة أذ سمعت من ينشد البيتين فطلبته فزعم انه قالهما في ابنة عمله نذر أهلها أن لا يزوجوها منه فوجهت الى الحي وما زالت تبذل لهم المال حتى زوجوها منه واذا المرأة أعشق منه لها فكانت تعده من أعظم حسناتها فتقول ما أنا بشيء أسر مني من جمعي بين ذلك الفتى والفتاة وقال الخرائطي وكان لسليمان بن عبد الملك غلام وجارية يتحابان فكتب الغلام لها يوما

ولقد رأيتك في المنام كأنما * أسقيتني من ماء فيك البارد

وكأن كفك في يدي وكأننا * بتنا جميعا في فراش واحد

فطفقت نومي كله متراقدا * لأراك في نومي ولست براقد

فأجابته الجارية

خيرا رأيت وكلما أبصرته * ستناله مني برغم الحاسد

إني لأرجو أن تكون معانقي * وتبيت مني فوق ثدي ناهد

وأراك بين خلاخلي ودمالجي * وأراك فوق ترائبي ومحاشدي

فبلغ ذلك سليمان فأنكحها الغلام وأحسن حالهما على فرط غيرته وقال جامع ابن مرخيه سألت سعيد بن المسيب مفتي المدينة هل من حب درها من وزر فقال سعيد انما تلام على ما تستطيع من الأمر فقال سعيد والله ماسألني أحد عن هذا ولو سألني ما كنت أجيب الا به فعشق النساء ثلاثة أقسام عشق هو قربة وطاعة وهو عشق الرجل امرأته وجاريته وهذا العشق نافع فانه أدعي الى المقاصد التي شرع الله لها النكاح وأكف للبصر والقلب عن التطلع الى غير أهله ولهذا يحمد هذا العاشق عند الله وعند الناس وعشق هو مقت عند الله وبعد من رحمته وهو أضر شيء على العبد في دينه ودنياه وهو عشق المردان فما ابتلى به الا من سقط من عين الله وطرد عن بابه وأبعد قلبه عنه وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله كما قال بعض السلف إذا سقط العبد من عين الله ابتلاه

بمحبة المردان وهذه المحبة هى التي جلبت على قوم لوط ماجلبت وما أوتوا الا من هذا العشق قال الله تعالى لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون ودواء هذا الداء الردى الاستعانة بمقلب القلوب وصدق اللجأ اليه والاشتغال بذكره والتعوض بحبه وقربه والتفكر بالالم الذي يعقبه هذا العشق واللذة التي تفوته به فترتب عليه فوات أعظم محبوب وحصول أعظم مكروه فاذا قدمت نفسه على هذا وآثرته فليكبر على نفسه تكبير الجنازة وليعلم ان البلاء قد أحاط به والقسم الثالث من العشق العشق المباح الذي لا يملك كعشق من صورت له امرأة جميلة أو رآها فجأة من غير قصد فاورثته ذلك عشق لها ولم يحدث له ذلك العشق معصية فهذا لا يملك ولا يعاقب عليه والانفع له مدافعته والاشتغال بما هو أنفع له منه والواجب على هذا أن يكتم ويعف ويصبر على بلواه فيثيبه الله على ذلك ويعوضه على صبره لله وعفته وترك طاعته هواه وإيثار مرضاة الله وما عنده

فصل

والعشاق ثلاثة أقسام منهم من يعشق الجمال المطلق ومنهم من يعشق الجمال المقيد سواء طمع بوصاله أو لم يطمع ومنهم من لا يعشق الا من طمع لوصاله وبين هذه الانواع الثلاثة تفاوت في القوة والضعف فعاشق الجمال المطلق يهيم قلبه في كل واد وله في كل صورة جميلة مراد

فيوما بحزوى ويوم بالعقيق * وبالعذيب يوماً ويوما بالحليصاء
وتارة ينتحي بنجد واودية شعب العقيق وطورا قصر أيتما

فهذا عشقه أوسع ولكنه غير ثابت كثير التنقل

يهيم بهذا ثم يعشق غيره * ويسلاهم من وقته حين يصبح

وعاشق الجمال المقيد أثبت على معشوقه وأدوم محبة له ومحبته أقوى من محبة الاول لاجتماعها في واحد ويقسم الاولى ولكن يضعفهما عدم الطمع في الوصال وعاشق الجمال الذي يطمع في وصاله أعقل العشاق وأعرفهم وحبه أقوى لان الطمع يمده ويقويه

فصل

وأما حديث من عشق وعف فهذا ممن يرويه سويد بن سعيد وقد أنكره حفاظ الاسلام عليه قال ابن عدي في كامله هذا الحديث أحد ما أنكر على سويد وكذلك ذكره البيهقي وابن طاهر في الزخيرة والتذكرة وأبو الفرج بن الجوزي وعده من الموضوعات وأنكره

أبو عبد الله الحاكم على تساهله وقال أنا أتعجب منه قلت والصواب في الحديث انه من كلام ابن عباس رضي الله عنهما موقوفا عليه فغلط سويد في رفعه قال أبو محمد بن خلف بن المرزبان حدثنا أبو بكر بن الازرق عن سويد فعاتبته على ذلك فاسقط ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وكان بعد ذلك يسأل عنه ولا يرفعه ولا يشبه هذا كلام النبوة وأما ما رواه الخطيب له عن الزهري حدثنا المعافا بن زكريا حدثنا قطبة بن الفضل حدثنا أحمد بن محمد بن مسروق حدثنا سويد حدثنا ابن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعا فمن أبين الخطأ ولا يحمل هذا عن هشام عن أبيه عن عائشة مثل هـذا عنه من شم أدنى رائحة من العلم من الحديث ونحن نشهد بالله أن عائشة ما تكلمت بهذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ولا حدث به عنها عروة ولا حدث به عنه هشام قط وأما حديث ابن الماجشون عن عبد الله بن أبي حازم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا فكذب على ابن الماجشون فانه لم يحدث بهذا ولم يحدث به عنه الزبير بن بكار وانما هذا من تركيب بعض الوضاعين ويا سبحان الله كيف يحتمل هذا الاسناد مثل هذا المتن فقبح الله الواضعين وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزي من حديث محمد بن جعفر بن سهل حدثنا يعقوب بن عيسى عن ولد عبد الرحمن بن عوف عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مرفوعاً وهذا غلط قبيح فان محمد بن جعفر هذا هو الخرائطي ووفاته سنة سبع وعشرين وثلاثمائة فمحال أن يدرك شيخه يعقوب ابن أبي نجيح لاسيما وقد رواه في كتاب الاعتلال عن يعقوب هذا عن الزبير عن عبد الملك عن عبد العزيز عن ابن أبي نجيح والخرائطي هذا مشهور بالضعف في الرواية ذكره أبو الفرج في كتاب الضعفاء وكلام حفاظ الاسلام في إنكار هذا الحديث هو الميزان واليهم يرجع في هذا الشأن وما صححه بل ولا حسنه أحد يعول في علم الحديث عليه ويرجع في الصحيح اليه ولا من عادته التساهل والتسامح فانه لم يصف نفسه له ويكفي أن ابن طاهر الذي يتساهل في أحاديث التصوف ويروي منها الغث والسمين والمنخنقة والموقوذة قد أنكره وحكم ببطلانه نعم ابن عباس غير مستنكر ذلك عنه وقد ذكر أبو محمد بن حزم عنه أنه سئل عن الميت عشقا فقال قتيل الهوي لا عقل ولا قود ورفع اليه بعرفات شاب قد صار كالفرخ فقال ما شأنه فقال العشق فجعل عامة يومه يستعيذ من العشق فهذا تفسير من قال من عشق وعف وكتم ومات فهو شهيد ومما يوضح ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم عد الشهداء في الصحيح فذكر المقتول في الجهاد والمبطون والحريق والنفساء يقتلها ولدها والغريق وصاحب الهدم فلم يذكر منهم العاشق يقتله العشق وحسب قتيل العشق ان يصح له هـذا الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما على أنه لا يدخل الجنة حتى يصبر لله ويعف لله ويكتم لله وهذا لا يكون

إلا مع قـدرته على معشوقه وايثار محبة الله وخوفه ورضاه وهذا أحق من دخل تحت
قوله تعـالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن
الهوى فان الجنة هي المأوي وتحت قوله تعالى ولمن
خاف مقام ربه جنتـان فنسأل الله العظـيم
رب العرش الكريم أن يجعلنا ممن آثر
وابتـغي حبـه ورضاه على هواه
بذلك قربه ورضاه آمين يارب
العالمين وصـلي الله على
محمـد وآله وصحبه
أجمعـين
آمـين

م

